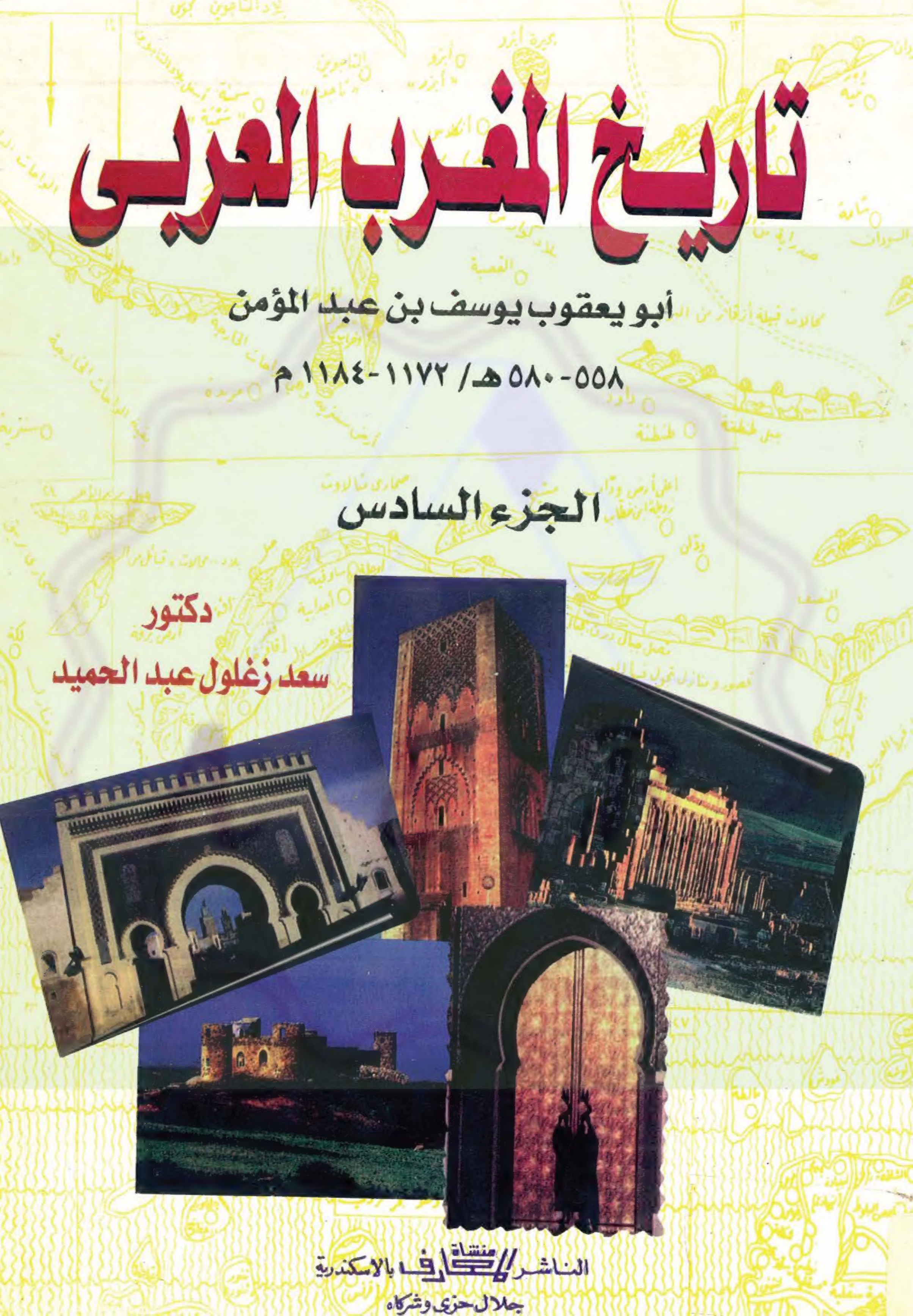


تاريخ المغرب العربي

أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن

٥٥٨-٥٨٠ هـ/ ١١٧٢-١١٨٤ م

الجزء السادس

دكتور
سعد زغلول عبد الحميد

الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية
جلال حزى وشركاه


A S R

الناشر : منشأة المعارف ، جلال حزى وشركاه

٤٤شارع سعد زغلول – محطة الرمل – الاسكندرية – ت/ف ٤٨٧٣٣٠٣/٤٨٥٣٠٥٥

٣٢ شارع دكتور مصطفى مشرفة – سوتير – الاسكندرية ت/٤٨٤٣٦٦٢/٤٨٥٤٣٣٨

الادارة: ٢٤شارع ابراهيم سيد احمد – محرم بك – الاسكندرية ت/ف ٣٩٢٢١٦٤

EMAIL: monchaa@maktoob.com

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق:

اسم الكتاب : تاريخ المغرب العربي جـ٦

اسم المؤلف : د.سعد زغلول عبد الحميـد

رقم الايداع : ٢٠٠٣/١٩١٤٨.

الترقيم الدولى: 1 - 237 1 - 03 - 977

التجهيزات الفنية:

طبـــــاعة شركة الجلال للطباعة ت : ٤٤٩١٢٤٤

تاريخ المغرب العربي

الجزء السادس

أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن

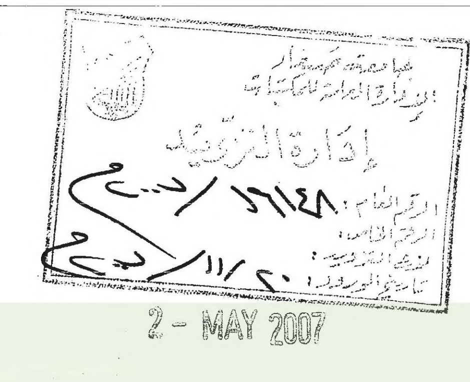
٥٥٨-٥٨٠ هـ/ ١١٧٢-١١٨٤ م

الدكتور
سعد زغلول عبد الحميد

٢٠٠٤



الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية
جلال حزى وشركاه


إدارة التزويد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لقد كان في قصصهم

عبرة لأولي الألباب ﴾

صدق الله العظيم

الآية رقم ١١١ من سورة يوسف


A S R

التقديـــم

بسم الله : نمهد لختام كتابنا في « تاريخ المغرب العربي » بالجزء السادس، وموضوعه «أبو يعقوب بن عبد المؤمن » «أمير المؤمنين » «وخليفة الموحدين » والذي يعتبره بعض كتّاب الدولة الموحدية بمثابة « واسطة العقد » بالنسبة لأمراء تلك الدولة، لايُدانيه في هذا الوصف إلاّ عبد المؤمن (الوالد) قبله، ومن ثم أبو يوسف يعقوب المنصور (الابن) بعده.

وإذا كانت واسطة العقد قد انثلمت بوفاة يوسف في حملته هذه بالأندلس. فقد وقع علي عاتق ابنه أبي يوسف يعقوب تقويم الموقف، بالظفر والثأر، مما يأتي في الجزء التالي - ان شاء الله.

الإسكندرية في يناير/٢٠٠٤

سعد زغلول عبد الحميد


A S R



الفهرس


A S R

الفهـرس

فهـرس الأقسـام

الخرائط والأشكال


A S R


الموحدون: عصر العظمة
بلوغ الذروة نذير الهبوط إلي المنحدر مابين
فشل شنترين وانتصار الأرك وهزيمة العقاب
٥٨٠هـ / ١١٨٤م ٥٩١هـ / ١١٩٤م ٦٠٩هـ / ١٢١٢م
يوسف بن عبد المؤمن يعقوب المنصور محمد الناصر


A S R

﴿ ١ ﴾

أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن
٥٥٨-٥٨٠هـ / ١١٧٢-١١٨٤م

حول ولاية العهد واعتلاء العرش:

ولاية العهد:

ترك عبد المؤمن بن علي، خليفة ابن تومرت، ما بين ١٦ (ستة عشر) و١٨ (ثمانية عشر) ولداً، حسبما تنص رواية كل من ابن صاحب الصلاة (في المن بالإمامة) وعبد الواحد المراكشي (في المعجب)، بينما لا تذكران له من البنات إلا إثنتين، هما: صفية وعائشة فقط. ومن المهم في تلك الرواية النص على علاقة الأخوة التامة (أخوة الأبوين) ما بين الأشقاء منهم، والتي يمكن أن يكون لها تأثيرها في خصوصية العلاقة بين الإخوة الأشقاء، كما هو الحال بالنسبة لأبي يعقوب يوسف، ولي العهد وشقيقه أبي حفص عمر الذي صار بمثابة الوزير أو الحاجب (المسئول عن القصر) بالنسبة لأخيه الأمير[1]، كمثل موسى وهارون.

والمهم في مسألة ولاية عهد عبد المؤمن بن علي، خليفة المهدي، ومتمم رسالته: الهادي إلى طريقته، إن الأمر لم يتوقف عند تنحية الإبن الأكبر: محمد، على أساس عدم الأهلية لمنصب رياسة جماعة الموحدين، من حيث تجريحه بالخروج على الشرع باستباحة شرب الخمر حتى السكر، بل وتعدى ذلك إلى ترشيح الأخ الأصغر منه يوسف (أبو يعقوب) إلى الخلافة، مع الاكتفاء باستمرار شقيقه الأكبر منه عمر (أبو حفص) في منصب الجباية

---

(١) أنظر إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٢٢٢ هـ١- حيث النص أيضاً على أن محمداً المخلوع، وأبو محمد عبد الله، وأبا سعيد عثمان، وأبا علي الحسن وأبا علي الحسين كانوا أشقاء، وقارن عبد الواحد المراكشي ص٢٣٦ ومابعدها.

أو الوزارة التى كان يشغلها على أواخر أيام والده «الخليفة».

والأمر هنا يستأهل التفكير، فمسألة التغاضى عن حق الأسن من الأخوة (للترشيح للخلافة) مرتين دفعة واحدة، أولاها تتمثل فى تنحية محمد (أبو عبد الله)، الإبن الأكبر لعبد المؤمن، الأمر الذى يشكك فى أن يكون فى المسألة مؤامرة حريم (بالقصر الأميرى)، وثانيهما تتمثل فى تقديم الأبن الأصغر على أخيه الأكبر سناً، وهو ما قد لا يبرّره التفكير فى مسألة مؤامرة الحريم، بل الأهلية الخاصة بكل من الأخوين الشقيقين عمر (الأكبر) الذى كانت له الوزارة أو الحجابة، ويوسف (الأصغر) الذى كانت له الحنكة الإدارية والثقافية فى ولاية أشبيلية، والكفاية العسكرية والجدية فى إدارة حرب الصوائف السنوية ضد الممالك الأسبانية المجاورة فى الأندلس- مما سبقت الإشارة إليه.

وهنا لا بأس من الإشارة إلى أن ولاية أشبيلية كانت قد أصبحت من مخصصات ولى العهد، منذ أيام الدولة المرابطية على عهد يوسف بن تاشفين الذى أعدّ ابنه عليه فى الأندلس علمياً، ومن ثم ما كان من إعداد تاشفين بن علىْ هو الآخر، علمياً وعسكرياً بالأندلس [1]. فكأن النظم السياسية والإدارية فى دولة الموحدين كانت تركة عصر المرابطين، وبالتالى يمكن القول أن النظم فى دول المغرب والأندلس كانت مستوحاة من نظم دولة الخلافة فى المشرق- وهو الأمر المقبول، كما هو الحال بين الفرع والأصل.[2] وهذه ملاحظة لا يستهان بها.

---

(١) أنظر ج٥ ص٣٤١، تماماً كما كان مغرب الدولة العباسية فى عهد الرشيد من مخصصات ولى العهد الأول (الأمين) بينما كان المشرق من مخصصات ولى العهد الثانى (المأمون) (ج١).

(٢) أنظر سوفاجيه وكلود كاين، مصادر دارسة التاريخ الإسلامى، ترجمة، عبد الستار حلوجى، عبد الوهاب علوب، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٨، رقم ٣١ (القاهرة)، ص١٢ (مقدمة كلود كاين) وص٢٤ (تمهيد سوفاجيه)- من مكتبة أحمد أبو زيد.

إعتلاء العرش:

إلى جانب مشكلة ولى العهد المخلوع: «أبو عبد الله محمد»، إبن عبد المؤمن الأكبر سناً، أتت وفاة عبد المؤمن فى تلك الظروف الإستثنائية، فى ثغر رباط الفتح فى منطقة سلا، لتضيف صعوبات أخرى. فبينما كان عبد المؤمن يعد (سنة ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م) العدّة للعبور إلى الأندلس للإشراف مباشرة على الصراع ضد حرابة الأندلسيين، والجهاد ضد استرداد الأسبان المسحيين، بعد بناء كل من رابطة جبل الفتح (جبل طارق) على العدوة الأندلسية، ورباط الفتح (العاصمة الحالية) على العدوة المغربية، وقع فريسة للمرض الذى مات فيه (جمادى الثانى ٥٥٨هـ/ مايه ١١٦٣م).

وهنا وقعت الجماعة الموحدية فى مأزق قريب من ذلك الذى وقعت فيه عند وفاة الإمام المعصوم، المهدى المعلوم: محمد بن تومرت الهرغى، فكان على الجماعة أن تتريث في إعلان ذلك النبأ العظيم، وكان من الطبيعى أن تتفاوت آراء المسئولين، من: ولى العهد المنتظر أو أخيه الحاجب (أو الوزير)، ومن ثم بقية الجهاز الإدارى والحربى للدولة الموحدية، إبتداء من: أهل العشرة (صحابة الإمام)، ومن ثم: الطلبة والحفاظ، ثم رؤساء القبائل على مراتبهم، من: أهل الخمسين والسبعين ومن تلاهم من الشيوخ، حسب: السابقة فى التوحيد والإقدام فى الجهاد.

وبطبيعة الحال لم تكن فكرة الغيبة: غيبة الإمام، ومن ثم «الرجعة»، خافية على جماعة الموحدين، وهكذا اختلفت الآراء فى تسلسل الأحداث التى تربط ما بين خلع الأمير محمد (أبو عبد الله، وولاية الأمير يوسف (أبو يعقوب). فمسألة تجريح أبى عبد الله محمد، والتفكير الجدى فى عدم صلاحيته للولاية، بدأت عند زيارة عبد المؤمن لضريح المهدى ابن تومرت، تمهيداً للحركة نحو رباط الفتح، إعداداً للجهاد فى الأندلس.

والظاهر أن الأمر لم يتعد وقتئذ، لفت الأنظار الى عدم أهلية ولى العهد «محمد المخلوع» دون خلعه حقيقة، مما سبقت الإشارة إليه ، وهو

الأمر الذى تؤكده رواية عبد الواحد المراكشى التى تنص على أنه: «لما مات عبد المؤمن إضطرب أمر محمد واختلف عليه إختلافاً كثيراً، وكانت ولايته إلى أن خلع ٤٥ (خمسة وأربعين) يوماً.»[١]

ولما كانت رواية ابن صاحب الصلاة صريحة فى أن خلع محمد (أبو عبد الله) كان قد تمّ فى الرباط (رباط الفتح) أثناء الفترة التى ساءت فيها صحة عبد المؤمن، وخيف من موته، قبل أن تحسم مسألة خلع محمد، الأمر الذى قد يؤدى إلى الفتنة[٢]، ومع تمادى المرض أمر عبد المؤمن بإسقاط محمد من الخطبة، وذلك فى يوم الجمعة ٢ جمادى الثانى سنة ٥٥٨هـ/٩مايُه ١١٦٣م. ويسترسل النص: «وفهم الناس أن الجرحة الموصوفة قد قضى بها، وأسقط بسببها من الخطبة».[٣]

وبذلك يكون خلع محمد من ولاية العهد قد تمّ بطريق الإعلان منُ أعلى المنبر فى رباط الفتح قبل وفاة عبد المؤمن بأكثر من أسبوعين[٤]. وهنا يمكن أخذ مقالة عبد الواحد المراكشى: بأن خلع محمد كان بعد ٤٥ يوماً فقط من ولايته[٥] على أنها تعنى صدور المرسوم (الرسالة الرسمية) بعد أن ذهبت دهشة كل من خلع ولى العهد (محمد) ووفاة «سراج الموحدين» (والده عبد المؤمن). وبذلك تصح كل من الروايتين الموجودتين: رواية «منّ إبن صاحب الصلاة»، رجل الدولة وكاتبها، و«معجب عبد الواحد» المقرب من رجال الدولة، والوثيق الصلة أيضاً بعدد من أمرائها السادات.[٦]

(١) المعجب، ص٢٣٦ .

(٢) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٢٢٢- حيث النص على أنه لم يزل الألم والوجع يشتد معه (عبد المؤمن)، وهو يذكر الله والنبى والمهدى والصديقين والشهداء والصالحين.

(٣) المن بالإمامة ، ص ٢٢١)

(٤) ج٥ ص٥٤٦، وقارن إبن الأثير، ج١١ ص٢٩٦ حيث وفاة عبد المؤمن فى ٢٠ جمادى الآخر.

(٥) المعجب ص ٢٣٦ .

(٦) انظر ما يأتى فى الهامش ص ٢١ التالية.

وتنسب رواية عبد الواحد المراكشي تدبير خلع محمد إلى كل من الأخوين: يوسف (أبو يعقوب) وعمر (أبو حفص)، الأمر الذى سمح بتأرجح «الولاية» بينهما، ولو أن الأمر انتهى بأن نحَّى عمر -رغم أنه الأسن- نفسه عن الولاية، وتأخر مختاراً، وبايع لأخيه أبى يعقوب...، حمله على ذلك «فرط عقله وإيثار دينه، وحب المصلحة للمسلمين».[(١)]

---

(١) المعجب ص٢٣٦- حيث يردف عبد الواحد مقالته هذه بالقول: «لأنه (أى عمر) كان يعلم من نفسه أشياء لا يصلح معها تدبير المملكة، وضبط أمور الرعية، فبايع الناس أبا يعقوب، وإتفقت عليه الكلمة، فلم يختلف عليه أحد من إخوته ولا من غيرهم. وذلك كله بسعى أبى حفص عمر شقيقه: أخوه لأبيه وأمه، وشدة تلطف وجودة رأيه. هذا، كما ينص عبد الواحد على أن «أم أبى يعقوب يوسف، وأم أخيه عمر (أبى حفص) حرّة أسمها زينب بنت موسى الضرير، من: شيوخ أهل تينمل وأعيانهم، من صنيعة أنسا...».

يوسف أميراً أو ملكاً لمدة ٥ (خمس) سنوات قبل حمل اللقب الخلافي: «أميـر المؤمنيـن»

والظاهر أن خلع الأخ الأكبر، وتنحى الأخ الأسن، كما ينص على ذلك عبد الواحد المراكشي في معجمه، إلى جانب توقف الأخوين: عبد الله (أبو محمد) وعثمان (أبو سعيد) عن بيعة يوسف، وعن البدار للحضرة مراكش.(١) وكانت من الأسباب التى جعلت يوسف يقنع خلال السنتين الأوليين بحمل لقب «الأمير» دون «أمير المؤمنين»، بمعنى عدم حصوله على إجماع المسئولين، من السادة الإخوة ومشايخ الحرس القديم من الموحدين.

ولقد أتت إلى جانب ذلك الإضطرابات المحلية فى كل من بلاد الريف بالعدوة المغربية، إلى جانب الحرابة فى الأندلس وتهديد «الإسترداد» لتضع مزيداً من العراقيل أمام يوسف للحصول على الإجماع اللازم لحمله لقب «أمير المؤمنين»، لمدة ٣ (ثلاث) سنوات أخرى، لتكتمل «الخمسية».

والحقيقة أن يوسف كان يحمل فعلاً خلال الخمس سنوات هذه لقب الأمير فقط أو الملك. وهذا ما تؤكده الرسالة الصادرة الديوان، وهى من إنشاء الكاتب عبد المالك بن عياش، والتى تبيّن دراسة أحداثها التاريخية أنها مؤرخة بشهر شعبان سنة ٥٦٠هـ/ نهاية يونيه ١١٦٥م، وأنها صادرة بإسم الأمير يوسف بن أمير المؤمنين.(٢) وهو ما تؤكده الرسالة الموحدية التى ينقلها إبن صاحب الصلاة، والمؤرخة بأواخر سنة ٥٦٠هـ/ أكتوبر ١١٦٥م، والخاصة بخبر الانتصار على ابن مردنيش- حيث الدعاء

(١) ابن عذارى، الموحدون، ص٥٨، مع النص: «وإستبد السيد الأعلى أبو حفص بالأوامر السلطانية، كما كان مع أبيه».

(٢) انظر رسائل موحدية، بروفنسال، الرباط١٩٤١ (الرسالة رقم ٢٤، ص١٣٨، والدراسة الديبلوماسية، باريز، ١٩٤٢، ص٥٠ .

«لمولانا وسيدنا أمير المؤمنين» (عبد المؤمن)، ومن ثم لفرعه الأنمى ونجله الأزكى: «الأمير الأجل، الملك الأسعد: أبو يعقوب» (يوسف) المخصوص بغرائب الرغائب.(١)

والذى نراه أن فترة السنتين الأوليين اللتين لم يكتمل ليوسف فيهما حمل اللقب الخلافى: «أمير المؤمنين» يمكن أن تعادلا فترة التهدئة أو التهدين اللازمة لاستقرار الأمور بالنسبة لولى العهد المؤمنى الأول، تماماً كما كانت فترة غيبة إبن تومرت، بين وفاته وإعلان «خلافة عبد المؤمن للإمام المعصوم: المهدى المعلوم)، والتي يقدرها ابن خلدون هى الأخرى بسنتين. فكأن أخبار ابن تومرت كانت ماتزال تثير الحنين فى قلوب الموحدين، وخاصة السابقين الأولين منهم، حتى العقد الرابع من وفاة إبن تومرت.

وهكذا فكأن الغيبة قد أصبحت واحدة من أسس نظم الحكم عند الموحدين، وهذا ما سوف يظهر بشكل أوضح فى نهاية حكم الثالث من خلفاء المؤمنين: يعقوب المنصور الذى إختلفت الآراء فى وفاته أو فى غيبته.(٢)

والمهم أن الظروف السياسية والعسكرية كانت قد تحسنت فى الدولة الموحدية، فى نهاية السنوات الخمس التى حمل فيها أبو يعقوب يوسف لقب الأمير فقط. وكانت بشارة انفراج الأزمة هو عودة علاقات المحبة الأخوية بين الشقيقين: يوسف وعمر، إعتباراً من سنة ٥٦٢هـ/١١٦٧م (مما يأتى)، ومن ثم الإنتصارات الكبيرة التى حققها الشيخ أبو عبد الله بن أبى إبراهيم، والى غرناطة الذى استمر فى ولايته هذه حتى سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م (مما يأتى)، والتى كانت من العوامل المشجعة، من غير

---

(١) المن بالإمامة، ص٢٧٦

(٢) انظر للمؤلف، العلاقة بين صلاح الدين وأبى يوسف يعقوب المنصور الموحدى، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ١٩٥٣ (المستخرج، ص١٥-١٧.

شك بترفيع يوسف ومبايعته بإمرة المؤمنين فى سنة ٥٦٣هـ/١١٦٨م[١] والتى أقيمت فيها الاحتفالات العظيمة بالمناسبة السعيدة، كما كانت فرصة لتأكيد إمارة المؤمنين بشعاراتها المميزة، من إتخاذ العلامة الخلافية لترتيب الرسائل الرسمية (مما يأتى)، وتزيين المجلس الخلافى بالرمح ذى السنانين الأثنين(مما يأتى)، والذى يذكر بذى الفقار: سيف الإمام على، والذى يذكر أيضا بالإمام المعصوم، المهدى المعلوم: محمد (بن عبد الله: إبن تومرت)- أول من اتخذ الحمدلة علامة لرسائله الموحدية.

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٢٢٢ .

شخصية يوسف: أبو يعقوب

من الأمور التى تستلفت النظر أن أبناء عبد المؤمن بن على الذين كونوا أسرة ملوكية أصبحت من أشهر الأسر الحاكمة فى تاريخ المغرب والأندلس، هى: الأسرة المؤمنية أو أسرة بنى عبد المؤمن الموحدية.

والحقيقة أنه إذا كان عبد المؤمن بن على الكومى هو المؤسس الحقيقى للدولة الموحدية الأمبراطورية، فإن ذلك يجعله من كبار رجال دول الإسلام، ليس فى المغرب والأندلس فقط، بل فى كل مكان وزمان. فالرجل سياسى بارع، وهو قائد شجاع، ينطبق عليه مقولة: «ألف ثعلب يقودهم أسد، خير من ألف أسد يقودهم ثعلب». وهو أيضاً بناء كبير يبنى المدن والقلاع والمساجد العظمى والمنائر الشاهقة. وهو فى النهاية مثقف مرموق: يجيد علوم الدين واللغة، من حيث هو تلميذ المهدى المعلوم: إبتداء، ومن ثم خليفته: إنتهاء. وهو فى النهاية رب السيف والقلم، تعرفه ساحات الوغى حيث تجرى الدماء أنهاراً، وتزهو به محافل العلم والأدب، حيث الحكمة والخطابة والشعر- وحيث فتوحاته أيضاً فى تقييم أهداف النثر والنظم وتثمين المقاصد الفنية لمادحيه من الشعراء (مما سبق).

وإذا كانت النقلة الحادة من البساطة الشعبية إلى الرفعة الملوكية قد سهّل على عبد المؤمن إجتنابها كفايته وقوة شخصيته، فإن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لأبنائه الذين ناهزوا الـ١٨ (ثمانية عشر) ولداً، إذ لم يستطع بعضهم مقاومة مغريات حياة الرفاهية الملوكية، وخاصة أن بلاد الأندلس كانت مدرستهم المفضلة، فضلاً عن مغريات بلاد السوس، مهد الحركة الموحدية بكرمها وعسلها.

والحقيقة أنه إذا كان عبد المؤمن قد نحّى إبنه محمد المخلوع عن ولاية العهد لما أصابه من الجرح بالشرب والسكر، فإن ذلك «الكشف» كان متأخراً، فلقد سبق للوزير عبد السلام الكومى، «قريبهم» أن اكتشف هذا الخلل الذى اعترى بعض أبناء الخليفة السادة، وذلك خلال حملة أفريقية،

بل وحاول تقويمه فكان جزاؤه الإتهام بخيانة الأمانة، ومن ثم السجن والإغتيال بالسّم (مما سبق). وهنا يمكن إتهام عبد المؤمن- الذى كان لا يهاب إقامة محاكم التمييز الدموية أو التفتيش- بالضعف إزاء عاطفة الأبوة العارمة، وهو الأمر المفهوم- فالحقيقة أن عجلة التحضر بالنسبة للمغاربة من الوحدين، لم يكن من الممكن إيقافها، وهى واقعة بين مشهيات بلاد الأندلس ومغريات بلاد السوس.

هذا عن عبد المؤمن: «سراج الموحدين» الذى أصبح بعد معاناة الجهد والعمل لمدة تقرب من النصف قرن رأساً لأسرة ملكية تحمل كلا من اسمه وتوحيد ابن تومرت. هذا عن أول الدولة المؤمنية، أما عن أول بنيه، وهو أبو يعقوب يوسف، فهو ثالث المؤسسين الكبار للدولة بعد المنظّر الأول (إبن تومرت) والقائد الثانى (عبد المؤمن) الذى يستحق أيضا لقب البنّاء بجدارة، ولو أننا نود أن نخص الثالث (يوسف) بالعالم البناء رغم براعته وشجاعته فى القيادة التى أهّلته لولاية العهد، الأمر الذى لا يعفيه من مسئولية الكبوة الشنيعة أمام شنترين، والتى وضعت نهاية مأساوية لولايته.

فيوسف بن عبد المؤمن عرف بين ملوك بنى عبد المؤمن «بالبناء الكبير»، وعلى نهجه هذا سار ابنه المنصور الذى رفع راية التوحيد خفاقة فى سماء الأندلس. ومن ثم كان آخر السلاطين العظام، وهو الناصر محمد الذى تم اغتيال إمبراطورية الموحدين بين يديه فى الأندلس، فى غفلة منه، وهى فى أوج إزدهارها، وذلك فى واحد من أيام النحس التى عرفها الإسلام المغربى- الإسبانى، وهو يوم العقاب (سنة ٥٦٩ هـ/١٢١٢م).

صفات أبى يعقوب يوسف:

يعطى عبد الواحد المراكشى صورة شخصية طبيعية وبالألوان ليوسف، قريبة الشبه من صورة عبد المؤمن الوالد. فأبو يعقوب: أبيض البشرة تعلوه حمرة، فهو خمرى اللون كما يقال، شديد سواد الشعر. وهو مستدير الوجه فكأنه قريب الشبه بجنس الترك الآسيوى القمرى، وهو من ثم كبير الفم والعينين. أعنى القامة فهو أقرب إلى الطول منه إلى الوسط.

وفيما يتعلق بالكلام فقد كان مع جهارة صوته، رقيق خوش اللسان، حلو الألفاظ، حسن الحديث، طيب المجالسة.(١)

أما عن ثقافة يوسف، فقد كان أعرف الناس باللغة العربية، كما كان أحفظهم لأيام العرب ومآثرها، وجميع أخبارهم، سواء فى الجاهلية أو فى الإسلام. ومن المهم هنا التركيز على أنه مدين بثقافته تلك إلى أشبيلية بخاصة والأندلس بعامة، حيث كان تعليمه منذ الصغر، قبل ولايته هناك- التى كانت تمهيداً. الولاية العهد.

ففى أشبيلية وجهاتها لقى الكثير من أهل العلم، فى شتى المجالات العروبية، من: علم اللغة والنحو والقرآن وغيرها. وهناك لقى مشاهير أساتذة العصر، مثل: إبن مْلكون، وهو: أبو إسحق إبراهيم بن عبد الملك، اللغوى المتقن، فأخذ عنهم، وبرع فى كثير مما أخذه عنهم.(٢)

وفى علوم الدين كان ليوسف بن عبد المؤمن، كما عرف عنه عبد الواحد المراكشى سماعاً عن أبنائه، «إيثار للعلم شديد، وتعطش مفرط إليه» حتى «صح عنه أنه كان يحفظ أحد الصحيحين، أغلب الظن أنه البخارى،

---

(١) المعجب، ص٣٧، وقارن إبن خلكان، وفيات الأعيان، ج٧ ص١٣٤- حيث نفس الرواية.

(٢) عبد الواحد المراكشى، المعجب، ص٢٣٧- وفى ذلك يخبرنا عبد الواحد، قائلا: أخبرنى من لقيته، وشافهته منهم، أنه كان: أحسن الناس ألفاظاً بالقرآن وأسرعهم نفوذ خاطر فى غامض مسائل النحو والعربية.

وذلك فى حياة أبيه مع جمل من الفقه».[١]

وإلى جانب مشاركته فى علوم العربية «طمح به سمو نفسه- كما يقول عبد الواحد- وعلو همته إلى تعلم الفلسفة، الأمر الذى يسمح بالقول أنه كان مكتشف ابن رشد الفيلسوف (Averroes)، أشهر المعلقين على فلسفة أرسطو طاليس.[٢] ثم تخطى ذلك إلى ما هو أشرف من أنواع الفلسفة، وأمر بجمع كتبها... قريباً مما إجتمع للحكم المستنصر[٣]. وهنا يشير عبد الواحد إلى أن الكتب الفلسفية المتعلقة بالطب وأحكام النجوم كانت من بقايا كتب قصور قرطبة التى وقعت أثناء الفتنة بالأندلس إلى رجل من أهل أشبيلية يكنى بأبى الحجاج، ويعرف بالمرانى، كانت عنده جملة كبيرة وقعت إلى أبيه أيام الفتنة- وإن المرانى كان يعيرها فى الغرائر إلى أحد الشباب العاملين بديوان أشبيلية، والذى يعرف بأبى محمد الشذونى، والذى يوصف بأنه أحد المحققين فى صناعة «الأحكام»- جمع حكمة.

والمهم أنه عندما أنهى خبرها إلى أمير المؤمنين (أبى يعقوب يوسف) خبر تلك الكتب أرسل إلى دار الشذونى، وهو بالديوان، تابعه كافور الخصى «وأمره ألا يروّع أحداً من أهل الدار، ولا يأخذ إلا الكتب». وفعلاً أخرجت كتب الحكمة من خزائنها، وحملت إلى مقر الأمير بأشبيلية، وكانت مكافأة الشذونى، أن «ولوه عقب أخذهم الكتب ولاية ضخمة».[٤]

وكانت تلك البداية فى أشبيلية مقدمة لإهتمام أبى يعقوب يوسف بجمع كتب الحكمة التى لم يزل يجمعها، ليس من أقطار الأندلس فقط، بل ومن بلاد المغرب أيضاً. هذا، كما وسع دائرة البحث فى علوم هذه

(١) المعجب، ص٢٣٨ .

(٢) المعجب، ص٢٣٨- حيث النص على أنه جمع كثيراً من أجزاء علم الفلسفة، وأنه «بدأ فى ذلك بعلم الطب، فاستظهر من الكتاب المعروف بالملكى (أكثره)، مما يتعلق بالعلم (النظرى) خاصة دون العمل.

(٣) المعجب، ص٢٣٨-٢٣٩- تعظيماً لأميرنا، ولدولة الموحدين من غير شك.

(٤) المعجب، ص٢٣٨-٢٣٩ .

الفلسفة إلى البحث عن العلماء أيضاً، وخاصة أهل الفكر والنظر «إلى أن إجتمع منهم ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك المغرب».[١]

وهكذا كان من المترددين على القصر والداخلين في صحبة الأمير، من أهل العلوم العقلية: أبو بكر محمد بن طفيل، أحد فلاسفة المسلمين، والعارفين بجميع أجزاء الفلسفة وذلك مايتضح من تصانيفه التى شاهدها عبد الواحد المراكشى، فى أنواع الفلسفة «من الطبيعيات والإلهيات»[٢]. وكان أبو يعقوب يوسف شديد الشغف بابن طفيل والحب له، حتى كان يقيم فى القصر- كما بلغ عبد الواحد المراكشى- عنده أياماً ليلاً ونهاراً لا يظهر.[٣]

أما عن اكتشاف ابن رشد الحفيد من قبل ابن طفيل، وتقديمه للخليفة أبى يعقوب يوسف فيعتبر من أهم الأعمال المضيئة فى تاريخ دولة الموحدين، بل وفى تاريخ الفكر العقلانى فى العصر الأوروبى الوسيط، ولا شك أن هذا الحدث الحضارى هو الذى دعا عبد الواحد إلى القول: أنه «لم يكن فى بنى عبد المؤمن فيمن تقدم منهم وتأخر ملك بالحقيقة غير أبى يعقوب هذا».[٤]

---

(١) المعجب، ص٢٣٩ .

(٢) انظر المعجب، ص٢٣٩-٢٤٠، حيث يقدم عبد الواحد المراكشى معلومات تفصيلية عن أبى بكر بن طفيل الذى تتلمذ على ابن باجه (إبن الصائغ)، والذى كتب فى الطبيعيات: رسالة «حيّ ابن يقظان التى يصفها بأنها «مبدأ النوع الإنسانى على مذهبهم»، وأنها «لطيفة الجرم، كبيرة الفائدة فى ذلك الفن. كما كتب فى الإلهيات التى «صرف عنايته فى آخر عمره إليها». وفى ذلك يشير عبد الواحد إلى أن ابن طفيل «كان حريصاً على الجمع بين الحكمة والشريعة، معظماً لأم النبوات ظاهراً وباطناً... مع إتساع فى العلوم الإسلامية.

(٣) المعجب، ص٠٢١-٢٤١- حيث يقول عبد الواحد: «وكان أبو بكر هذا أحد حسنات الدهر فى ذاته وأدواته. ومن شعره الذى قرأه ابنه على عبد الواحد، مما نظمه فى الزهد.

يا باكياً فرقة الأحباب عن شحط   هلا بكيت فراق الروح للبدن

نور تردد «فى طين إلى أجل   فانحاز علواً وخلّى الطين للكفن

(٤) المعجب، ص٢٤٣ .

فكأن تقرير عبد الواحد المراكشي هذا يعني أن أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن هو أعظم ملوك بنى عبد المؤمن دون منازع. فهو بفضل نزعته الإنسانية، يرقى إلى مرتبة الرئيس الفاضل، الذى تعتبر صناعته في مدينته الفاضلة أفضل الصناعات. وكل ذلك بفضل صحبة أبى بكر بن طفيل الذى وقف من الأمير أبى يعقوب يوسف، موقف الأستاذ أو الأتابك (المربى الوالد)، كما كان الحال فى نظم المشرق التركية الطابع فى ذلك العصر.

وبمثل هذا ما ختم به ابن صاحب الصلاة قضية إستحقاق يوسف للخلافة التومرتية وإمارة المؤمنين في شوال سنة ٥٦٣هـ من أعمال البر التى قام بها، والتى أصبحت علامة مميزة لعهده. فلقد أعفى من العقوبة المسجونين والمدينين ممن انكسرت عليهم مستحقات الدولة من دافعى الضرائب أو من الجباة المتهمين بالخيانة فى الأموال، «وأمنّهم عن المخاوف فيما تقيدّ عليهم في الدواوين».

وهكذا زاد الانبساط والنشاط عند الناس، بفضله وصفحه وعدله... وزاد المخازن... ونمت الأرزاق، وعمرت الأسواق بالبيع والتجارة الرابحة... واغتبط العالم به وببيعته، وكثر المال بالأيدى... وزاد فضله على من كرمه فى جميع العدوة والأندلس، واعتمل الحب فى جميع القلوب.(١)

(١) المن بالإمامة، ص٣٤٧-٣٥٠، حيث الختام بقول أبى تمام:

ولقدْ أراك فهل أراك بغبطة ... والعيش غضٌّ والزمان غلام

أعوام وصل كاد ينسى طولها ... ذكر الهوى فكأنها أيام

هذا كما مدحه إبن حزمون عندما دعى أمير المؤمنين، قائلاً:

جاءتك تسحب ذيلها للموعد ... زهراء طابع تبسعد الأسعد

تهنى الخلافة أن لبست رداءها ... وقعدت منها اليوم أشرف موعد

ان الذى قد قمت تنصر دينه ... أعطاك ميراث النبى محمد!

عمرت قلوب المؤمنين بحبه ... واستمسكوا بعرى المتين المُحْصد

هذا، كما ينص ابن صاحب الصلاة على أن الأمير يوسف أجزل العطاء، وأمر «ببركة» تعم الناس بحضرة مراكش... واستوى بهذا الإنعام المبارك سعده، ونمت الجبايات والخراجات... وعزمت النفوس على الغزو وحرب المحاربين فى الحضر لهم والبدو واتصلت الغبطة بالبيعة الرضوائية والأمان، وقيل للزمان: «أنت خير زمان...».

أحوال الدولة الموحدية عند ولاية يوسف بن عبد المؤمن

توفى عبد المؤمن بن على فى منتصف سنة ٥٥٨هـ/ ١١٦٦م، فى منطقة رباط الفتح بسلا، وفى نيته تأكيد الوجود الموحدى بالأندلس الذى كانت قد بدأت تباشيره هناك من نهاية العقد الرابع وبداية العقد الخامس من القرن الـ٦هـ/١٢م، بفضل حركة المريدين، وعدد من الثوار الأندلسيين (أهل الحرابة مما سبقت الإشارة إليه، الأمر الذى أدى إلى الإهتمام ببناء رباط الفتح على ساحل سلا، وإعادة الحياة إلى منطقة جبل طارق الذى سمى بجبل الفتح (الفتح الموحدى الجديد).

وفى منطقة المجاز هذه كان بناء مدينة جبل الفتح الجديدة، الأمر الذى كان مناسبة لعقد لقاءات واحتفالات كبرى فى المنطقة، ضمت جموع أعيان كل من المغرب والأندلس على نفس الصعيد، حيث بدأ توثيق الروابط المتينة بين العدوتين، مما زاد فى التواصل بين شطرى المغرب الأقصى الجديد بعدوتيه: الأندلسية بشرقها وغربها والسوسية (بشقيها: الفاسى الأدنى والمراكشى الأقصى)، إلى جانب توابعهما فى المغرب الأوسط من أرض بربر صنهاجة، وفى إفريقية من مسارح عرب الهلالية المتمددين حتى طرابلس وبرقة.

هذا، ولو أن المناطق التى استهدفها عبد المؤمن هناك، وضمها إلى دولة التوحيد، وخاصة فى إفريقية وطرابلس، والتى لم تكن ضمن التركة المرابطية، ظلت أطرافاً بعيدة عن مراكش، الأمر الذى سمح للناشطين من بقايا الملثمين إلى استغلالها لصالحهم، حيث كانوا بمثابة الشوكة فى حلق الدولة الموحدية الناشئة.

وهكذا وقع على عاتق الخلفاء من بنى عبد المؤمن عبء مواصلة المحاربة ضد اللمتونيين الملثمين فى مشرق دولتهم بين إفريقية وطرابلس، إلى جانب الجهاد فى الأندلس فيما وراء العدوة والمجاز، الأمر الذى كان يمثل نزيفاً دموياً للدولة الموحدية الفتية، لم تتمكن طويلاً من مواجهة عواقبه الوخيمة بما يتناسب وأعمال الدول التاريخية الكبرى.

الخريطة السياسية العسكرية للأندلس عند ولاية يوسف

كان من الطبيعي أن يزداد موقف المرابطين سوءاً في الأندلس مع نجاح الثورة الموحدية الفتية في المغرب، حيث انتهى الأمر باقتطاع المغرب قبل سقوط العاصمة مراكش. وبذلك ازدادت نيران الفتنة في الأندلس، ومن ثم التشرذم ما بين التطلع ما وراء المضيق حيث كان عبد المؤمن المظفر، أو محاولة الإستئثار بالسلطة وإعلان الاستقلال الطائفي، ومن ثم الإرتماء في أحضان ملك قشتالة الذي كان يحمل لقب الإمبراطور بعد ألفونس المحارب ملك ليون، وإن كانت قشتالة قد بدأت تضعف منذ حين تحت رايات الملوك القصر أو وصاية كبار أمراء الأرستقراطية ما بين آل لارا وآل كاسترو، في الوقت الذي كان ملك البرتغال «الفونسو هنريكيز يقتطع بلاد المسلمين بمعاونة جماعات الإخوان من الفرسان.[١]

والحقيقة أن شبه جزيرة ايبيريا التي كانت مقسمة على عهد خلافة قرطبة- بشكل تقريبي إلى نصفين: شمالي وجنوبي تحددهما في الوسط مدينة طليطلة وتوابعها، حيث منطقة الثغر الأوسط، ما بين أسبانيا المسيحية شمالاً والأندلس الإسلامية جنوباً، لم تعد على ذلك الحال.

فبينما كان خط الحدود ينخفض من الشمال الشرقي- في منطقة الثغر الأعلى- بعيدا عن سرقسطة نحو الجنوب الغربي، كان ذلك الخط ينخفض عند منحنى وادي آنة، في منطقة الثغر الأدنى على سمت لشبونة وشنترين على شاطئ المحيط الجنوبي، الأمر الذي جعل خط التقسيم

---

(١) أنظر أشباخ، المرابطون والموحدون، ترجمة عنان، ج٢ ص٥ عن ملك قشتالة سانشو٣ الذي إتخذ لقب قيصر، والابن الطفل الذي إتخذ لقب الفونسو النبيل، ص ١٨/١٧- حيث قيام ملك البرتغال الفونسو هنريكيز مع بعض جماعات الغرب بالإستيلاء على يابرة (١١٦٦م/٥٦١هـ)، وإنشائه في السنة التالية (٥٦٢/١١٦٧) جماعة القديس ميخائيل- مع الإشارة إلى عزم ملوك النصارى على الإتحاد بعد ظهور الخطر الموحدي.

الحقيقى بين المسيحيين شمالاً والمسلمين جنوباً ينكسر من حدّ طليطلة- حيث قشتالة الجديدة- نحو أسافل نهر الإبرو، وجنوباً بغرب نحو مصبات نهر التاجه، وبذلك أصبحت المنطقة شمال وادى آنه، منطقة أرض حرام (nomans' land)، وبالتالى مسرحاً لتجوال القوات المسيحية (لكل من ليون وقشتالة والبرتغال)، وذلك حتى التخوم الشمالية للوادى الكبير فى منطقة الوسط، وحتى تخوم قرطبة وأشبيلية فى ذلك الزمن الصعب- زمان الطوائف، ومن ثم عصرى المرابطين والموحدين- الأمر الذى كان يزيد من صعوبة عملية الإنقاذ المغربية.

فحدود الخلافة أو جليقية (غاليسيا) وليون المسيحية تقدمت جنوباً مع قيام (دولة البرتغال حتى مصبات تاجه عند لشبونة وشنترين اللتين أصبحتا فى منطقة الأرض الحرام، حيث كان يتم تبادلهما فى منطقة الثغر الأدنى ما بين المسلمين والمسيحيين فى تلك الفترة الحرجة من تاريخ الأندلس، فترة إضمحلال المرابطين وقيام الموحدين بالأندلس. أما الثغر الأعلى بعد ضياع سرقسطة (٥١٢ هـ/١١١٨م) الذى يعادل فى خطورته ضياع طليطلة من قبل (٤٧٩هـ/١٠٨٦م)، فقد هبط هو الآخر جنوباً إلى طرطوشة أو بالأحرى إلى شمال بلنسية التى أصبحت مهددة هى الأخرى أو متبادلة ما بين الإسترداد والاسترجاع.

والحقيقة أن حالة الاضطراب وعدم الاستقرار على الحدود الأسبانية المسيحية والإسلامية كانت نتيجة لافتقاد التوازن السياسى والأمنى فى كل من الجانبين شمالاً وجنوباً. ففى الوقت الذى كانت تتفاقم فيه أحوال الطوائف الأندلسية مع تدخل المرابطين والموحدين فى المغرب، كانت أسبانيا المسيحية تمر بمرحلة شبيهة بالطوائف الإسلامية، من حيث صراعات وحروب ملوك وفرسان النظام الإقطاعى الذى عرفته أوروبا الغربية فى تلك الفترة المبكرة من العصور الوسطى، قبل قيام الملكيات الأوروبية الجديدة بانتهاء الصراع بين الأمبراطورية المقدسة والبابوية- وهو

الأمر الذى كانت له نتائجه الواضحة فى أسبانيا الشمالية المسيحية، وما يتاخمها من أراضى جنوب فرنسا فى الروسْيون واللانجدوك إلى جانب قطلونة والبروڤانس وكونتية قرقشون وتولوز.

ما بين الجهاد وحرابة الثوار فى العدوتين:

موقف ترقب فى الأندلس

فيما يتعلق بالحرب فى الأندلس ينص ابن أبى زرع فى قرطاسه على أن الأمير أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن هو: «أول ملك من ملوك الموحدين جاز إلى الجهاد، فغزا بنفسه، وواظب عليه، واقتنى الزخيرة، واستكثر من الجيوش والجنود». هذا، كما أن ملكه (امتد فى الأندلس) من مدينة تطيلة، قاصية شرق الأندلس، إلى مدينة شنترين من بلاد غرب الأندلس»[١]، فكأنه صاحب الفضل فى إقرار سلطان الموحدين فى بلاد الأندلس من مشرقها إلى مغربها، بعد أن كانت بداية التمدد الموحدى فى الأندلس مقتصرة على مغرب الأندلس فقط، بفضل حركة المريدين، على عهد عبد المؤمن (ج٥). وهنا تشير رواية القرطاس إلى أنه كان «يجبى إليه (يوسف) خراج ذلك كله دون مكس ولا جور، فكثرت الأموال فى أيامه، وتمهدت البلاد، وتأمنت الطرق، وصلح أمر الناس في البادية والحاضرة [٢] كناية عن أن عهد أبي يعقوب يوسف يعتبر بداية عهد الذروة بالنسبة لدولة بنى عبد المؤمن الموحدية.[٣]

وفيما يتعلق بالأندلس كان يوسف عند وفاة والده عبد المؤمن بسلا، على الشاطئ الآخر للعدوة الأندلسية، مستقراً فى ولاية أشبيلية، عاصمة الأندلس، والتى كانت ولايتها من العلامات المميزة لولاية العهد، منذ أيام المرابطين (ج٥).

---

(١) روض القرطاس، ص٢٠٦ .

(٢) القرطاس، ص٢٠٦ .

(٣) نفس المصدر- حيث: وصلح أمر الناس فى البادية والحاضرة لحسن سيرته وعدله.

وهنا نشير إلى ملاحظة هويثى ميراندا الذكية، حيث يشير إلى أن يوسف الذى كان يبلغ من العمر ٢٥ (خمسة وعشرين) عند ولايته، كان قد قضى ٧ (سبع) سنوات فى ولايته من الـ١٨ (ثمانية عشر) عاماً التى أقامها فى أشبيلية، حيث تلقى ثقافته العالية.[١]

(١) هويثى، إمبراطورية الموحدين، ج١ ص٢٢٢ .

ثورة قبائل غمارة على الجانب المغربى من العدوة تهديد أكيد للطريق إلى الأندلس

والمهم أنه ما كان يمكن للأمير يوسف أن يتفرغ لأمور الأندلس قبل أن يتخلص مما أحاط بولايته، من مشاكل عائلية- بعضها فى عقر داره بالأندلس، مما حدث فى قرطبة، وأخرى، من نزاعات عرقية وقومية، مما كان يجرى فى كل من الأندلس والمغرب، الأمر الذى تطلب فى كثير من الأحيان معالجة الموقف فى العدوتين معاً، مما كان يسبب نوعاً من النزيف للطاقة الموحدية على كل مستوياتها.

ثورة صنهاجة مفتاح (الغمارية: الريفية) بقيادة مزيزدغ (مرزدغ)

وهكذا، وقبل التفرغ للجهاد فى الأندلس أو الحرابة، كان على الأمير الشاب (يوسف) فى مستهل إمارته، فى سنة ٥٥٩هـ/١١٦٣م أن يواجه اضطراب قبائل غمارة وغيرها من قبلائل بلاد الريف من صنهاجة. وقائد الثورة رجل من زعماء تلك القبائل الريفية أو الغمارية العريقة إسمه مفتاح (إسم التفائل والاستبشار الدارج فى بلاد المغرب الشرقية حتى عصرنا الحديث) [(١)]، والذى كان قد وحّد ودخل فى الطاعة منذ سنوات، على عهد عبد المؤمن، أيام النضال مع تاشفين والربرتير، فى المغرب الأوسط، ما بين سنة ٥٣٥هـ/ أغسطس ١١٤٠ وسنة ٥٣٩هـ/يوليه ١١٤٤م.[(٢)] والذى نراه أن مفتاح هذا هو الذى أعطى اسمه لذلك الفرع

(١) انظر ابن الأثير، ج١١ سنة ٥٥٩هـ/ ١١٦٣م، والنورى، الدار البيضاء (أبو ضيف)، ص٤٣١ حيث ابن عمرو.

(٢) انظر البيدق، ص٧٨-٧٩ حيث «فوحّد غمارة، منهم: مفتاح ابن عمر، وجزنا إليهم، ونزلنا عند مفتاح بن عمر فى صنهاجة غدُو، وقطع تاشفين... فقلعنا من صنهاجة غُـدُّو» وقلع أيضاً تاشفين مع الإبرتير إلى بنى تاودا، فنزلوا بها، وكان بيننا وبينهم الوادى متاع ورغة، وإنظر ج٥ ص٢٢٠- حيث حملة جبال الريف، وص٢٢٠- حيث توحيد الزعيم الصنهاجي: مفتاح بن عمر.

من صنهاجة غمارة فى ذلك الحين، حيث أصبح «صنهاجة مفتاح»، كما عند ابن أبى زرع.[(١)]

ولما كنا نعتمد رواية ابن الأثير، كما هو الحال بالنسبة للنويرى، فنحن نرى أن مفتاح ابن عمر، أول ثوار جبال غمارة على عهد يوسف بن عبد المؤمن سنة ٥٥٩هـ/١١٦٣م، هو نفسه مزيزدغ (أو مَـرْزدغ)، وهو ثائر بلاد غمارة فى نفس السنة عند غير ابن الأثير من الكتّاب. والذى نراه لتبرير ذلك هو أن يكون مفتاح هو الإسم العربى للثائر، ومزيزدغ أو مَـرْزدغ هو الإسم القومى البربرى (المغربى)، كما الدارج عند بربر المغرب، وكما هو الحال عند الأتراك بالمشرق. وأهم النماذج هنا هو ابن تومرت: محمد بالعربية أو أسْفو بالبربرية.

وهكذا، ولما كانت ثورة مزيزدغ (أو مرزدغ) لا تتعدى تاريخياً سنة ٥٥٩هـ/١١٦٣م، كما هو الدارج عند المؤرخين غير ابن الأثير بينما تنص رواية الكامل على أن ثورة مفتاح إمتدت إلى سنة ٥٦١هـ/١١٦٥م، يكون من الواضح أنه حدث خلط بين ثورة مفتاح وثورة غمارة التالية التى قام بها سبع بن منغفاد. وبذلك يكون ما يخص ثورة مزيزيدغ فى رواية ابن الأثير هو أن «مفتاح بن عمر» «كان مقدماً كبيراً فيهم (صنهاجة غمارة)، وبايعوه بأجمعهم، وامتنعوا به فى جبالهم».[(٢)] وأمام النجاح السريع الذى حققه «مرزدغ» (من صنهاجة مفتاح)، فإنه ضرب السكة، وكتب فيها «مرزدغ الغريب، نصر الله قريب».[(٣)]

والمهم فى نهاية مرزدغ (أو مفتاح)، فى منطقة واجران، هو أن القائد الموحدى يوسف بن سليمان نجح فى إرغامه على التوحيد مرة ثانية سنة

---

(١) القرطاس، ص٢٠٩ .

(٢) إبن الأثير، ج١١ سنة ٥٥٩هـ/ أواخر١١٦٣م، ص ٣١٢-٣١٣، وقارن النويرى، نهاية الأرب، الدار البيضاء، (أبو ضيف) ص٤٣١ .

(٣) القرطاس، ص٢٠٩ .

٥٥٩هـ/١١٦٣-١١٦٤م، وأنه سيّره منفياً إلى قرطبة حيث حدّدت إقامته[1]، وبطبيعة الحال يكون ذلك فى نفس سنة ٥٥٩هـ/١١٦٤م، حسب رواية القرطاس.[2]

والظاهرأن النجاح الذى حققته ثورة مَرَزْدَغْ فى صنهاجة مفتاح شجع الغماريين حقيقة - أى المصامدة أصلاً (ج١ ص٩٧،٨٦)- هذه المرة على مواصلة تجربة التحرر من سلطان الموحدين فى المغرب، وذلك فى الوقت الذى كانت ثورة إبن مردنيش يشتد أوارها فى الأندلس سنة ٥٦٠هـ/٥-١١٥٤م التالية، الأمر الذى يؤدى بالتالى أن تشابك الأحداث فيما بين الحرابة المتزامنة فى كل من العدوتين.[3]

الموقف فى الأندلس:
مدافعة حرابة ابن مردنيش

إن نفى الثائر الغمارى مزيزدغ (مفتاح) بعد قهره وإعلانه الخضوع، إلى قرطبة بالأندلس، يعنى أن حكومة الأندلس «المركزية» فى أشبيلية كانت المسئولة عن شئون بلاد الريف، عسكرياً على الأقل، من حيث كانت تمثل عمق المجاز فى العدوة المغربية. وهكذا لا تكاد تنتهى ثورة ٥٥٩هـ/٤-١١٦٣م فى غمارة حتى تترى أنباء الكفاح ضد ابن مردنيش الثائر فى شرق الأندلس، وضد من كان يحالفهم من الروم.

وبطبيعة الحال كان انشغال الموحدين بالثورة الغمارية فرصة انتهزها

---

(١) البيدق، ص١٢٣ .

(٢) ابن أبى زرع، ص٢٠٩ .

(٣) انظر إبن الأثير، ج١١ سنة ٥٥٩هـ/ أواخر ١١٦٣م، ص٣١٢-٣١٣، وقارن النويرى، نهاية الأرب، الدار البيضاء، ص٤٣١- حيث مقتل مفتاح بن عمر (مرزدغ) فى سنة ٥٦١هـ/ ٦-١١٦٥م على يدى الأمير يوسف نفسه، وبصحبة أخويه أبو حفص عمر (الوزير الشريك) وأبو سعيد عثمان (صاحب قرطبة) على رأس جيش من الموحدين وحلفائهم العرب الهلالية، وإرسال رأس الثائر إلى العاصمة مراكش.

الأعداء فى الأندلس، من ملك البرتغال وأعوانه فى الغرب[١]، وابـــن مردنيش الثائر المتغلب فى الشرق، لكى يدعموا مراكزهم على حساب الموحدين الذين كانوا حتى ذلك الحين، لم يجمعوا على خلافة أبى يعقوب يوسف لأبيه عبد المؤمن، إذ كان لا يزال يحمل لقب الأمير، وليس أمير المؤمنين، الأمر الذى لم يكن يسمح له بحرية الحركة فى مدافعة الثوار والمعارضين.

واستمر الحال على هذا المنوال حتى سنة ٥٦٠هـ/١١٦٤م التالية حيث بدأ الإنفراج بالنسبة ليوسف، وذلك بوفاة أخيه المعارض له فى بجاية، وهو السيد أبو محمد عبد الله[٢]، ومن ثم خضوع أخيه السيد أبى سعيد عثمان صاحب قرطبة بعد لأى. فعندما وفد عليه الحفاظ من مراكش «تمارض عند وصولهم واعتل، وأطال الالتواء واختل، وارتبط لهم ثم انحل، فرحلوا من عنده إلى الأمير بمراكش بمواعيد»[٣]. ولم تستقم حال أبى سعيد إلا عندما قرر أخوه المستبد بالوزارة فى مراكش، وهو أبو حفص عمر المسير إلى الأندلس، على رأس القوات الموحدية، فعندئذ عبّر السيد/ أبو سعيد عن الإعتذار، الأمر الذى أدى إلى استدعائه بالتأنيس

---

(١) حيث إستعانة ملك البرتغال وقتئذ بالمغامر الجليّقى جرانده Garldo Sem) الذى تصفه الرواية الإسلامية بالكلب، والذى كان يعيد سيرة(Pavor el Galago السيد الكامبيا دور فى الشرق، من حيث تسلله فى الليالى المطرة للغدر بالحارس الليلى (السامر) ومن ثم دخوله المدينة الحصن دون قتال، كما فعل بمدينة ترجالة فى نفس السنة ومن ثم(Evora) سنة ٥٦٠هـ/نوفمبر١١٦٤م ويابرة (Trujello) حصنى منتانجس (Mantanchez) وجلمانية (Jurumeina) فى سنة ٥٦١هـ/ ١١٦٦م- انظر إبن عذارى (هويثى) ص٧٨-٧٩، وانظر عنان، الموحدون، ج٢ ص٢٦-٢٧.

(٢) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٢٣٩، إبن عذارى، البيان المغرب، تطوان (هويثى- قسم٣)، ص٦٠.

(٣) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٢٣٩-٢٤٠، وقارن إبن عذارى، (تحقيق هويثى)، قسم٣، ص٦٠- حيث ذكر إثنين من الحفاظ الثلاثة فقط، وهما: أبو عبد الله بن أبى إبراهيم، أبو يحيى بن أبى حفص، دون ذكر أبى الربيع سليمان بن داود.

إلى لقاء قريب بمدينة جبل الفتح (جبل طارق).[١]

وهكذا كان على السيد الوزير «أبو حفص» أن يتحرك من حضرة مراكش فى أول ربيع الأول، الموافق بقية أيام من شهر ينَّير (يناير) العجمى (١٦ يناير ١١٦٥م) من عام ٥٦٠ هـ، فى جملة من أعيان رجال الموحدين... وأبناء الجماعة- كأبى يحيى بن الشيخ المرحوم أبى حفص، ويوسف بن ييجيت، وإسحق بن جامع. هذا، وكان فى معيته عدد من أشياخ ثوار الأندلس المختصين به، مثل: أبى محمد سيد رأى بن وزير، وأخيه أبى الحسن على، وعلى الفخار (صاحب لبلة)[٢]

وينص ابن صاحب الصلاة على أنه كان فى صحبة السيد أبى حفص عدد من أشياخ المرابطين، من مسوفة ولمتونة، «اجتمع فيهم نخبة من الناس كبيرة القدر، متوسطة العدد والذكر عددهم نحو الـ ٤٠٠ (أربعمائة) فارس.[٣]

وإلى جانب هؤلاء كان العرب الهلالية الذين دخلوا المغرب الأقصى على عهد عبد المؤمن، قد بدأوا الدخول إلى الأندلس من أجل الرباط والجهاد. فقد «كان فى صحبة السيد الأعلى: أبى حفص عدد من كبار القادة الشيوخ منهم: أبو سعيد يخلف بن الحسين، وأبو عبد الله بن يوسف بن وانودين، وبصحبتهم «عسكر مختار من أعيان العرب وأنجادهم، مثل: على بن محرز بن زياد، وأخويه المبادرين للغزو بالتكاثر والازدياد، ومن قبلية وشيعه: رجال وفرسان أبطال، زهاء ٤٠٠٠ (أربعة آلاف) فارس».

---

(١) إبن صاحب الصلاة، ص٢٤٠ .

(٢) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٢٥٠- حيث الإشارة إلى زيد بن محبوب، ومحمد بن مروان بن سعيد الغرناطى، وقارن، إبن عذارى، قسم٣ نشر هويشى، ص٦٠- حيث يضيف إلى أعيان الموحدين: يوسف بن وانودين، وينقص من أشياخ ثوار الأندلس أخا إبن وزير، كما يضيف من أشياخ العرب على بن محرز بن زياد إلى ذكر أشياخ لمتونة ومسوفة.

(٣) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٢٥١ .

وكانت الخطة المرسومة: أن يتقدم أخوا على بن محرز (سيد قبيلة رياح الهلالية) أمام السيد أبى حفص إلى أشبيلية وقرطبة، بغرض «حماية صيفتها في مواسطها وثغورها، ودفع الأعداء الروم والأشقياء المنافقين عن معمورهما».[١]

وكان هدف الحملة الأول هو التجمع فى مدينة سَلا (سلى: (رباط الفتح) التى كانت قد بنيت أصلاً لحرب برغواطة، فأصبحت بالتالى قاعدة لتجمّع الحملات الموحدية الموجهة إلى الأندلس. وهكذا وصل السيد الأعلى: أبو حفص إلى مدينة سَلا (الرباط) بجميع العسكر، حيث أقام مدة شهر، ينظر فى ترتيب شئون الحملة. وفى أثناء هذه الإقامة خاطب أخاه السيد «أبو سعيد» بقرطبة يعلمه بالمشى إلى لقائه، وأن يكون المجتمع بجبل الفتح (جبل طارق).

وهنا بدأ الإعداد لجواز العساكر فكان من «الشيخ أبى سعيد وأبى عبد الله محمد بن يوسف التقدم بالعرب إلى البحر للإجازة حسبما كان الاتفاق معهما».

ومن ثم كان على السيد الأعلى «أبو حفص» أن يسير بخاصته ومنهم كاتبه ابن عياش، من سلى (سلا) إلى طنجة، حيث كان عليه كشف المجاز على طول بحر الزقاق. وهنا يظهر ابن صاحب الصلاة، صاحب المن بالإمامة، بنفسه ليصف لنا نشاط أبى حفص، وكان الكاتب المؤرخ قد حضر مع طلبة الحضر- خصيصاً- للتبرك بالسيد «أبو حفص». فقد شاهد ركوبه (أبو حفص) فى غراب طيّار عَبَر بحر الزقاق من طنجة إلى سبتة (نقطة العبور). بعد أن «أمر بمشى الناس على خيلهم على البر إلى قصر مصمودة (القصر الكبير) ثم إلى سبتة، فنزلوا بها تحت أمره بخير منزل». وهناك «انسابت عليهم الأرزاق والضيافات والمواساة بكل برّ مستعجل».[٢]

---

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٢٥١ .

(٢) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٢٥٢- ٢٥٣، وقارن إبن عذارى، القسم٣ (هويشى)، ص٤٨.

إجتماع قمة جبل الفتح

وفى اليوم التالى وصلت الأخبار من الجزيرة الخضراء، عن طريق البريد السريع بالغراب الطيار، تعلم من بسبتة بحلول السيد أبى سعيد خاصته وأشياخه بجبل الفتح (جبل طارق). وفى نفس اليوم عبر السيد الأعلى (أبو حفص) البحر، ومعه جملة من الناس فى القطائع المعدّة للعبور، وذلك فى «هيئة عظيمة من نشر البنود وقرع الطبول والسرور بالورود... وكان يوماً مشهوداً كله سرور». وبمثل هذا الإحتفال خرج السيد أبو سعيد فى قطائعه يستقبل أخاه الوزير. «واجتمعا خير اجتماع، وارتفع الارجاف، وعمّ الخير والحبور بجميع الجهات».(١)

وهكذا تمت قمة المصالحة فى جبل الفتح بين السادة (الأمراء) بحضور كبار رجال الدولة من الطلبة والحفاظ، ومشايخ القبائل والأعيان، وكان الهدف من الاجتماع بطبيعة الحال هو تجديد البيعة للأمير يوسف، وكان من الطبيعى أن يحضر الشعراء بقصائدهم للتهنئة بالمناسبة السعيدة. وكانت قصيدة الإفتتاح هى التى ألقاها أبو الوليد إسماعيل بن عمر الشلبى، والتى بلغ عدد أبياتها ١٩ (تسع عشرة)، ومطلعها:

عهد أنار به الهدى والدين ... واستظهر التأييد والتمكين
بشرى الخلافة إذ تقلد عهدها ... البر النقى الطاهر الميمون
نجل الإمام ونشأة الخلق الرضى ... تبدو عليه هديو بين
«الناصر «المنصور» وأوضح نهجه ... فى الصالحات فنَجْمُهُ مضمون(٢)

وإلى جانب تهنئة الأمير يوسف بمراكش بتجديد البيعة، كان موضوع الجهاد فى الأندلس فى الماضى، والتحريض عليه فى الحاضر والمستقبل من الموضوعات التى ركّز عليها الشعراء، فى حضرة السيد الأعلى (وزير

(١) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٢٥٣، وقارن إبن عذارى (هويشى)، ص٦٠-٦١.

(٢) المن بالإمامة، ص٢٤٠ .

الدولة الأول: أبو حفص عمر)، والذى كان يجلس للناس فى «القصر المشيد البنيان، الرفيع الشأن»، فى ذلك الحفل الذى استمر بجبل الفتح مدة ١٥ (خمسة عشر) يوماً، فى مسرات متصلة، ما بين «إطعام الطعام، وإنشاد الشعراء، وكرم السيد الأعلى الذى غمر الجميع بالأعطيات والبركات، والكسا على أتم الخيرات».(١)

فلقد عالج أبو بكر الشلبى فى شعره موضوع كفاح بلده شلب ضد الأعداء، فمما أنشده فى ذلك:

إن الأعادى لا تزال كعهدها تورى بشلب مغارها وكفاها
كلفت بها أعداؤها حتى لقد أخذوا عليها نجدها وبطاحها
ما ضرّنا أن غلّقوا ما حولها إن كان سيفك بعدها مفتاحها(٢)

أما أبو عمر بن حربون الذى كان فى «كتائب ابن تقسى: زعيم المريدين، ثم فى جملة كتّاب السيد أبى حفص وطلبة الحضر، إلى أن مُنى بالحرمان»(٣)، فقد عالج فى شعره إلى جانب التهنئة بالبيعة السعيدة، ذكر الواقعة التى كانت على ابن هَمُشك وابن مَرْدَنيش بجبل السبيكة بأغرناطة سنة ٥٥٧هـ، فمما يقوله فى البيعة:

لكم بعد حمد الله تهدى المحامِدُ وفى وصف علياكم تُصاغ القلائدُ
إليكم سرى من شلب ركبٌ كأنهم تطارد أدهم للخطوب طرائد
سروا فوق أفاق الشدائد نحوكم وفى طلب العلياء قبلة وافد
فإن لم أكن من شاهدى بيعة الرضا فإنى بإخلاص الضمير لشاهدُ
إليه انتهى النور المبين الذى به تبصّر ظليل وأذعن مارد
لقد ورث شنّيل منها مقانبُ لما انحدرت من رأس رَضْوى الجلامدُ

(١) المن بالإمامة، ص٢٥٣، وقارن إبن عذارى (هويثى)، ص٦١ .

(٢) المن بالإمامة، ص٢٤٤-٢٤٥ .

(٣) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٤٥ وهـ٢ للمحقق د/ عبد الهادى التازى.

تجلل منهــا المردنيش خــزيةٌ تناغى بهــا بين البيــوت الولائدُ
وما يصغ السيف المصمم فى الوغى إذا لم تساعده على الضرب ساعدُ(١)

وهو فى إبن هَمُشك وإبن مردنيش يقول:

قد حَصْحَص الحق لا ريبُ ولا فَنَدُ هذى الفتوح التى كانوا بها وعدوا
خـذوا بحظكم يا أهل أندلس منها فما لنا وبها من بعدها رشد
اليوم صُمَّ صدى الغاوى بأرضكم والكلب ينبح ما لم يزأر الأسد
والآن قل لذوى الإلحاد شأنكمُ وبشر فما لكم دون هذا الأمر ملتحد
وبشر العجم إن العرب قد دلفت على العراب وإن الملتقى صَدَدُ
فالدين جزلان قد عزّت جوانبه والكفر خزيان ما ينفك يُضْطَهدُ(٢)

وهكذا كان يفهم من هذا الإحتفال الذى أقامه السيد الأعلى أبو حفص- نيابة عن الأمير يوسف- أن الأمر لم يكن مناسبة للبيعة والمصالحة بين السادة الإخوة، وخاصة من قبل السيد أبى سعيد صاحب قرطبة فقط، بل أن الأمر يتعلق بإعلان من قبل الدولة الموحدية على عهد يوسف بالقيام بواجب الدفاع عن الأراضى الإسلامية التى حاول الأعداء والثوار إنتهاز الفرصة لانتهاك حرمتها أو التغلب عليها.

نتائج مؤتمر جبل الفتح:

إنتهى مؤتمر جبل الفتح الذى رأسه كل من السيد الأعلى (وزير الدولة) والسيد بو سعيد عثمان (الوالى- الأمير بقرطبة) بالتفاهم على تجديد البيعة للأمير يوسف، وعلى أن يصحب أبو سعيد أخاه الوزير فى رحلة العودة إلى العاصمة مراكش، من أجل تجديد البيعة.

وينص ابن صاحب الصلاة على أن آخر ما تم الاستماع إليه قبل الرحيل عن مدينة جبل الفتح، هى قصيدة مديح الشاعر (الكاتب) أبى

---

(١) المن بالإمامة، ص٢٤٥-٢٥٠ .

(٢) المن بالإمامة، ص ٢٥٣-٢٥٦، حيث عدد أبيات القصيدة ٣٩ بيتاً.

عمر بن حربون للسيد أبى حفص، وفيها ينشد قائلاً:

تجشمت هول البحر فى طلب البحر ولم أشك صرف الدهر إلا إلى الدهر
لعمرك ما ألقى أبا حفص الرضى وأشكو الليالى ما يطاول من عمرى
همام إذا همّ نال مراده ولو أنه أمسى على قمة النّسْر
هو إبن أمير المؤمنين وشبهُه وحسبك من فرع وحسبك من بَحْر

وبعد استحسان هذه الأبيات «نفذ أمره (أبو حفص) الكريم بالانصراف، وعبور البحر إلى العدوة (المغربية) والانعطاف»، بعد أن سرّح أشياخ بلاد الأندلس الوافدين، وكذلك العمال والأجناد القاصدين الجهاد والرباط فى الأندلس، ممن سبقت الإشارة إليهم، من: فرسان المرابطين من مسوفة ولمتونة أو العرب الرياحيين من قبائل ابن محرز، الذى وقع علي عاتقهم الدفاع على حمى بلاد أشبيلية وقرطبة، وما كانت تجود به من خِيرات فصل الصيف (مما سبق).

العبور إلى مراكش:

وعبر السيدان ومعهما أكثر الحملة المغربية الوافدة. وتطلب العبور نقلتين بالمراكب والقطائع، إستغرقتا ٣ (ثلاثة) أيام قضاها السيد أبو حفص فى سبتة، حسبما يقرر ابن صاحب الصلاة الذى صحب الحملة إلى مراكش- حيث كان يحاول العودة إلى الكتابة فى الديوان الأميرى، ولكن اختيار السيد أبى حفص وقع على كل من: أبى عمر بن حربون، وأبى الحسن الهوزنى (كاتب محمد بن المعلم: رئيس الكتاب).

وكان الطريق من سبتة مباشرة إلى فاس حيث كان الأمير يوسف بنفسه فى استقبال شقيقه الوزير أبى حفص، وبصحبته أخيه السيد أبى سعيد، خارج المدينة، فى احتفال كبير، من: قرع الطبول، خفق البنود، واجتماع النظارة.

ودخل المحتفى بهم إلى العاصمة مراكش فى أول رجب سنة ٥٦٠ هـ/١٤ مايه ١١٦٥م، وأقيم بالمناسبة إحتفال كبير، أطعم الموجودون

فيه الطعام، وأنشد الشعراء بالتهاني والمدائح، وخطب الخطباء.

ومدح الأستاذ أبو الوليد السوسي الشلبي الأمير يوسف بقصيدة- إقتدي فيها بابن هانئ الأندلسي، كما نرى- فقال:

وضحت بأنوار الهدى قسماته ... وبانت الهَدْي القويم سماته

ملك الملوك مؤيد لكنه ... غلبت عليه من التقى ملكاته

دانت له الدنيا وكافة أهلها ... فعفا وعفّ وسامحت عطافته(١)

أما عن ابن حربون الذي دخل كاتباً في خدمة أبي« حفص، فقد قال مهنئاً بالإياب من جبل الفتح، ويمدح الأمير يوسف وأخاه الوزير أبا حفص:

بأيمن طائر كان الإياب ... وأنجح مطلب بلغ الطلاب

دلفتم بالأسود إلى بلاد ... ثوت حِجَجا تعيث بها الذئاب

جمعتم من بني قيس بيوتاً ... تسل بها المحاني والشباب

ولي العهد أنجحت المساعي ... بيمنكم وأصحبت الصعاب

نصرتم من أبي حفص أخيكم ... بماضي الجد تعرفه الرّقاب

وقبلكم إصطفى موسى أخاه ... فشأنهما وشأنكما عجاب

أسيدنا أبا حفص رضاكم ... به يرجى لدى الله الثواب(٢)

وفي ذلك ينص ابن صاحب الصلاة على أن أبا عمر بن حربون قال يمدح السيد الأعلى أبا حفص، بعد أن استكتبه، ويهنيه (مبالغاً) بزورة كعبة (قصر) أخيه (يوسف) ويحثه:

حثوا المطى فقد قضت أوطارها ... وأجدوا إلى باب الأمير قطارها

حتى تزورا كعبة الفضل التي ... قد أحسنت بركاتها في زوّارها

---

(١) المن بالإمامة، ص٢٦٠-٢٦١، وعدد الأبيات٣٦- وقارن إبن عذارى (قسم٣- هويثي)، ص٦١-٦٢ حيث نهاية البيت الثالث «وما محت» بدلاً من «سامحت عطفاته.

(٢) المن بالإمامة، ص٢٦٢-٢٦٤، وعدد الأبيات٣٦ .

فإذا إستلمتم بالسلامة ركنها فأرموا بأخفاف المطى جمارها
بلغت رباط الفتح عوجا أظلما قد كان يستوى السرى أمارها؟
واستقدمت للرعب كل كتيبة شنت بأرض المشركين مُغارها
فكأن أرض الملحدين لباسكم ثكلى تمزق صَدْرها وجرارها
فتهنئوها دولة «مهدية» رفعت لأبصار العباد منارها.(١)

وهكذا سجل الشعراء الكتاب- إلى جانب ابن صاحب الصلاة- أحداث تلك الفترة من تاريخ الموحدين بالشعر، وأظهروا بوضوح خفايا ذلك الخلاف العائلى الذى أحاط بالأسرة المؤمنية الناشئة، وألقوا الكثير من الأضواء على خبايا ذلك الخلاف بين الإخوة على بداية عهد يوسف، وذلك فى الأندلس بخاصة. فكأن الأندلس أصبحت مركز الثقل فعلاً فى الدولة الموحدية بدءاً من ولاية يوسف، وبذلك تصبح الدولة الموحدية، من ذلك الحين: أندلسية- مغربية أو أسبانية- بربرية (Hispano- Mauresque)، كما يقال فى المصطلح الفرنسى. وعن هذا الطريق أصبح الكاتب الموحدى إبن صاحب الصلاة أهم شاهد عيان بالنسبة لتاريخ الفترة، وأصبحت روايته فى المن بالإمامة، وهى الموثقة بطبيعة الحال بالرسائل الرسمية، أهم وثيقة تاريخية لتلك الفترة (وفى هذا المقام نشير إلى شعر الكاتب أبى عبد الله الشاطبى، حيث يقول:

لتهن أبا يعقوب غبطة أوبة بصنويه وافته لحين إنتظاره
أميران سلَّ الملك سيفيه منهما على ثقة يرجوهما لإنتصاره
بحيث أبو حفص وعثمان بعده تلقاهما البشر حين بداره
عميداً أسناه بل شهابا سيادة وملك أبى يعقوب قطب مداره
خلّف بيعة الرضوان بيعته التى بها غُزى الأمجاد فى عقر داره
هو الملك الميمون طائره إنتمى إلى الشرف الأعلى كريم بجاره

(١) المن بالإمامة، ص٢٦٤-٢٦٥، وعدد الأبيات ٢٦ .

له كـعـبـة منكم يطوف بهـا المنى   وحيث مُنى الإنشاد مرمى جهاره[١]

والحقيقة أنه إذا كان الوئام قد استقر بين الإخوة فى جبل الفتح، فإن ذلك كان يعنى إمكانية عودة حكومة مراكش الموحدية إلى الاهتمام بشئون الأندلس، التى وقع عبء إقرار الأمور فيها، بل وحمايتها مما كان يتهددها من أخطار الإسترداد. وهذا ما وقع فى التو واللحظة على طلائع الحلفاء (الأعداء) من المرابطين، من: لمتونة ومسوفة، والعرب الهلالية، من: الرياحيين من قبائل بنى محرز- والعاملين جميعاً تحت رايات الموحدين

موقعة لُكّ (Luque):

والمهم أن المتاعب فى الأندلس كانت تأتى، وقتئذ، من قبل مملكة البرتغال الناشئة فى الغرب، ومن قبل ابن مردنيش وحلفائه من «الروم» فى الشرق، وهكذا كان أول ذكر لعمليات عسكرية بعد رحيل السيد أبى حفص إلى مراكش، كانت تجرى بين الجند العربى (من الهلالية) الذين استقروا فى منطقة أشبيلية. فلقد انتخب منهم القائدان: أبو سعيد بن الحسن، وأبو عبد الله بن يوسف نحواً من ٥٠٠ (خمسمائة) فارس، وتقدما بهم إلى «مدينة بطليوس لحماية صيفيتها» (بواكر زراعاتها الصيفية). وهناك التقوا «بشرذمة كبيرة من النصارى» «أهل شنترين»، وتمكنوا من هزيمتهم، بل واستئصالهم قتلا وسبيا، فكان ذلك بشير خير بالنسبة للمسلمين.[٢]

ثم إن أبا سعيد وأبا عبد الله خرجا من أشبيلية بالعسكر الميمون إلى مدينة غرناطة لدفع المحاربين الأشقياء بعداً عن جهاتها، وحماية الحاصلات الصيفية فى منطقتها. فعند خروجهم من قرطبة إلى جهاتها

(١) المن بالإمامة، ص٢٦٦-٢٦٨، عدد الأبيات ٣٢ .

(٢) إبن عذارى، قسم٣ (هويثى)، ص٦٣، وقارن إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٢٦٩-٢٧٠.

(أشبيلية) التقوا مصادفة بعسكر لابن مردنيش، مجتمع بحصن لُكّ (Luque)، فكانت بينهم مدافعات وكرات عظيمة، أظهر فيها أبو عبد الله بن يوسف وغيره من أعيان العرب والعسكر من الصبر والدفاع والقراع، ما لم يعرف له نظير إلا فى زمان الأبطال الأبرار، ومن ذلك ما وقع بينهم من الصراع على شرب الماء فى وادى لُك، والذى كان الشفوف فيه للموحدين على أهل الحرابة المنافقين.(١)

ومن الواضح أن معركة لُكْ لم تكن سهلة بالنسبة لجماعات فرسان العرب وحدهم، دون قطاعات الجيش الرئيسية الأخرى من الرجالة والرماة، اللازمين لاحتلال الأرض والاستحواذ عليها، على عكس جماعات الخيالة التى تشبه قوات الصاعقة. وهذا ما يفسر إستغاثة كل من ابن سعيد يخلف بن الحسين، وأبى عبد الله بن يوسف، بالسيد الأعلى الوزير أبى حفص، حيث وصله كتابهما بهذا الشأن، وفى أول رمضان سنة ٥٦٠هـ/ يونية ١١٦٥م، والذى عرفاه فيه «بهيئة حربهم ومدافعتهم فى طعنهم وضربهم».

مــا بين حــرابة إبن مــردنيش فى الأندلس

وثورة قبائل الريف من صنهاجة وغمارة (مصمودة)

وكان للموقف الصعب فى مدافعة ثوار الأندلس، ردّ فعله السريع فى نفس السيد أبى حفص. وفى ذلك تقول رواية ابن صاحب الصلاة أنه «غار غيرة عظيمة، وعسكر فى يومه، وأمر بالنفير إليه والإسراع بالموحدين من الصابرين، ونخبة الفرسان الأبطال من العرب الرياحيين، والأثبجيين، والزغبيين، ورجلهم».(٢)

---

(١) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٢٦٩-٢٧٠، إبن عذارى، الموحدون، قسم٣ (هويثى)، ص٦٣-حيث الإشارة عند حرب السقيا فى لُك إلى أنها إنتهت بينهم مكافأة (بالتكافؤ): لا غالب ولا مغلوب.

(١) المن بالإمامة، ص٢٧٠، إبن عذارى (هويثى)، ص٦٣.

والظاهر أن السيد أبا حفص كان على دراية بحرج الموقف العسكرى ليس فى الأندلس فحسب، بل وفى العدوة المغربية أيضاً. فرواية ابن الأثير جعلت من ثورة مفتاح بن عمر (أو مَرَزدغ) مستمرة فى بلاد غمارة إلى سنة ٥٦١ هـ/١١٦٦م، فكأنها استمرت إلى ثورة سَبْع بن منغفاد. هذا، بينما يجعل عبد الواحد المراكشى فى معجبه، سبع بن منغفاد: الثائر بعد مَرزْدَغ، أخاً لهذا الأخير، فكأن ثورته عاصرت سنة ٥٦٠هـ/١١٦٥م التالية، وكأنها استمرت إلى سنة ٥٦١هـ/١١٦٦م التى بعدها، الأمر الذى يبرر سرعة خروج السيد أبى حفص على رأس القوات الموحدية، وبصحبته أخيه السيد/ أبى سعيد عثمان فى نفس شهر رمضان (إن لم يكن فى العشر الأول منه، كما تقول الرواية).

مسار الحملة وفتح أندوجر (Andujar):

والمهم هنا هو أن مسيرة الحملة كانت من السرعة بحيث لا توجد إشارة إلى محطات مسارها. فابن صاحب الصلاة يكتفى بالقول أن السيد أبا حفص «أزعج السير حتى أجاز البحر- أى دون توقف فى بلاد غمارة أو فى غيرها، الأمر الذى يعنى أنها لم تكن ثائرة فى ذلك الوقت- ووصل إلى مدينة أشبيلية... واجتمع بالموحدين المذكورين بها». وبعد التشاور فى الأمر، خروجوا فى أول ذى القعدة سنة ٥٦٠هـ/٢نوفمبر ١١٦٥م، من أشبيلية قاصدين بلاد ابن مردنيش.

وكانت الخطة الحربية ترمى إلى تحرير منطقة قرطبة من إعتداءات الأعداء، وتمثل ذلك فى مهاجمة مدينة أندوجر فى مقطاعة جيَّان والتى كانت بمثابة شوكة فى حلق قرطبة التى كانت مشتركة معها فى «تربها، وبسائطها ومحارثها»، ومن حيث كان المرور على قنطرة عالية بسبب إرتفاع ضفتى الوادى الكبير هناك. ومن المهم أنه لا ذكر لمقاومة من قبل حامية أندوجر أو أهلها، الأمر الذى ترتب عليه أنهم «فتحوها فى يوم نزولهم، عنوة» فكان على أهل الحصون المجاورة أن يدينوا بالطاعة

للموحدين، الذين خرجوا من المنطقة «بالكثير من الفئ والسبى»، الذى كان لهم منه النصيب الوافر، تشجيعاً لهم على مواصلة الجهاد وحسن الاستعداد.(١)

حرب إبن مردنيش: مقدمات موقعة الجلاّب:

وهكذا كان فتح أندوجر (شمال شرق قرطبة) الذى حقق الأمن لمنطقة قرطبة تمهيداً جيداً لمواجهة إبن مردنيش فى عقر داره من شرق الأندلس. واستعد الثائر الأندلسى العتيد لمواجهة الإعصار الموحدى الوافد من مراكش، فحشد حسب رواية ابن صاحب الصلاة، جميع أهل شرق الأندلس، وكل جنده النظامى إلى جانب شيعته من الأحرار والموالى، كما إستدعى «أحلافه النصارى من طليطلة وأنظارها، كما استعان بأهل الحرابة من العصاة والجناة». وعندما احتشد جمعه الكبير هذا، والذى يوصف بالذميم، وبأنه من أنصار الشيطان، خرج بهم من مرسية، ونفذ بهم لاعتراض المسلمين (الموحدين) الذين كانوا قد وصلوا إلى حيز مدينة لورقة (Lurcu)، جنوب غرب مرسية، وأقبل بجمعه النهم فى منطقة وعرة، وسدّ عليهم الطريق. وهنا اضطر الموحدون إلى العدول عن ذلك

---

(١) المن بالإمامة، ص٢٧١، وقارن إبن عذارى (هويثى)، ص٦٣- حيث النص منقبيا أيضاً على فضل السيد أبى حفص فى هذا النصر الذى لم يسبقه لمثله منذ قديم العمر، «فإنه نهض بنية لله صافية، وعساكر النص ضافية، وأجناد من الله معه متلاقية...» فكأنه: منصور عامرى جديد! وعن فتح أندوجر انظر رسالة السيدين عمرو عثمان فى مَنّ إبن صاحب الصلاة والمواجهة إلى الأمير يوسف عن الحملة- ص٢٧٦-٢٧٧ حيث القول أن الرسالة وصلت من الأندلس إلى مراكش فى ١٦ ستة عشر يوماً، فكأنها تعبر عن نظام البريد السريع الذى عرفته الدولة الموحدية، الأمر الذى يذكر ببريد الأمبراطورية الرومانية السريع بفضل طرقها المبلطة وعرباتها السريعة الحركة. أما عن الرسالة فقد دخل بها الفرسان الواصلون بالبشرى، وبأيديهم علامات بن مردنيش ومن ثم أمر الأمير يعقوب إدخال الطلبة والناس، وقرأ الكتاب الفقيه أبو محمد المالقى ثم قرئ بعد ذلك فى الجامع على كافة الناس. ومن المهم فى تلك الرسالة ما تشير إليه من المقارنة بين فتح «أندوجر وما لازمه من توحيد الحصون القريبة، بيوم «ذى قار» إذ إنتصف فيه الموحدون والعرب من العجم.

المضيق، والنزول بفحص (بسهل) «الفندون» فى أوسع طريق، وأتوا لورقة من غربها.[١]

وأمام حصانة موقع إبن مردنيش رأى أبو حفص أن يقلع من منزله الصعب هذا، نحو مرسية، وبالتالي أقلع إبن مردنيش، وسار الجيشان الواحد بحذاء الآخر، والموحدون أيمن الجبل وابن مردنيش على يسار الطريق فى الجبل الآخر طول يومهم هذا. وفى اليوم التالى وهو الجمعة ٧ من ذى الحجة من العام ٥٦٠هـ/ ١٥ أكتوبر١١٦٥م، وصلوا قرب زوال الشمس إلى الموضع المعروف لعامة القواد، بفحص الجلاب، على مسافة ١٠ (عشرة) أميال من مرسية.[٢]

فتح الفتوح: انتصار فحص الجلاب بمعركة صلاة الجمعة

ووقف العسكران كل أمام الآخر فى فحص الجلاب فعسكر ابن مردنيش فى موقف استعداد للهجوم، والموحدون فى خطة قتالهم المعهودة:

(١) المن بالإمامة، الرسالة الرسمية، ص٢٧٩، وقارن المن بالأمامة (الرسالة الرسمية)، ص٢٧٧-٢٧٩ حيث التوغل فى أرجاء البلاد الشرقية، التجاء الأشقياء بها كالثعالب، وعدم قتال أهل تلك الحصون إحتكاراً لهم، بينما سعد الموحدون بأطايبها من سائر الأطعمة والفاكهة. وفى بسطة جنوب غرب لورقة توقفت الحملة الموحدية لبضعة أيام إنتظاراً للمعونة الوافدة إليها من غرناطة. ومن: العسكر والرماة والحشد. وفى تلك الأثناء، لم يركن أفراد الحملة إلى الهدوء وفى تلك الجهات، بل إذ سار الموحدون والعرب بشن الغارة يميناً ويساراً، وهم يستاقون المغانم من بسائط حصون: غليرة وقرتابقة وبسطة وجبال شقورة، من: الأعداد الكبيرة من الدواب، وآلاف الأغنام.

وعندما وصل العسكر المنتظر من غرناطة وسعت الحملة دائرة نشاطها، حيث كان حصار حصن قلبّة الذى أنزل أهله على الطاعة والتوحيد، كما وطأ الموحدون جهة بلش العامرة بالحصون حيث استاء من أصحابها. وفى تلك الأثناء إنقلب أهل مرسية على ابن مردنيش، فهرع إلى الخروج منها إلى «لورقة زائغاً عليها، بعد أن إستوثق من خروج أهلها عليه وشيوخها كما تقول الرواية التى توضح أيضاً أن الموقع الوعر كان يمكن إبن مردنيش من قطع طريق مرسية أمام الموحدين.

(٢) المن بالإمامة، ص٢٧٢-٢٧٣، الرسالة الموحدية، ص٢٨١ حيث توقيت المعركة: صلاة الجمعة.

قد «عبأوا عساكرهم ورفعوا راياتهم، وتصففوا صفوفاً، وتميّزوا أجناساً وصنوفاً»، كل قبيل فى موضعه، من: أهل هرغة، وأهل تينمل، وهنتاتة، وجدميوه (كدميوى، قدميوه)، وجنفيسة، وجميع القبائل على مراتبهم. أما عن قبائل العرب الهلاليين، فقد اجتمع منهم الرياحيون والجشميون والزغبيون، ومعهم «عبيد الأمر العالى» المرتسمون (أى النظاميون المسجلون فى الديوان: ديوان الجند).

واستعد المعسكر الموحدى بجناحيه المغربى والعربى للقاء، وتعاهدوا على الثبات والصبر فى دفاع الأعداء. وبدأ ابن مردنيش الهجوم بعسكره فدفع فيهم بأصحابه النصارى أولاً: ٣ (ثلاث) دفعات: دفعة أولى فى العرب، ودفعتين إثنتين بعدها فى الموحدين، وثبت الموحدون، واشتد القتال، وثار الغبار حتى أظلم النهار، وهنا: تماشت الركب بالركب، وعظم الطعن بالرماح المداعس، والضرب بسيوف القصب المشارف: المحرّبة عند العرب.[1]

وهكذا انتهى القتال بانتصار الموحدين، وبفرار الأعداء الذين قتلوا قتلاً ذريعاً، وفرّ ابن مردنيش مهزوماً إلى جبل قريب من أرض المعركة، حيث: «ضرب فيه قبّة خباء على معنى خدعة الحرب، أقام فيه مع فلّه المهزوم، ساعة من بقية اليوم إلى أن ستره الليل، وركب فى حينه، وفرّ إلى مرسية، وأنحجز فيها مهزوماً.[2]

---

(١) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٢٧٤، وانظر الرسالة الرسمية، ص٢٨٠-٢٨١ حيث النص على أن الموحدين أخذوا الثنايا التى تحول بينهم (فى الجبل) وبين مدينة مرسية، وحيث تردد بسفح الجبل ٨٠٠٠ فارس أرغونى ضربوا أخبية فى الجبل... لإيواء الفلّ، وحيث صمود الغرب وثبات الموحدين وهزيمة الكفرة ثم النزول بفناء مرسية واحتلال البلد، والتعييد بها، وانظر روض القرطاس، ص٢١٠ (عن وقعة الجلاب.

(١) إبن صاحب الصلاة المن بالإمامة، ص٢٧٢- ٢٧٤، وقارن ابن عذارى، الموحدون (هريثى)، ص٦٣- ٦٤، وانظر الرسالة الرسمية التى يعرضها إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ٢٧٥- حيث تفاؤل إبن صاحب الصلاة بالإنتصار عندما رأى فوق سطح القصر الأمير قطا بفترس فرخ حمام، ص٢٧٧- حيث التذكير بالرسالة =

وبعد أن نفّل الله من خيلهم ومطاياهم وأدراعهم وسائر أسلحتهم... وسلب قتلاهم من ملابسهم بكل واد ومسيل، بادر الموحدون فى غدهم على مهلهم إلى فناء مرسية فضربوا بساحتها المضارب والأبنية بإزاء حدائقها المعروشة... ونقرت الطبول تصكّ أسماعهم... واحتل البلد... وانبسط أتباع الموحدين على تلك الحدائق محصلين لأنواع الفواكه..

وأقام الموحدون للتعييد: عيد الأضحى بمحلتهم بظاهر مرسية وكتبوا إلى الأمير بمراكش بهذه البشارة العظمى وذلك فى العشر الوسط من ذى الحجة ٥٦٠هـ/ العشر الوسط من أكتوبر ١١٦٥م.(١)

ومن المهم الإشارة إلى أن الرسالة تشير فى نهايتها إلى أن هذا لنصر «هو فتح الأندلس» وإذلال لعدوها المتمرد، مُسَلّط الروم على أهل الإسلام، وأنه بُهت محصوراً، ودهش مذموماً مدحوراً، ولم ينيس السيد الأعلى أن يبعث مع الرسالة مدرجاً فيها قصيدة شعر تعبر عن واقع الحال، ومنها:

لقد بلغت جياد كم مداها ... ونالت ما أرادت من عداها
تهيم بحب طاعتكم فتطوى ... بساط القفر حتى قد طواها
ولقد شنّت بأرض الشرق حتى ... أباحت بعد مَنعتها حماها
فإن ينج اللعين لغير مَنجَى ... لقد فغرت شعوب عليه فاها
أبا يعقوب إن بنا إليكم ... كما الحائمات يرى صداها(٢)

= الخاصة بفتح «أندوجر»، وحيث تسمية انتصار مرسية بـ «فتح الفتوح» إقتباساً من أبى تمام الذى يقول فى فتح عمورية:

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به ... نظم من الشعر أو نثر من الخطب

هذا إلى جانب وصف ذلك النصر بيوم «ذى قار»، (ص١٩ وهـ ٢٠) مما سبقت الإشارة إليه.

(١) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٢٨٢ .

(٢) عدد الأبيات١٨، انظر إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٢٨٢-٢٨٥، وقارن إبن عذارى، قسم٣ (هويثى)، ص٦٥ حيث النص على أن الكتاب من إنشاء إبن عياش، «وقد ذكر نصه إبن صاحب الصلاة فى تاريخه، وأغنى ذلك عن ذكره هنا»، وإن ذكر البيتين ١و٣ مما ذكرناه هنا.

وهكذا، ومع نهاية ٥٦٠ هـ واستهلال سنة ٥٦١ هـ(نوفمبر ١١٦٥م) كان السيدان أبو حفص وأبو سعيد يغادران البلاد المفتتحة بشرق الأندلس، وقد تركا بها من الموحدين والأمناء من يثقفها ويضبطها لحساب حكومة مراكش الموحدية. ولما وصلا إلى قرطبة أقام السيد أبو سعيد فيها على حالته الأولى بالأمر الأميرى، بينما انفصل أبو حفص إلى أشبيلية، منصرفاً إلى الحضرة (مراكش)، «وهو يجرُّ الدنيا خلفه جرّاً» حسب تعبير ابن صاحب الصلاة، وأجاز البحر مستعجلا من سلا إلى مكول (مكون حاليا) ومن هناك سار بريده السريع يسبقه متشوقاً لأخيه الأمير (يعقوب)، وذلك بشعر من إنشاء ابن حربون، يقول فيه:

علِّلوا العيش باقتراب الديار وانظروا هل بدا لها من منار

هذه كعبة العلى فأهلّوا وأقرنوا بين حجة واعتمار [1]

إستقبال السيد الأعلى أبى حفص فى مراكش

إستقبال كبار الفاتحين

وكان وصول السيد أبى حفص- الذى كان يجرّ الدنيا خلفه جرّاً- يوم عيد رسمى وشعبى فى الحضرة المراكشية. فلقد خرج الأمير أبو يعقوب يوسف بنفسه للقاء أخيه «الوزير الخطير» بعد: «أن كتّب الكتائب، وكسى العبيد بالثياب المصبغة بالألوان، وصفف الفرسان الكمّل المدرعين من الموحدين وغيرهم، ومن الرجال بالدرق والرماح صفوفاً، كما جعل الرايات والعلامات خلف ركابه، والطبالين مع خاصة أصحابه، وهو ووزيره (الكاتب) أبو العلاء إدريس بن جامع راجلا لصق ركابه... وعلى عاتق

(١) عدد الأبيات٢٦- انظر إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٢٨٦-٢٨٧، وقارن إبن عذارى، هويثى (الموحدون)، ص٦٦- حيث وضع تعيّيد السيدين بظاهر مرسية، ثم إنعطافهما آخذين في الإنصراف إلى «الحضرة»، وإقامة السيد أبى سعيد فى قرطبة وإنصراف السيد أبى حفص إلى «الحضرة» فى سنة ٥٦١/١١٦٦م- وفى النهاية يكون وصول أبى حفص إلى مراكش فى ١٢ ربيع الثانى سنة ٥٦١هـ/١٦فبراير ١١٦٦م.

الأمير رمح طويل قد غشى سنانه...»

والتقى بأخيه السيد الأعلى المنصور المذكور فى البراح فى باب الشريعة.

ووقف العسكر مع السيد القادم أبى حفص بإزاء الشريعة (مصلى العيد).

ووقف عسكر الإمام معه فى أول البراح المذكور.

وتجاولت الخيل من فرسان العسكر بالجرى واللعب والدفاع بالحملات والكرات.

والطبول تضرب من ضحوة النهار إلى أذان الظهر من اليوم المذكور.

حتى حمل الأمير بنفسه فى تلك الدفعات سروراً، وأظهر من ركوبه وفروسيته أمراً عجباً.

ثم كان نزول الأمير عن فرسه، ونزول السيد الواصل، والتقيا وتصافحا وسلما، ثم كان سلام الناس الواصلين.

وبعد صلاة العصر كان دخول السيد أبى حفص وحاشيته إلى القصر العتيق المعروف بدار الحجر، حيث كان الاجتماع بالأمير يوسف فى «أعظم بروز وأحفل تمييز».

وفى اليوم الثانى صنع للموحدين والعرب ولجميع المقيمين من جميع الأصناف: الأطعمة الدارة، و«الأشربة الحلال». واستمرت الضيافة مدة ١٥ (خمسة عشر) يوماً. كانت عيداً عظيماً نعم فيه الضيوف، إلى جانب الأطعمة والأشربة الفاخرة على نقر الطبول، بالهدايا من: الأكسية التامة بالعمائم والغفائر والبرانس والقباطى، كما أدررت عليهم البركات من الدنانير، حسب طبقاتهم، من: كبار الأشياخ من الموحدين والعرب (١٠٠ دينار)، أو فرسان العساكر (٢٠ دينار).

وانتهى ذلك «الفرح» الملكى السعيد- بعد الـ١٥ (خمسة عشر) يوماً الحافلة- بعودة الغازين إلى قبائلهم للإستقرار.

والمهم فى النهاية هو تتويج الفرح الكبير بالهدنة بين الدولة الموحدية وابن مردنيش- الذى دخل فى الطاعة- طالت إلى خمس سنوات (إلى ٥٦٦هـ/١١٧١م).[١]

إضطراب العدوة الغمارية مع نهاية ثورة إبن مردنيش

سَبَّع بن منخفاد: ثائر جبل الكواكب

لم يكن من الغريب أن تنتفض بلاد غمارة القلقة، نتيجة طبيعية لانتفاضة العدوة الأندلسية المقابلة فى بلاد الشرق.[٢] وواضح مما سبق أن الثورة فى بلاد غمارة كانت شبه مستمرة منذ سنة ٥٥٩هـ/١١٦٥م إلى سنة ٥٦١هـ/١١٦٧م. وثائر غمارة الثانى بعد: مزيزدغ (مفتاح أو مَرَزْدَغ)، وهو: سُبَع بن منخفاد (أو منغفاد) الذى ربما كان أخا أو قريباً لمرزدغ الثائر الأول فى أواخر سنة ٥٦٠هـ/ ١١٦٥م (مما سبق). كما كان لسبع أخ هو عمر بن منخفاد (مما يأتى) فكأن الأمر يتعلق بأسرة (أو أسر) ملكية محلية فى جبال الريف فى بلاد الشرق من المغرب الأقصى، أشبه ما تكون بالأسرة الثائرة أبداً،فى قبائل برغواطة فى تامسنا من بلاد الغرب من المغرب الأقصى والتى يصفها البعض بمملكة برغواطة.[٣]

وهكذا لا يكاد إبن صاحب الصلاة ينتهى من ثورة إبن مردنيش فى مرسية حتى يردف فى ذلك ببقية أحداث تلك السنة(٥٦٠هـ/ ١١٦٥م) أو

---

(١) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٢٩٢؛ وانظر إبن عذارى، قسم٣ (هويثى)،ص٦٧ .

(٢) المعروف عن جبل غمارة، فى تلك العصور، تتابع نفاقه على الملثمين. كما عرف بأنه من أخصب بلاد المغرب، وأن قبائله أمم لا تحصى. فطوله ٦ أيام وعرضه نحو٣ أيام. وفيه جبال قد لحقت بأعنان السماء علواً، وحصون كثيرة تمتنع فيها غمارة على الولاة، وبذلك عرفوا حتى كسر الأمر العزيز (خليفة الموحدين) شوكتهم، وأباد شرارهم، واستأصل شأفتهم، هذا، كما كان لأهل هذا الجبل مذاهب شتى وسير مختلفة فانظر كتاب الإستبصار، تحقيق المؤلف،ص.١٩٠-١٩١.

(٣) عن برغواطة انظر ج٤ ص٢١٨ وما بعدها، وعن الاتجاهات الانفصالية فى غمارة منذ بداية فتح المغرب انظر ج١ ص٢٩٨.

التى تليها، وذلك فى جبل صنهاجة (غمارة) الذين توقفوا عن الطاعة وكذلك من جاورهم (من قبائل الريف).(١)

ولما كان الأمير أبو يعقوب يوسف قد سيّر لقتال الثوار الغماريين الشيخ أبا حفص (أنيتما والهنتاتى) لما عرف من «عزم وفائه، وصحة إخائه»، على رأس «عسكر من الموحدين، أنجدهم الله لقتالهم ونزالهم»، وفى موضع آخر من أخبار سنة ٥٦٠هـ/ ١١٦٥م، والمجمّعة فيما يشبه الذيل لأخبار تلك السنة، تأخذ الرواية التى يقصها ابن صاحب الصلاة على لسان رئيس المريدين السابق: أبى محمد سيد رأي بن وزير، عن ثورة غمارة، شكلاً منقبياً بالنسبة للأمير أبى يعقوب يوسف، إذ تقول: أنه عندما توقفت صنهاجة (غمارة) ومن جاورهم عن الطاعة، وأنه قيل له (الأمير يوسف الورع): «أدع الله عليهم»، فتوقف ثم قال: «الله تعالى يهديهم، ويصرفهم عن تعديهم، فما كان إلا قليل من الأيام، ووصلت البشري بهزيمة ابن مردنيش، وإتصل خبر البشرى بالفتح فى الجبال، ووجهوا فى الحين بالتوبة راغبين ضارعين».

وهنا، نرى أنه لما كان الأمر يتعلق بحملة الشيخ أبى حفص وبأحداث سنة ٥٦٠هـ/ ١١٦٥م، يكون من الواضح أن المقصود بتلك الحملة ثورة مفتاح صنهاجة أو مرزدَغ (مما سبق) وهذا ما تؤكده الرواية عندما تنتهى بالقول «وانصرف الشيخ المرحوم أبو حفص، وهم (غمارة) فى طوعه وتبعه بإسم النجح، واتصل الفتح (فتح إبن مردنيش) بالفتح (فتح غمارة)، وأنشد الشعراء الحاضرون بالحضرة فى وصول الفتح البعيد (الأندلس) والقريب (الغمارى).(٢)

---

(١) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٢٨٥-٢٨٦ حيث إضطراب فى تلك الورقات التى تحوى موضوعات متنوعة إلى جانب إنتفاضات غمارة، من: أعمال البر ونشر العدل وجمع الزكاة، الأمور التى تسجل دون عناية بتحديد تواريخها.

(٢) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٢٨٥-٢٨٦ .

تقييم الثورة المنخفادية:

وهكذا تستمر ثورة غُمارة أو دولتها الانفصالية (سياسياً وثقافياً) بعد سنة ٥٦٠ هـ/ ١١٦٥م، ممثلة فى حركة سُبَعْ بن منخفاد بصفته ثائر جبال قمم الثلج وسمت الكواكب. وإذا كانت رواية ابن أبى زرع تكتفى بتحديد زمن الثورة بسنة ٥٦١هـ/٧-١١٦٦م، ومكانها بجبل تيزران (أعلى جبل بقبيلة غمارة(١)، فإن المصدر الأول لتاريخ تلك الثورة هو إبن صاحب الصلاة الذى يدعم روايته التاريخية المفصلة- نسبياً- ببعض الرسائل الرسمية الخاصة بتلك الثورة. فصاحب المن بالإمامة يجعل ثورة سُبع بن منغفاد فى سنة ٥٦٢هـ/٧-١١٦٦م من حيث أنه يبدأ من تلك السنة محاولة السير على نهج الطبرى فى سرده الحولى للأحداث، ويصف حركة سُبَع بأنها فتنة ضلال من قبل بربر جهال مفسدين، فالثائر شق عصا الطاعة، وفارق الجماعة، وهو قاطع الطريق الذى يسبى الرفاق (التجار)، ويدخل الرعب فى قلوب الناس القاطنين بقصر كتامة المعروف بقصر مصمودة (القصر الكبير حالياً)- فكأنها شوكة فى حلق المجاز.

والمهم أن الحركة التى كانت تهدد المضيق إنتهت بالامتناع فى جبل الكواكب الشاهق الإرتفاع والمسامت للسحاب.(٢)

وأمام استشراء الثورة وخطورتها بالنسبة للمجاز فى منطقة سبتة، إتفق الرأى فى الحضرة مراكش على اتخاذ الإجراءات اللازمة لقمع الثورة، بتجهيز العساكر من الموحدين إلى بلاد صنهاجة فى منطقة القلعة (قلعة مهدى بن توالى)، وتمّ إسناد قيادة الحملة إلى الشيخ أبى سعيد يخلف بن الحسين.

---

(١) روض القرطاس، ص٢١٠ .

(٢) المن بالإمامة، ص٣٠٧-٣٠٨، وقارن إبن عذارى، قسم٣ (هويثى) ص٦٩- حيث النص على أن الفتنة تحركت فى جبال غمارة وغيرها، بمعنى أنها كانت ثورة عارمة، وهو يصف إبن منغفاد فى منطقة سبتة بأنه كان أعظم الثوار، والمصدر هو إبن صاحب الصلاة- حيث إختصار الرواية بالإكتفاء بالمفيد منها.

وإذا كانت الحملة الأولى التى قام بها الشيخ أبو حفص (الهنتاتى) قد انتهت بالقضاء على مفتاح الصنهاجى أو مَرزدع. فالظاهر أن حملة الشيخ أبى سعيد يخلف لم تحقق ما كان يرجى منها، إن لم تكن قد انتهت بالفشل. فهذا ما يظهر فى المرور عليها «مرور الكرام»، دون إشارة إلى إنجازات إيجابية أو سلبية، إكتفاء بالنص على أن الأمر تطلب المسير من الأمير أبى يعقوب بنفسه إلى سُبَع بن منخفاد، وكان خروجه بطبيعة الحال بصحبة أخيه السيد الأعلى أبى حفص (الوزير الخطير)، كما تطلب الأمر استدعاء الأخ الثالث أبى سعيد صاحب قرطبة للمشاركة فى الحملة، الأمر الذى يعنى خطورة الفتنة فعلاً، من حيث تهديدها الخطير لطريق المجاز بين العدوتين. بمعنى أن الأمر كان يتطلب العمل المشترك بين القطرين من ناحية، والظهور بتماسك كبار المسئولين من الأخوة أفراد الأسرة المؤمنية الحاكمة، من: «الأمير ولى العهد» (يعقوب)، ومساعديه (ولا نقول مساعديه): السيد الأعلى (الوزير) أبى حفص، وأمير قرطبة (أبى سعيد)، من ناحية أخرى.

هذا، وخرج الثالوث الأميرى برئاسة أبى يعقوب يوسف على رأس الموحدين مباشرة إلى جبال غمارة لمنازلة سُبْع بن منخفاد حيث «تمت الإحاطة بالأعداء فى ذراها»، مع النص على: سبيهم، وإستئصالهم، وإجلائهم عن جبالهم، وعلى الجملة: وغزوهم غزواً شافيا- دون تفصيلات شافية، إذ يكتفى بقتل الشقى مع القول: «واتصل لهم وبهم (الموحدون) الفتح فى جبال صنهاجة بالطوع من أهلها والمثاب».(١)

أما عن الرسالة التى أمر الأمير يعقوب بمخاطبة جميع الموحدين والطلبة والأشياخ بها فى كل من بلاد العدوة والأندلس، عن «كيفية الغزوة والفتح الشامل»، فهى من كتابة ابن عياش، من «منزل الموحدين

---

(١) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٣٠٩، وقارن إبن عذارى (هويثى)، ص٢٧٠ وانظر إبن خلدون، ج٦ ص٢٣٩ .

بداخل جبل الكواكب». وهي تنص على أن هدف الحملة هو: «حسم الأدواء النازلة بهذا المغرب، في هذه الفرق التي فارقت الجماعة، فتفرقت بها السبل والأهواء... فظلت على عدم الفهم: كسائمة البُهُم».(١)

والمهم أنه بعد نزول أبي يعقوب يوسف وسط بلادهم، وإجلاء من كانوا بالأوعار وقنن الجبال والشعاب، وبعد الدعوة إلى الإذعان كان قصد معقل الثائر الصعب المنال في جبل «بوتلة»، حيث الثلج ودخان البركان، والذي تم إقتحامه دفعة واحدة، ومن ثم إعلان التوحيد على شواهقه، مع «جمع الأنفال وضم المغانم والأموال». وينص الكتاب على بقاء الموحدين في الجبل مدة يومين، إعتباراً من ٣ رمضان سنة ٥٦٢هـ/٢٣ يوليه ١١٧٠م. تقرر بعدها توقف الأعمال الحربية إلى ما بعد عيد الفطر، على أن يكون إستئنافها «على قوة وفرة ونشاط متمكن». وفي أثناء ذلك كانت قبائل منهم تظهر المثاب... «وتلوذ بأكتاف العفو...»، فتقابل بالتشجيع.

هذا عن القبائل المنتشرة في الجبال بعامة، أما عن قائد الثورة سبَع بن منخفاد فهو ينتسب إلى قبائل بني أنال وهم المختصون بملكة جبل الكواكب أشهر الجبال منعة، وكانوا قد «إستحكم فيهم الفساد، وتمكن منهم الارتداد». ومع ذلك فعندما تحققوا من دنونا إليهم... «أقبلوا يخلطون الكدر بالصفو... ويرفعون أسباب المراوغة ليحوزوا بها مأمولهم من الاستبداد»، الأمر الذي لا يجوز على أهل العصمة.

وتفيد تلك الرسالة بخبر إنفرد به إبن صاحب الصلاة- كما لاحظ د. عبد الهادي التازي- وهو: أنه كان لسُبَع بن منخفاد أخ إسمه عمران أظهر للموحدين أنه يرغب في التوحيد والطاعة، مناورة منه لا أساس لها من الصحة، وذلك أنه لم يحضر إجتماع عيد الفطر، وذلك في الفترة التي

---

(١) المن بالإمامة، ص٣١١-٣١٢- حيث الإشارة إلى الحملتين السابقتين بقيادة كل من الشيخ أبي حفص والشيخ أبي سعيد يخلف، ومن ثم العودة إلى الحملة الأميرية- فكأن أحداث جبال غمارة مترابطة في سلسلة متواصلة من الأحداث بتواصل الزمن أو التاريخ.

أعلن الموحدون فيها الهدنة توطئة للسلم والمصالحة.(١)

وهكذا كان على الأمير يعقوب أن يوجه أخويه أبا حفص وأبا سعيد لغزوهم فى جبلهم الشاهق. فساروا إليهم فى اليوم الخامس من شوال/ عبر مسالك حرجة، من: الغياض والأحراش الملتفة الأشجار فى السفح بينما اعتصم الثوار فى عاليه... «سادّين لانقابه، معولين على الإنقضاض من علاه». والأمر المستغرب أن الله أمدّ الموحدين «بروح من عنده»... «فصارت الخيل فيها أنفذ من الرجل، بل من الطير، فأصبحوا قلائد فى أجيادها، وأطواقاً فى أجسادها. وأخذهم الله أخذاً تنوع فيه العذاب، فمن مضرج بدمه، ومرتد فى مزلة قدمه، وفار إلى حيث لا معتصم ولا ملجأ».

واستولى الموحدون على الجبل كله، وضربت به خيامهم، واقتفوا أثر الفارين، وأخذوا منهم الأموال والحريم.(٢)

وفى اليوم التالى أخذ الموحدون متابعة التفتيش عن بقايا المهزومين فى «زواياهم والتنقيب عن خباياهم، فكأن الجبل خلا من أهله، وأضحى يبابا بلقعا»، «قد خلت من الظالمين ربوعه، وهم مقدموا غمارة ومستتبعوها. وعن قائدهم سُبَع بن منخفاد فقد فرّ بفرسه ناجياً من ذلك المأزق بنفسه، بعد أن استبيح أهله وماله. والمهم أن الباقين فى الجبل «رغبوا فى الإقالة وأعلنوا التوبة... وفتح لهم هذا الباب» فكان ذلك مدخلاً لأن وثب على سُبَع بطانته ممن آووه واستوثقوا منه، ووصلوا به مشهراً بفضيحته.

وبذلك كمل الفتح، وأحصيت المغانم، فكانت: ١٢,٠٠٠ بقرة، ٢٧,٣٠٠ من الغنم، ومن السبى ٣٦٤٧، أما الدواب فكان عددها ٦١٧. وسجل كل ذلك فى الرسالة الرسمية المكتوبة فى ١٤ شوال ٥٦٢هـ/ ٥

---

(١) المن بالإمامة، ص٣١٥-٣١٧ .

(٢) المن بالإمامة، ص٣١٧-٣١٨ .

أغسطس١١٦٧م [١]، وبعد تهدين جبل غمارة، عهد الأمير يوسف بولاية سبتة وسائر بلادهم إلى أخيه السيد أبى على الحسن.[٢] فكأنه صاحب المجاز.

منازلة حصن لبَسّة بمنطقة غرناطة:

وفى الوقت الذى كان الأمير يوسف وأخواه يقومون بتهدين بلاد الريف فى منطقتى سبتة وجبل الكواكب، كان والى غرناطة الحافظ الشيخ أبو عبد الله بن أبى إبراهيم، يحقق عملاً مشابهاً بالقضاء على إذاية الروم من بقايا حلفاء إبن مرنديش فى حصن لبَسّة المتوسط ما بين غرناطة ووادي آش، والذى صار وكأنه شوكة فى حلقه. وهكذا: عزم الشيخ أبو عبد الله عزيمة، وطرق بعسكر غرناطة ورجالها ذلك الحصن، وفتحه غلبة على النصارى الطاغين، فى يومه... وهدمه، وخرّبه فى ساعة من زمانه... وانصرف إلى غرناطة مجاهداً.[٣]

وكتب الشيخ أبو عبد الله إلى الأمير يوسف يعرفه بجهاده هذا، فرد عليه بالرسالة التى يسجلها إبن صاحب الصلاة، بعد عودته من جبال غمارة إلى مراكش، وهى بتاريخ ٩ من ذى الحجة٥٦٢هـ/ ٣١يوليه١١٦٧م وملخص تلك الرسالة هو حمد الأمير لوالى غرناطة استبشاره بما من الله من الفتح والنصر (فى غمارة). وفى غزو المجسمين واستنقاذ ما كانوا

(١) المن بالإمامة، ص٣١٩-٣٢١، وقارن الرسالة التى كتبها السيد الأعلى أبو حفص عن نفسه بهذا الفتح إلى الشيخ الحافظ الاجَلّ (المرحوم) أبى عبد الله بن الشيخ أبى إبراهيم، وفيها الدعاء للأمير يوسف بصفته الأمير الأجل ولي عهد أمير المؤمنين عبد المؤمن، وبصفته أيضاً الملك الأسعد. وفى الموضوع فإن الله يسر للموحدين هذه الجبال الصعبة، والمعاقل الأشبة.... وأن الموحدين مازالوا يستنزلونهم من حصونهم ويستخرجونهم من شعابهم... وان رأس غوايتهم وعميد ضلالتهم سُبَع بن منخفاد، الشقى مرار قومه...، والذى جئ به أسيراً موثوقاً، فغزى فيه ورفع خداعه، وعفى أثره، وهى نعمة عظمى وفتح عظيم- وتاريخه ١٤ شوال٥٦٢هـ/ ٥أغسطس١١٦٧م.

(٢) إبن خلدون، ج٦ ص٢٣٩ .

(٣) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٣٢٣-٣٢٤ .

غنموه مع التأكيد على ما ذكره الشيخ أبو عبد الله من اختلال أمر المجسمين الشرقيين وتبدد شملهم... والله ينجز فيهم وعده لا رب غيره.[١]

أما عن انتصارات جبل الكواكب في غمارة فقد تغنى بها أبو عمر بن حربون، في قصيدة حسنة يمدح فيها الأمير يوسف، ويهنيه بالإستيلاء على أعدائه، وقتله لهم، ومنها:

بلجت بكم حُجج الكتاب المنزل ... ونصرتم نصر النبي المرسل
لما أتى الجبل المقدس منكمُ ... حرّت لسطوته رواسي الأجبل
فرقيتمُ منها مراقي لم تكد ... ترقى بها قدم الصبا والشمال
ووطأتم جبل الكواكب وطأة ... هُدّت لصعقتها مناكبُ يُذْبل
فتبرأت تلك المعاقل منهم ... والعقل لو رزقوه لأمنع معقلِ
وغار غويّهم برأس منيفة ... يهوى إلى درك الجحيم الأسفلِ
جاءوا به باب الرواق يقاد من ... بُرُد الهوان مقادة المسترذل
نور أضاء بمغرب وبمشرق ... لم تعم عنه غيرُ عين مضلَّل
إن الخليفة إن تأخر عصره ... فقد احتوى خلقَ الزمان الأولِ
شرخ الزمان ودولة قد أقبلتْ ... يا حسنه من مقبل في مقبلِ
هنئت مولانا أبا يعقوب بما ... خوّلت من فتح أغرّ مُحجّل
قد جاءت الدنيا إليك بوقرها ... واستقبلتك بوجهها المتهلل[٢]

تهدين الأندلس الشرقية وجبال غمارة العدوية
أول تأكيد لإمارة يوسف التجريبية

وهكذا، كان انتصار جبل غمارة على الخوارج المرتدين هناك من قبائل صنهاجة، وغمارة (مصمودة) موضوع الاحتفالات الرسمية والشعبية، كما

---

(١) المن بالإمامة، ص٣٢٤-٣٢٥ .

(٢) الأصل ٤١ بيتا- أنظر إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٣٢٥-٣٢٦.

كان الحال بالنسبة لاحتفالات جبل الفتح، على عهد عبد المؤمن، والتى كانت تكرّس فتح الأندلس، أو بالأحرى إنضمامه للدولة الموحدية، بصفته عَدْوتها الشمالية. وهذا ما يفسر كيف كان النصر الموحدى فى غمارة مناسبة أحياها شعراء البلاد فى مراكش، وعلى رأسهم أبو عمر بن حربون الشلبى.

فإلى جانب اللامية السابقة عن حرب جبل الكواكب، جادت قريحة ابن حربون بقصائد أخرى تخلّد جهاد الموحدين فى تهدين جبال غمارة، وإدخال قبائلها الثائرة فى طاعة الأمير أبى يعقوب يوسف الذى يوصف منذ ذلك الحين بالأمير العادل، والعدالة (بمعنى الاستقامة) هى المصطلح الذى يعبر فى النظم الإسلامية عن شريعة المُلك (أى الحكم).

وهكذا كان يبدأ الإعداد لاستكمال الأمير يوسف لحقوقه المنقوصة سياسياً، من حيث حمله للقب الأمير فقط، وكأنه مازال ولياً للعهد، كما يظهر وصفه بذلك اللقب فى بعض الرسائل الرسمية (مما سبق). والحقيقة إن الوسيلة لاستكمال يوسف لحقوق السيادة الكاملة كانت تتمثل بطبيعة الحال فى إمكانية فرض سيادة الدولة الموحدية، بعد الخليفة الوالد: أمير المؤمنين، على كامل تراب العدوتين: الأندلسية والمغربية.

القضاء على الأعداء فى حصن لبَسّة:

وهكذا كان على القوات الموحدية المتواجدة فى الأندلس أن تقوم، عقب إطفاء نيران الفتنة فى غمارة، بقيادة الشيخ أبى عبد الله بن أبى إبراهيم بتهدين منطقة غرناطة، وذلك بغزو حصن لبَسّة الذى يقع فى مكان متوسط ما بين غرناطة ووادى آش، فقد كان ذلك الحصن محل إقامة جماعة من النصارى، من أحلاف محمد بن مردنيش السابقين، والذين أمروا- وقتئذ- أن يفاتنوا منه (لبَسّة) فحص مدينة غرناطة، ويوالوا الإذاية منه عليها، «فكانت شجى فى حلقها، أذاقتها من الإذاية مرّ ذوقها»، كما كان حال «أندوجر» بالنسبة لقرطبة (مما سبق).

والمهم أن الشيخ أبا عبد الله طرق بقوات غرناطة بعزم صادق، ونجح في نفس اليوم في فتحه عنوة على من كان فيه من النصارى، حلفاء ابن مردنيش السابقين. ولم يغادر المكان إلا بعد إخراج جميع من كان بداخله من الأعداء، ومن ثم تخريبه وهدمه.[١] حتى لا يستفيد منه الأعداء.

وأخبر والي غرناطة النشيط الأمير أبا يعقوب يوسف في مراكش بما حققه من القضاء على ما كان يهدد غرناطة من جانب الأعداء، وكان ذلك عملاً يستحق التقدير من جانب الأمير يوسف، إذ كان يثبت قدميه في دست الحكم، وبالتالي يرفع من شأنه، وفي أحقيته الأكيدة في الإمارة، واستحقاقه الكامل لخلافة الوالد عبد المؤمن أي في حمل لقب أمير المؤمنين- وبالتالي توطيد أقدام أسرة الخلفاء من بني عبد المؤمن.

وهذا ما يظهر في ردّ الأمير يوسف، في رسالته إلى الشيخ أبي عبد الله والطلبة المُوحدين بأغرناطة، والمؤرخة في٩ من ذي الحجة سنة ٥٦٢هـ/ ٣١يوليه١١٦٧م.

وفي موضوع الرسالة الأميرية، تعتبر غزوة لبَسّة غزو البقايا المجسمين من المرابطين في شرق الأندلس، وأنه بشارة بتبديد شملهم، «وتلكم عادة الله تعالى فيمن ناوى أمره وأعرض عن جانبه، والله ينجز فيهم وعده، لا رب غيره».[٢]

والربط ظاهر عند ابن صاحب الصلاة بين أهمية الإنتصارات التي تحققت في كل من العدوتين، وخاصة بالنسبة لتقوية مركز الأمير يوسف وتثبيت حكومته، بمعنى نجاحه في إمارته، وأهليته في خلافة والده: أميراً للمؤمنين.

ويظهر ذلك في أشعار أبي عمر بن حربون، شاعر السيد الأعلى أبي حفص، وكاتبه ومعاونه في وزارته حيث أعقب قصائده الحماسية السابقة،

---

(١) المن بالإمامة، ص٣٢٣-٣٢٤ .

(٢) المن بالإمامة، ص٣٢٤-٣٢٥ .

بأشعاره الرقيقة فى التهانى وجميل الصفات، وفى مقدمتها العدالة (الإستقامة) والعدل (أساس الملك)، ومنها:

وجداً النسيم ثناءكم فتعطرا ورأى الوشيح مضاءكم فتأطرا
وجرى ملك السعادة بالتالى جشمت على كسرى وفلّت قيصرا
سلطان وضاح الجبين متوّج وتُقى نقىّ الجنب أشعث أغبرا
ملك تضعضعت الهضاب لبأسه وغدا له الزّمن العنود مسخرا
لما دعاه الدين دَعْوة مُرْهَق لبّاه منصورَ اللواء مُظَفرا
فإليك عن صنهاجة ما قدْرُها من مُلْك مَن يغزو المسيح الأعورا
صُمّوا عن الداعى إلى أن أسمعوا لوقوع بأسك فى غمارة جَرْجَرا
يا من تواضعت الملوك لأمره وكفى لها عزاً بذاك ومفخرا
أشبهت والدك الرضى فى هديه فقرنت بالغزو العراة والقرا
أبشر فكل صباح يوم إنما يأتيك بالفتح المعين مبشرا
وصِحْ لذكر «اليوسفية» إنها منعت مغانى الشعب من أن تذكرا
دبّجتها من خَلْقك جنّة وسقيتها من جود كفك كوْثرا[1]

ويفهم من القصيدة الميمية التى أنشدها ابن حريون، بناء على طلب السيد الأعلى أبى حفص فى معنى تشوقه لأخيه الأمير يوسف، بعد مشاركته فى غزوة جبل غمارة سنة ٥٦٢هـ/١١٦٧م، أن ذلك كان بمثابة تأييد من جانب السيد أبى حفص لأخيه الأمير أبى يعقوب يوسف، وإن ذلك كان من الأمور الحاسمة التي سعد لها الأمير يوسف، فكأنها كانت المرجحة لظفره (يوسف) فى السنة التالية(٥٦٣هـ/١١٦٨م) بلقب أمير المؤمنين. فمن هذه القصيدة:

١- سلام أيها الملك الهمام علانا ديك دام له السلام
٢- ولولا دولة أيدتموها لما عُرف الحلال ولا الحرام

(١) ٣٢ بيتا- المن بالإمامة ص٣٢٩-٣٣٩ .

٣- وحكّمت الأمور على رضاكم | وتمّ لكم على الزمن إحتكام
٤- وسيم الخسف كل أخى عناد | ودان لأمركم حامٌ وسامُ
٥- سل الجبل المكرم حيث ضاهت | عباب البحْر أنعمك الجسام
٦- تلقتنا بأشواق إليكم | مشاهد للمقدس للعظام
٧- تطلع نحوكم رحبا ووداً | كما يتطلع للبلد الحرام
٨- جنبناها بيمنكم كراما | على صهواتها عرب كرام
٩- إذا قادتهم أبناء قيس | فلا لخم تعدّ ولا جُذام
١٠- يطول بنا الزمان فكل يوم | يمرّ ولا نراكم فهو عام
١١- تبسّم عنكم هذه الليالى | كما إبتسمت عن الزهر الكمام(١)

والذى نراه، هو أن الشاعر الكاتب المقرب من السيد الأعلى أبى حفص، كان يعبر فى تلك القصيدة عن المعانى التى أرادها سيده الوزير الخطير تعبيراً جميلاً، كما فى تعبير السلام (فى البيت رقم١)، وتأييد الدولة الحاسم، والتحكم الموفق فى مسار أمورها، وإخضاع المخالفين مما حدث فى جبل غمارة (الأبيات (٢، ٣، ٤، ٥). أما عن الشوق إلى رؤيا الأخ الأمير، فتعبير عظيم يجمع بين حنين الأخوة والإحترام الذى يصل إلى مبلغ التقديس (انظر البيتين٦، ٧). أما عن تأييد العرب من قيسية ويمنية فهو أمر أصبح له أهميته البالغة فى اتخاذ القرارات العظيمة، مما يختص بولاية العهد واختيار الأمير المستجد (أنظر البيتين٨، ٩). هذا، ويبلغ التوفيق مداه فى الربط بين الشوق والزمان، وبين الفرج وابتسام الأزهار (أنظر البيتين١٠، ١١)

وهكذا، حق لابن صاحب الصلاة- أول مصدر تاريخى لفترتنا هذه- الذى كان حاضراً فى ذلك المجلس أن يقول: إنه «لما أنشدت هذه القصيدة... المبينّة عن صفاء الضمائر وخلوص الإخاء فى السراء من

(١) المن بالإمامة، ص٣٣٥-٣٣٨، وقارن إبن عذارى، قسم٣ (هويثى)، ص٧٢- حيث مراعاة التباين بين النسختين.

السيد الأعلى أبى حفص إلى الحضرة العلية، رأينا وجه الأمير قد انشرح محياه... وتهلل سروراً وبشرا... فقام كل من فى مجلسه العالى من الموحدين، من طلبة الحضر، وقبلوا يده وبايعوه، فأجزل العطاء... والبركات... وانصرف السيد الأعلى ظافراً، سالماً، ناصرا.(١)

والذى نخرج به من كل ذلك أن نجاح الأمير أبى يعقوب يوسف، بمعاضدة أخيه السيد الأعلى أبى حفص، فى إقرار الأمور فى كل من العدوتين: الأندلسية والمغربية، وذلك بتوحيد ابن مردنيش فى الأندلس، وخضوع غمارة وصنهاجة فى جبال الريف- بمعاونة العرب الهلالية- كان كافياً لكى يعطى أول أمراء أسرة بنى عبد المؤمن الشرعية فى خلافة والده العظيم، تماماً كما فعل الخليفة الوالد من قبل فى الإيعاز للعرب باختيار محمد المخلوع، لولاية العهد. والحقيقة ان اتفاق زعماء الموحدين، من مصامدة سوسيين، وملثمين صحراويين، وعرب إفريقيين، وأنصار أندلسيين، كل ذلك كان يعنى استتباب الوحدة بين عناصر دولة بنى عبد المؤمن الموحديه، والتى وقع على عاتق أمير المؤمنين فيها، من ذلك الوقت، مسئولية تقرير مصير دولة الغرب الإسلامى: الأندلسية المغربية.

(١) المن بالإمامة، ص. ٣٣٨، وقارن إبن عذارى (هويثى)، ص٧٢ .

﴿ ٢ ﴾

في تراتيب الإدارة ونظام الديوان (ديوان الإنشاء)

ولاية الأقاليم:

وكان تحقيق الوئام بين الأخوة بعد تهدين البلاد فرصة انتهزها الأمير يوسف لإجراء التعديلات المناسبة في إدارة البلاد بمعرفة الولاة والحكام، من: السادة الإخوة، وغيرهم من كبار الطلبة والحفاظ ومشايخ البلاد، إلى جانب استكمال النظم الديوانية في الدولة الموحدية المؤمنية التي كانت تزداد تحضراً ورقيًا مع مرور الوقت، إضافة إلى زيادة توثيق علاقاتها بالبلاد الأندلسية بنظمها العريقة، وحضارتها الفريدة.

هكذا كانت الفرصة مواتية لإجراء حركة تنقلات- كما يقال الآن- بين حكام الولايات المتطرفة في المغرب والأندلس، حسب مقتضى الحال.

بجاية:

ولما كانت ولاية بجاية الإفريقية شاغرة بأقطارها الواسعة دون وال، فقد نظر الأمير يوسف في أمر شغلها، وذلك بالتشاور مع أخيه (الوزير الحاجب) أبي حفص. وانتهى الأمر بوقوع الإختيار لولايتها على أخيهما السيد/ أبي زكريا يحيى (بن عبد المؤمن). وبذلك كان توجهه من حضرة مراكش إليها في أول شهر جمادى الأولى سنة ٥٦١هـ/ ٥مارس سنة ١١٦٦م، وفي معيته بطانة من أبناء الحفاظ وأبناء المشايخ والموحدين.(١)

أشبيلية:

ولما كانت ولاية أشبيلية هي الأخرى شاغرة بعد عودة السيد الأعلى

---

(١) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٢٩٣، إبن عذارى، الموحدون (هويثي) ص٦٧، إبن خلدون، العبر، ج٦ ص٢٣٩ .

أبى حفص إلى الحضرة مراكش، فقد ناقشه أخوه الأمير يعقوب فى أمر من يقوم بنظر عسكرها وأجنادها وثغرها، ووقع الاختيار على الشيخ الحافظ: أبى عبد الله ابن أبى إبراهيم (اسماعيل إيجيج: صاحب المهدى)، فأحضروه، وقدموه عليها يوم الجمعة (بعد الصلاة) ٢١ من جمادى الأول سنة ٥٦١هـ/ ٢٥مارس ١١٦٦م.

ونظراً لما كان للشيخ أبى عبد الله من المقام السامى بين جماعة الموحدين، فقد خصّ بكثير من رموز التكريم المناسبة للحال، من: عقد رايتين فى مجلسه الكريم، كما خُصّ أيضاً ببطانة وافرة من الحفاظ، إلى جانب تعيين وزير خاص به، هو: الشيخ الحافظ أبو يحيى بن سنان الذى يوصف بأنه ظهر عليه النجابة فى العلم، من «شبابه إلى فتوته، وما وصل الأربعين... ولعقله الراجح، وبما حباه الله به من عفاف الجوارح، والإقتناع بالكفاف، وسياسة النظر فى المصالح».

ونظراً لأهمية ولاية أشبيلية التى تكاد تكون «نيابة» للحضرة الأميرية، خرج مع أبى عبد الله العديد من مشاهير الحفاظ، من مختلف القبائل، من: جدميوة، وكومية، وصنهاجة. هذا كما وجهوا معه عسكراً من العرب لحماية أشبيلية وأنظارها. وزيادة فى الحفاوة بصاحب أشبيلية الجديد (حفيد إيجيج العتيد) «أمروا بأربعة من الطبول بأربعة من الفرسان يضربونها عند خروجه، إعلاماً برفعته عندهم...» وكان خروجه من الحضرة نحو أشبيلية فى غرة جمادى الأخيرة من سنة ٥٦١هـ/ ١٤أبريل١١٦١م تتقدمه الرايتان، رمز مقامه السامى. وكان جوازه البحر إلى الأندلس من قصر مصمودة (القصر الكبير حديثاً) فى معية أمير البحر: أبى محمد عبد الله بن إسحاق بن جامع (أحد أخوة إدريس)، وصاحب سبتة، إلى حيث النزول فى مرفأ جزيرة طريفة. وكانت المسيرة إلى العاصمة الأندلسية: أشبيلية مصحوبة بما يليق بها، من الإلتزام «بالصلاة، والأذان، والتثويب... إلى أن بات على مقربة من

أشبيلية، فخرج إليه حفاظها وأجنادها... ودخلوا في أول رجب سنة ٥٦١هـ/٣مايهُ ١١٦٦م، معه مسرورين بقدومه... شاكرين الله تعالى والأمير الأجل أبا يعقوب أن خصَّهم به، وكرَّمهم بتكريمه».[١]

والمهم أن ولاية الشيخ أبى عبد الله بن أبى إبراهيم لأشبيلية لم تدم طويلاً، إذ انتهى الأمر بانقطاعها في شهر ذى الحجة من سنة ٥٦١هـ «أى بعد حوالى ٦ (ستة) أشهر» ، حيث آلت ولايتها- وهو الأمر المبرر- إلى أحد أفراد الأسرة المؤمنية، وهو السيد أبو إبراهيم (إسماعيل بن عبد المؤمن) ، مما يمكن أن يعنى نقلة من الحكم الدينى أو الديموقراطى التيوقراطى- كما يقال- إلى الحكم الكلى (المؤمنى) المباشر. وهذا الأمر يتأكد فعلاً بتحول أبى عبد الله بن أبى إبراهيم من أمير لأشبيلية، إلى وزير (أو كاتب) فى خدمة السيد/ أبى إبراهيم، نائب الأمير الحقيقى لعاصمة الأندلس الموحدية،[٢] هذا ، ولو أنه سيتم نقله والياً لغرناطة عما قريب، وذلك فى العشر الأواخر من شعبان سنة ٥٦٢هـ/مايهُ١١٦٧م، بعد حوالى نصف سنة فقط، إذ كان وصوله إلى ولايته الجديدة (غرناطة) فى ١٠رمضان سنة ٥٦٢هـ/٢يونيه١١٦٧م.

والمهم أن الشيخ أبا عبد الله بن أبى إبراهيم إستمر فى ولاية أغرناطة إلى شهر جمادى الأولى من سنة ٥٦٤هـ/يوليه- أغسطس١١٦٩م- أى حوالى سنتين. وفى تلك الأثناء كان أبو عبد الله يؤدى واجباته العسكرية، كما كان العهد به. فقد نازل حصن لبسة (Labas) قرب وادى آش، ففتحه وأنزل جميع من كانوا فيه من النصارى، وعرَّف الأمير الأعدل يوسف بذلك، ونال شكره على اجتهاده هذا.[٣]

(١) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٥٩٣-٥٩٥ ، وقارن إبن عذارى، الموحدون (هويثى) ، ص٦٧، إبن خلدون، العبر، ج ٦ ص٢٣٩ .

(٢) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٢٩٦ ، وقارن إبن عذارى، الموحدون (هويثى) ، ص٩٧-٩٨، إبن خلدون، العبر، ج ٦ص٢٣٩ .

(٣) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٢٩٦-٢٩٧؛ وقارن إبن عذارى، الموحدون (هويثى) ص٩٨ .

هذا، كما نجحت قواته فى مطاردة البرتغاليين المقيمين فى مدينة شنترين، والذين أغاروا على نظر طلياطة (من غرب شَرَف أشبيلية)، وأدركتهم، وأنقذت الغنائم من بين أيديهم، بل «وساقوا من سبيهم مائة فارس، وجملة أعلاج»، الأمر الذى إعترف به الأمير يوسف، وشكر لأبى عبد الله بالمناسبة جهاده واجتهاده.(١)

ويتضح من رواية ابن صاحب الصلاة التى يقتبسها ابن عذارى، أن الأمير يوسف الذى كان مقبلاً على تثبيت عرشه، بالإعلان عن اتخاذ لقب أمير المؤمنين فى سنة ٥٦٣هـ/١١٦٨م، كان يمهد بذلك أيضاً، للقيام بعملية تنقلات شاملة فى عواصم الدولة الموحدية بالأندلس. وكان ذلك يتم فعلاً تحت مظلة الوئام بينه وبين شقيقه السيد الأعلى أبى حفص، إعتباراً من سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م، حيث تم استدعاء جميع الولاة بالأندلس، وعلى رأسهم الشيخ أبو عبد الله بن أبى إبراهيم والى غرناطة، والسيد أبو إبراهيم (إسماعيل) والى أشبيلية، وأبو إسحق إبراهيم صاحب قرطبة إلى الحضرة مراكش.

والحقيقة أيضاً أن الاستقرار بين الأخوة: بنى عبد المؤمن وقتئذ، كانت تتأكد أركانه بذلك الحلف العائلى والمصاهرة بين الشيخ أبى عبد الله وبين السيد الأعلى أبي حفص الذى وافق على أن تكون إبنته المصونة قرينة لوريث شيخ الدولة العتيد (إسماعيل إيجيج). هذا، ولقد تطلب هذا الزواج السامى أن «تتمادى إقامة الشيخ (السيد) بمراكش الحاضرة إلى أول ذى القعدة سنة ٥٦٥هـ/١٧ يوليه ١١٧٠م، عندما تطلب الحال أن يغادر والى الأندلس بصحبة السيد الأعلى أبى حفص لحرب إبن مردنيش، وبرفقتهما واليا كل من أشبيلية، وقرطبة: السيدان أبو إبراهيم وأبو

---

(١) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٢٩٦، وإبن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص٦٨- حيث إضطراب النص بعض الشئ.

إسحق إبراهيم.[١]

وأهم أعمال الشيخ أبى عبد الله بن أبى إبراهيم العسكرية فى الأندلس فى تلك الحملة، هى فتح بسطة، ومعاونه السيد/ أبو إبراهيم (إسماعيل) صاحب أشبيلية، حيث كان فى إستقبال أمير المؤمنين يوسف عند جوازه إلى الأندلس سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧١م، ومن ثم استقراره فى المعية الأميرية، وليس فى ولايته بغرناطة حيث كانت «تحت حكمه وبيده، فيها رجاله وعياله».[٢]

والظاهر أن الأمير يوسف تنبه إلى حال غرناطة المبهم هذا، فما كان منه إلا أن عهد بولايتها إلى أخيه السيد الأسنى: أبو سعيد (عثمان) عوضاً عن ابن أبى إبراهيم الذى كان له وضع المستشار الخاص بالنسبة لأمير المؤمنين الخليفة يوسف. هذا، كما زاد يوسف فى تشريفه بالإشراف على تمييز الحفاظ أجمع فى أول شهر ربيع ٥٦٧هـ/ ٢نوفمبر ١١٧١م. هذا، كما حضر مع الأمير يوسف غزوة وبذة الكبرى، كما حضر غزوة أبى برذعه (الرومى)، وانتهى (شيخ الدولة العتيد) وهو فى عنفوان عمره، فى سن الـ٣٦ (السادسة والثلاثين)، بعد أن لازمه المرض مدة سنة ونصف سنة، إذ توفى فى **٢٧** رمضان سنة ٥٦٩هـ/٣ مايه ١١٧٤م، ودفن خارج باب جهور بأشبيلية.[٣]

(١) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٢٩٧، وقارن إبن عذارى الموحدون (هويثى) ص٦٨ حيث إضطراب المتن ما بين الإستدعاء إلى الحضرة لوالى قرطبة السيد أبى سعيد وإنصراف الشيخ أبى عبد الله بن أبى إبراهيم إلى جزيرة طريف حيث اللقاء بالسيد أبى إبراهيم والانصراف إلى أشبيلية.

(٢) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٢٩٨- حيث الإشارة أيضاً إلى أن نائبه فى غرناطة كان قائد الحامية بالقصبة، وهو أبو محمد كوكان، الذى كان ينظر فى أشغال الموحدين بها على أحسن حال.

(٣) المن بالإمامة، ص٢٩٨-٢٩٩- حيث تقييم إبن أبى إبراهيم، بأنه: كان من علية أبناء الجماعة فى الرياسة والسياسة، أما عن ثقافته، فهو: حافظ للقرآن برواياته المختلفة، وكذلك موطأ المهدى، وعقائده، مع مشاركة فى الأدب، ومطالعة على كتب التواريخ، وهمة عالية فى جمع الكتب وإقتنائها وإنتساخها حتى إجتمعت له =

إدارة الدعايــة

استقرار نهج إبن تومرت فى الإعلام الديوانى الموحدى

إذا كانت وزارات الدعاية والإعلام تعتبر من ابتكارات عصرنا الحديث، فإنه يمكن القول أن الدعاية هى الوسيلة التى استخدمها المصلحون الإجتماعيون منذ أقدم العصور فى نشر أفكارهم الخيرية على كل المستويات الحياتية، وخاصة الثقافية منها، والدينية على وجه الخصوص.

= منها خزانة عظيمة عالية الفنون. ، هذا ، مع وفائه لأصحابه... «والتزامه بالطهارة، والصلاة، ويدار لدفع الواجب من الزكاة فى حين وجوبها، دون تأخيره».
ويختم إبن صاحب الصلاة سيرة الشيخ أبى عبد الله بن أبى إبراهيم (إسماعيل إيجيج) ببعض مشاهد من مجالسه الترفيهية أثناء ولاية غرناطة، حيث كان يخرج مع أصحابه الحفاظ إليها من الموحدين، ومن خاصته، وينزل على ساقية بضفة نهر أحسن من «شاهد مهر» (بنيسابور من خراسان). حيث الجداول والظلال، وقد أحضر ما يكفى الجميع من الشراب والطعام، فيستريح ويؤانسهم ثم ينصرفون، وقد حازوا فيه من المجالسة والمؤانسة خير حرمة وذمام.

وفى ذلك المجلس قال إبن صاحب الصلاة- أثناء غيابه (الشيخ)- وهو شعره (إبن صاحب الصلاة) الوحيد فى المن بالإمامة. ومنه:

عــهــدناك ياذا المنزل الرحب منزلاً ... لسيدنا بل أفضل العصر أجمعا
تحط بك الآمــال من كل جــانب ... ويقـرب منك الأنس مثنى ومربعا
فــهــا أنت هذا اليـوم أوحش منزل ... رأيناك بيـداء وقصـراً وبلقعا
طمعت بنفس أن أرد دموعهـا ... فمهما زجرت العين أسبلتا معا

وكان بعد ذلك رجوعه إلى غرناطة على ما دعوت وزجرت. وكانت عودته إليها أثناء غزوة السيد الأعلى المجاهد المرحوم أبى حفص بن الخليفة- رضه- فى عام ٥٦٥هـ/ ١١٧٠م.

وفى ولايته اشبيلية كتب له الكاتب أبو القاسم المواعينى مهنئا نثراً ونظماً... وكيف لا وهو شيخ الموحدين... محل الشيخ الأجل، الحسيب المبارك الأفضل..

محـمـد يابن إسـمـاعيل أنتم ... لهـذا الأمـر قطب أو عـماد
أخ لبنى الخـلافـة صفـو صدق ... ولو سكت الورى نطق الجماد

من ملتزم أمرهم، ومنظم حقهم، رهين شكرهم: محمد بن إبراهيم.

وفي هذا المقام نرى أن الإسلام يحتل مكاناً متميزاً بين الديانات التبشيرية، وأنه من أجل نشره خارج مهده فى الحجاز وجزيرة العرب، إستخدمت منذ البداية جميع الوسائل المتاحة وقتئذ للنشر والإعلام. والحقيقة أنه لما كان يمكن إعتبار الإسلام حركة إصلاح دينى لكل من اليهودية والمسيحية. وهو بدأ فعلاً بالتبشير الذى يعرف عربياً «بالدعوة» إلى الإسلام سلمياً، ولكنه لم يلبث- لظروف ظهوره الخاصة- أن تحول إلى حركة جهادية ذات حدّين: أحدهما نفسى روحى (مجرد) والآخر حسى عقلى (ملموس)، فكأن في الأمر نوعاً من الثنوية ممثلة فى الصراع بين الشفافية الروحية والمادية الشهوانية أو ما بين الخير والشر أو المعروف والمنكر- حسب المصطلح الإسلامى الدارج.

والمهم فى الدعوى (أو الدعاية) الإسلامية أنهّا بدأت شكلها العالمى وهى تخرج عن حدود الجزيرة العربية بالتطلع نحو البلاد المجاورة، من: إيران (شرقاً) والشام (شمالاً) ومصر (غرباً) والحبشة أو السودان (جنوباً)، وكانت وسائلها فى الخطاب كلا من الخطابات الشفوية، والمكتوبات الديوانية، فيما عرف بالرسائل النبوية من الشفوية أو التحريرية، إلى جانب ما كان يمكن أن يتمخض عنها من الإتفاقات السياسية.

وهكذا ظهر الإسلام حضارياً فى دعوته منذ نشأته الأولى، واستخدمت الدعاية للدخول فيه منذ بداية الغزوات النبوية ومن ثم الفتوح العربية كعمليات تمهيدية للحلف والمؤاخاة مع أهل البلاد المفتوحة. وتبعاً للنظرية الخلدونية التى تقول إن المغلوب كلف بتقليد الغالب أصبح التعريب من عوامل الربط بين سائر البلاد الداخلة فى الإسلام، ومن ثم كان تعريب الدواوين الرسمية من عوامل انتشار الإسلام الأساسية، وإن كان إلى جانب التعريب الشعبى عن طريق الاختلاط بالجوار- وهو التعريب الشامل من غير شك.

هذا ومنذ انتقلت حكومة الأمويين إلى أيدى العباسيين من بنى العمومة من آل البيت فى بغداد، وكذلك الأمر بالنسبة للأدارسة العلويين فى فاس ومن ثم الفاطميين فى المهدية ثم فى إمبراطورية القاهرة، كل ذلك كان يمثل إنتصاراً للتشيع على حساب أهل السنة. وزادت الانقسامات المذهبية بظهور المتكلمين الفلاسفة، وبعدهم المتصوفة المتوكلين. وأمام هذا التشرذم الإسلامى بدأت حركة رأب ذلك الصدع والدعوة لعودة الوحدة، وتمثل ذلك فى حركة الأشاعرة، ومن ثم حركة الغزالى «لإحياء علوم الدين»، وعلى نفس هذه الأسس قامت حركة التوحيد التومرتية والوحدة فى المغرب والأندلس وذلك على المستويين الدينى والسياسى.

والمهم فى حركة ابن تومرت أنه اتخذ العلم وسيلة لإحياء التوحيد الإسلامى، وهى حركة تقدمية، كما يقال الآن. فهو قد كتب تآليفه فى مذهب التوحيد باللغتين العربية الفصحى والبربرية المحلية، وطالب الجباليين من أهل السوس أن يدرّسوا تعاليمه بالبربرية لمن لا يعرف العربية (ج٥) وكانت تلك مرحلة أساسية لتعلّم العربية وانتشارها بين العامة من البربر، كما نرى. ويبرر ذلك أيضاً الرسائل الرسمية التى كان يصدرها إبن تومرت منذ استقراره فى إيجليز هرغة، ومن ثم فى تينمل، قبل قيام ديوان الإنشاء الرسمى فى مراكش، منذ الاستيلاء عليها سنة٥٤١هـ/١١٤٦م.

والمهم هنا هو الرسائل الدعائية التى كان يصورها إبن تومرت فى الترغيب فى مذهبه التوحيد، والتنفير من حكومة المرابطين، على أساس مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى كان ينتشر بين أفراد الشعب فى طوال البلاد وعرضها.

وتظهر أهم النماذج الأولى ممثلة فى الرسائل المستقاة من العقيدة والمرشدة لإبن تومرت نفسه، كما تظهر فى رسالة الفصول على عهد عبد

المؤمن.[١]، كما تظهر على عهد يوسف فى الرسالة التى كتبها ابن عياش (أبو الحسن عبد الملك) إلى أمير شرق الأندلس: محمد بن سعد بن مردنيش، حيث وصف دعاة المسلمين بأنهم «يأخذون بالحجزات عن النار»، ويدعون إلى التمسك بالدين القيّم والمنهاج البيّن... كما ينص على أن الاسلام «سيعتوره التغيير والتبديل... والتحريف والتحويل... من نشوء البدع وطوارئ المحرمات... وإيثار الشهوات وعبادة الأطماع... وفيه: «وإنا... ندعوكم برعاية الله... ونهيب بكم إلى السلوك لطريقه الواضح المستقيم... وتتأملوه تأمل ذوى الاستبصار... لا دين لمن لم يدن بهذه الدعوة...». فكونوا ممن يأخذ لنفسه من نفسه، وأثار ليومه من أمسه.

وهو يشير إلى خطاب سابق (العبد المؤمن)، قائلاً: «وقد كان سيدنا أمير المؤمنين... خاطبكم بهذه الدعوة... ونحن لأوامره العلية مراعون، وللدعاء إلى ما دعاكم إليه داعون... فاقبلوا نصيحة تحرز لكم حظّ السناء... والله تعالى يعينكم على تقبُّل هذه الوصايا... ويجعلكم ممن تنبه للعظات، وذكّر بالآيات بمنه».

خاطبناكم بهذه المخاطبة دعاء إلى الله... وما أطلعناكم إلا على خيرة نصح ونخيلة ذكر، لا مقصد لها إلا الوفاء بعهد الله ومشياقه...

وعن تاريخ هذه الرسالة: بعد صلاة الجمعة من أول يوم رمضان المعظم سنة٥٦٤هـ/١١٦٨م.[٢]

(١) انظر رسائل موحدية، بروفنسال، الرسالة٢٣، ص١٢٦ من إنشاء أبى جعفر بن عطية، حيث التوصية فيها بإقامة الحدود وحفظ الشرائع وإظهار الحق بلزوم الواجبات.

(٢) رسائل موحدية، بروفنسال، الرسالة ٢٥ص١٤١-١٤٩، أما عن الخطاب السابق المشار إليه فهو الرسالة العاشرة من نفس المجموع- ص٣٥-٣٧، حيث نهايته... وأنا لنرجوان يكفكم عن ذلك وأشباهه- إن شاء الله تعالى- نظر موفق، ومتاع محقق، ويجذبكم إلى موالاة هذه الطائفة المباركة جاذب يسعد، وسائق يرشد، والله يمّن عليكم بما ينجيكم، ويمكن لكم فى طاعته أسباب تأميلكم وترجيكم بمنه. والسلام...

(كتب فى الـ١٦ من جمادى الآخرة سنة ٥٤٨هـ/١١٥٤م)

البريد وترتيب «العلامة» (الأميرية) فى الرسائل الديوانية :

وفى سياق الدعوة إشتهرت الدولة الموحدية بين دول المغرب الإسلامية بترتيب البريد بنوعيه: البرى المعتاد (على ظهور الخيل أو غيرها من الدواب) والبحرى السريع، الذى كانت تحمل فيه الرسائل (فى الغراب الطيار) من بجاية (بالمغرب الأوسط) إلى مالقة (بجنوب شرق الأندلس) بسرعة الريح فى أيام قليلة.[١] وهكذا كانت الأوامر والمناشير السلطانية متبادلة بين الحضرة مراكش وعواصم الأقاليم فى الأندلس والمغرب، وهى تحمل الأخبار عما يدور فى نواحى الإمبراطورية المترامية الأطراف، وتمكّن القيادة العليا فى مراكش من اتخاذ الاجراءات المناسبة لمواجهة كل الأحداث، من معتادة وطارئة.

وكانت لتلك الرسائل الديوانية تراتيبها الخاصة التى يعرفها الكتّاب، والتى تحدد عناصر الرسالة الأساسية، بدءاً من اسم الراسل والمرسل إليه، ومن ثم ما هو متعارف عليه، من: التسليم والتصلية والحمدلة، ومكان الإرسال، قبل تناول موضوع الرسالة التى عادة ما تنتهى بتاريخ الإرسال.

هذا، وتتميّز الرسائل الموحدية الرسمية بخصائص مميزة، منها: الترضية عن الإمام المعصوم، المهدى المعلوم (محمد بن تومرت: محمد بن عبد الله)، ومن بعد عن «خليفته» (عبد المؤمن) وعن خلفائه (من سلسلة بنى عبد المؤمن: أمراء المؤمنين).

والحقيقة أن الفضل يرجع إلى المهدى محمد بن تومرت فى تنظيم ديوان الرسائل الموحدية بالشكل المشار إليه، كما كان له الفضل فى نشرها فى أرجاء دولة الموحدين الناهضة، كوسيلة للدعاية لحزب التوحيد (حزب الله) على أيامه، ثم على عهد عبد المؤمن وبنيه. وعلى عهد أبى يعقوب يوسف، ومع زيادة انتشار الرسائل الرسمية فى أغراض الدولة المختلفة، ظهرت أول محاولة فى المغرب لإعطاء الرسائل الأميرية شكلها الرسمى

(١) انظر ج٥ (عن البريد البرى) و (عن البريد البحرى السريع).

الذى يحدد أصالتها، ويضفى عليها صورتها القانونية، وذلك بما يتمثل في توقيع ولى الأمر (الخليفة) ليس بإسمه ولكن بخطه فقط.

والشارة الخطية تتمثل فى كلمات «الحمد لله وحده» (عبارة التوحيد) والتى ربما كانت النسخ الأولى منها بخط ابن تومرت نفسه. والمهم أن هذه الشارة المعبرة عن مذهب التوحيد التومرتى، عندما تقررت على عهد يوسف، كان ذلك على أن تكون بخط الأمير نفسه، واتخذ لها إسم «العلامة» بمعنى العلامة المميزة للرسالة والدالة على صدورها من ديوان الحضرة ذاته.[1]- دون غيرها من رسائل الدواوين المحلية فى العواصم الإقليمية.

هذا وتنص رواية ابن عذارى على أن أول رسالة تحمل العلامة بخط أبى يعقوب يوسف، كانت رسالة الأمر بالعدل والنهى عن المنكر، والتى صدرت من الحضرة إلى جميع البلاد، ووصلت إلى قرطبة، بتاريخ ٣ رمضان سنة ٥٦١هـ/٣١ يوليه ١١٦٦م ومن ثم إلى أشبيلية وغيرها من العواصم، وأنها تعتبر أول أوامره العلية بصفته أميراً للمؤمنين.[2]. ومن

---

(١) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٣١٢، وقارن إبن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص٦٩، وإبن خلدون، العبر، ج٦ص٢٣٩.

(٢) إبن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص٦٩ والرسالة: من إنشاء الحسن بن عياش، والمرسل والمرسل إليه من أمير المؤمنين يوسف ابن أمير المؤمنين إلى أخيه السيد أبى سعيد وأصحابه الطلبة بقرطبة والموضوع فى: الإقتداء بالكتاب والسنة، والأمر بالعدل وموازين القسط والإلتزام بالطرق المؤدية إلى معنى الصدق. ومخاطبة جميع العمال شرقاً وغرباً وبعداً وقرباً بألا يحكموا فى الدماء حكماً من تلقائهم إلا بعد رفع النازل إلينا على وجهها... وتقيد بالشهود العدول... وتكتب أقوال المظلومين وحججهم وإقرارهم... وحجج الطالبين فى مقالاتهم... ويتوثقون فى المطلوبين بالدماء بسجنهم وتثقيفهم ومثل هذا يقال عن جريمة الزنا والحرابة والمستهزئين بالدين.

أما عن الجرائم الأصغر فتكون أحكامها دون النفوس، مثل: قتل الخطأ، وديات الشجاج وعقول الأعضاء والسرقات ومتلبسات المناكحات والسرقات والمعاملات وما أشبهها... والمهم تقوى الله فى السرّ والجهر، وخيفته فى الباطن والظاهر.

(كتب فى الـ٣ من شهر رمضان المعظم سنة ٥٦١هـ/٣١يوليه١١٦٦م انظر =

المهم الإشارة هنا إلى أنه لما كانت الرسالة صادرة من يوسف وهو يحمل لقب أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين وتحمل فى نفس الوقت تاريخ ٣ رمضان ٥٦١هـ/١١٦٤م فإن هذا يثير الشك فى تاريخ مسألتى اللقب بأمير المؤمنين وإتخاذ رمز «العلامة» وهل يحتمل أن يكون فى سنة ٥٦١هـ/١١٦٤م، بدلاً من ٥٦٣هـ/١١٦٧م التى يقدم ابن صاحب الصلاة نفسه بشكل واضح للقب الخلافى (مما سبق). هذا ولا بأس من الإشارة إلى أن موضع التوقيع بالحمدلة تحول فى المشرق المملوكى إلى «بيت العلامة»، كما أن التوقيع بالحمدلة تحول إلى توقيع يكتب السلطان فى «بيت العلامة» إسمه من غير زيادة [(١)] أى: دون ألقاب، مما هو دارج الآن، هذا، ويقول ابن خلدون أن «العلامة» ظلت دارجة إلى آخر دولة الموحدين.[(٢)]

هذا ولا بأس من الإشارة إلى أنه كان من رموز يوسف وعبد المؤمن أيضاً، عندما تمت له البيعة بإمارة المؤمنين، سنة ٥٦٣هـ/١١٦٨م أن صنع له الصناع سنان رمح بسنانين إثنين، متصلين فى سعة السيف كل واحد منهما. وفى وصفهما، مما قاله أبو عمر بن حربون من شعره:

رمح تمثل للأعادى شكله ... رأس شجاع أو زبانا عقرب
ماذا لإنا ظران تشوفا ... نحو الجهاد تشوف المتوثب

= ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٣٠٢-٣٠٧، وكان ذلك إقتداء برسالة والده عبد المؤمن فى رسالته فى العدل والنهى عن المنكر والمؤرخة فى ١٦ من ربيع الأول سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م- انظر إبن القطان، نظم الجمان، ١٤٩-١٥١.

١) انظر القلقشندى، صبح الأعشى، ج١٠ ص١٥٢- عما «يكتبه الخليفة فى بيت العلامة»، ص١٨٨- عما يكتبه السلطان فى بيت العلامة...ويكتب السلطان فى بيت العلامة إسمه من غير زيادة، وعن بعض نماذج الرسائل الموحدية، انظر نفس المصدر، ج٥ ص١٩١ . ج٦ ص٤٤٣ (فى الكتب الصادرة عن الخلفاء الموحدين بالمغرب، وانظر ص٥٢٦ عن كتاب القاضى الفاضل إلى المنصور الموحدى (سنة ٥٨٥هـ/١١٩٨م)

(٢) العبر، ج٦ ص٢٣٩- حيث يتبع ذلك بالتحفظ المنهجى «والله أعلم»

ها إنها بعض العلامات التى قد أطلعوا أنوارها بالمغرب
إن الخلافة لم تبن أسرارها إلا لهذا النجل أو هذا الأب

هذا ويضيف ابن صاحب الصلاة إن أبا يعقوب يوسف أمر أن يكتب الصناع فى سيفه «لأمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين»، وفى ذلك قال ابن حربون على لسان السيف:

أنا إن جردت يوماً كنت بالضرب تمينا
لأمير المؤمنين بن أمير المؤمنينا[١]

التمييز الجديد: تصنيف الناس على طبقاتهم:

إلى جانب المستحدثات التنظيمية فى مجالات ديوان الإنشاء، وما يلحق به من البريد والعلامة على عهد يوسف بن عبد المؤمن، يأتى التحديث الشامل فى تنظيم جماعة الموحدين، حسب مقتضى العصر فى تطور آليات الحكم. وذلك ما حدث فى أعقاب الإحتفالات التى أقيمت بمناسبة المبايعة بلقب «أمير المؤمنين» فى سنة ٥٦٣هـ/١١٦٧م، فكان تمييز جماعة الموحدين عصبية الدولة (الموحدية) المؤمنية.

والذى يفهم من تقرير ابن عذارى أن التمييز أو العرض أُحْدِث بعد تكريم الحاضرين بموائد الطعام الفاخرة والوافرة (مما كان يسمى بالبربرية «أسماس»)، ومن ثم «بالبركات»، وهو الجوائز المالية والمخصصات، والتى كانت تعطى تبعاً لطبقة كل مستحق تبعاً لمكانته فى السلم الوظيفى. وإذا كان النص المختصر يقرر أنه: «ميّز الناس على جميع طبقاتهم، وهيئاتهم وخيلهم، ورجلهم، فكتبت أسماؤهم على الإستيفاء، وخرجت لهم البركات على الذى كتبوه ورتبوه».[٢]

ويفهم من هذا النص أن جماعة الموحدين، عضد الدولة المؤمنية المستجدة، أصبحت تتكون من طائفتين، إحداهما مدينة سياسية، وتتمثل

(١) المن بالإمامة، ص٣٥١-٣٥٢

(٢) إبن عذارى، الموحدون (هويثى) ص٦٧

فى طبقات المشرعين من أعضاء مجالس: العشرة والخمسين والسبعين، بالإضافة إلى ممثلى القبائل المختلفة حسب ترتيبها تبعاً لسبقها فى التوحيد. أما عن الهيئات فلابأس أن يكون المقصود بها أصحاب السلك الإدارى من موظفى الدولة فى المخزن أو دواوين الدولة المختلفة، فى مجالات: الإنشاء (الكتابة) والمالية والأشغال (الإعمار) وما يتصل بكل ذلك.

أما المقصود بالخيل والرجالة فهى القوات المسلحة، من: برية وبحرية، ومن ثم سلاح الفرسان (الخيالة الهجومية)، وأسلحة المشاة (الرجالة) الدفاعية، مع حسبان التدرج فى السلم الوظيفى فى جميع الطبقات والهيئات، من مدنية وعسكرية.

وهكذا تكون جماعة الموحدين قد تجددت بتجدد الإمارة من ملكية خاصة إلى إمبراطورية عامة، حيث أصبح أبو يعقوب يوسف «خليفة» و«أميراً للمؤمنين» فى جماعة الموحدين التى تحولت إلى الدولة المؤمنية. وإذا كان يوسف قد حمل رسمياً لقب أمير المؤمنين الخلافى، فإنه فى بعض الرسائل الرسمية التى صدرت من ديوانه، كان يخطر والده الخليفة عبد المؤمن من كتاب الديوان بألقاب المملكة المعروفة منذ خلافة بغداد، من: المنصور، والناصر (والمستنصر)[١]، والتى سيبدأ استخدامها ألقابا رسمية إعتباراً من أبى يوسف يعقوب «المنصور».

(١) انظر رسائل موحدية، بروفنسال، الرسالة ٢٦ المؤرخة ٥٧٦هـ ص١٥١ .

﴿ ٣ ﴾

الأندلس موضع إهتمام الخلافة الموحدية على عهد أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن

بنهاية العهد الأميرى أو الملكى الذى عرفته الدولة الموحدية سنة ٥٦٣هـ/١١٦٧م، وتقلد أبى يعقوب يوسف لقب الخليفة: أمير المؤمنين (الأمبراطورى)، بدأ اهتمام الدولة الموحدية بصفة خاصة بشئون الأندلس التى أصبحت فعلاً مركز الثقل فى الدولة المراكشية التى انصبغت بالصبغة الأندلسية، فأصبحت أسبانية- مغربية الطابع، كما تعرف فى مصطلح البحث التاريخى الحديث (Hispano-Maurseque). وهذا ما يظهر فى تسمية أهم مصادر تلك الفترة من تاريخ المغرب العربى، ألا وهو كتاب: البيان المُغْرب فى تلخيص أخبار الأندلس والمغرب، حيث الاعتماد شبه الكامل على مصدرين أساسين هما: المن بالإمامة لابن صاحب الصلاة، ونظم الجمان لابن القطان- الأندلسيين. كما يظهر ذلك بشكل واضح فى إعتماد هذين المصدرين على الرسائل الرسمية الصادرة من حاضرة الخلافة مراكش، أو من حواضر الأندلس: أشبيلية، وقرطبة، وغرناطة، والمسطّرة بأقلام كتاب من الأندلسيين فى أغلبيتهم- الأمر الذى صبغ حضارة المغرب فى ذلك العصر الموحدى بالصبغة الأسبانية.

والحقيقة أن اهتمام الموحدين بالأندلس بعد المرابطين، كان قد أصبح حتمية تاريخية، منذ أن دخلت الأندلس تحت الحماية المرابطية، حيث أصبحت عملية الإنقاذ أمانة فى عنق المغاربة، منذ تمدد الإسترداد جنوباً عند موقع الزلاقة، غير بعيد عن حدود وادى آنة قرب بطليوس. وإذا كان الموحدون قد بسطوا نفوذهم على معظم أراضى الأندلس الإسلامية، فإن تهديد «الاسترداد» كان سيفاً مسلطاً فى شرق الأندلس أو فى الغرب،

وخاصة بعد ظهور مملكة البرتغال، كما كان المرابطون مازالوا متشبثين بالجزر الشرقية المعروفة بجزر ميورقة (البليار حاليا)، والتي كانت تمثل قوة قرصنة بحرية رهيبة، لها مكانتها الدولية في الحوض الغربي للبحر المتوسط، في كل من جزر: ميورقة (الكبرى) ومينورقة (الصغرى) إلى جانب يابسة (Ibiza) وفورمنتيرا (إلى جانب كبريرا: Cabrera وكونجيرا: Conjera حاليا).

النظر في جزيرة الأندلس:

وهكذا كانت رموز دولة يوسف بن عبد المؤمن المستجدة، من: إمرة «المؤمنين» (من الموحدين) إلى علامة «الحمدله»: رسم الرسائل، ومن ثم السيف المثنى السنان (رمز ثنوية العدوتين!)، وكلها علامات فارقة بالنسبة لعهد يوسف والأندلس. وهذا ما يقول به ابن صاحب الصلاة عندما ينص بعد إتصال الغبطة بالبيعة الرضوانية والأمان، قائلاً: وإبتدأ أمير المؤمنين- رضه- بالنظر لجزيرة الأندلس في بعث السيد الأسنى أبي إسحق (إبراهيم) أخيه إلى قرطبة...، بعكسر ضخم من الموحدين لحمايتها من المحاربين وأصحابهم الكفار، مع المقارنة بين بعث السيد أبي إسحق هذا، إلى الأندلس وبين ما «فعله أبو بكر الصديق حين يبعث يزيد بن أبي سفيان إلى الشام».[١]

وبطبيعة الحال لم يكن هناك إجراء أفضل من مخاطبة شيخ الدولة العتيد: أبي عبد الله إبن أبي إبراهيم، في شأن الجهاد بالأندلس (في جمادي الآخر ٥٦٣هـ/أبريل١١٦٨م). والمهم هنا، هو ان ابن صاحب الصلاة يوثق روايته هذه، بالرسالة الموثقة بدورها بالعلامة الرسمية «الحمد لله وحده»، والموجهة من أمير المؤمنين (يوسف) بن أمير المؤمنين (عبد

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٣٥٣-٣٥٤- وحيث قال: «بعد ما تقدم من الخبر (إمارة المؤمنين، وما تلاها من الإنعام بالبركات) إتفق الرأى المبارك على النظر السعيد، والإهتبال الحميد، إلى جزيرة الأندلس، بصرف عنان الغزو إلى أعدائها، على قربهم وبُعدهم عن أرجائها.

المؤمن) إلى الحافظ أبى عبد الله محمد أبى إبراهيم والموحدين الذين بغرناطة. والمهم فى رسالة التكليف هنا: أنها توصى المسئول (المخاطب) «بالشقة بأن الله ناصر هذا الأمر العزيز، وإنجاز ما وعده من الإستيلاء على الأدنى والأبعد، وأن أمر تلكم الجزيرة (الأندلسية)- مهدها الله- لمن آكد ما يوجه إليه نظرنا... لمصاقبة الأعداء: الروميين (الأسبان) والمجسمين (المرابطين) لبلاد الموحدين بها، وإلحاحهم علي جنباتها! وهو يعرفه بإرسال أخيه السيد أبى إسحق (إبراهيم) بعسكر من الموحدين والعرب إلى قرطبة، وأنه عليه مؤازرتهم على الجهاد، وحماية البلاد».

وهو يطلب من طلبة أشبيلية أن يعطوا أهل غرناطة من الرواتب مثلما يعطون أهل قرطبة، وأن يستمروا فى النظر فى الآلات والأسلحة التى يحتاجونها للقصبة (حصن حامية المدينة).

وقعة جبل وادى آش:

والمهم أنه فى هذا الوقت كانت تصل هذه الرسالة (المحررة فى ٢٢ جمادى الثانى ٥٦٣هـ/١٩ أبريل١١٦٨م) إلى الشيخ أبى إبراهيم فى غرناطة، كانت حملة ذميمة من خيل جرانده (فرسان جيرالدو الجليقى، حليف ابن مردنيش) قد خرجت من مدينة وادى آش مع حلفائهم أهل الحرابة (الخوارج) الأندلسيين، فأفسدوا فى المنطقة، واجتاحوا بسائط رُنْدَة (البعيدة جنوباً بغرب)، واكتسحوا ما فيها من الماشية، من الغنم والبقر، ومن الدواب والمتاع.

وعندما وصلت أخبار تلك الحملة إلى الشيخ الحافظ أبى عبد الله بغرناطة، إتخذ الإجراءات المناسبة لردعهم، فبعث جريدة (جملة)مباركة من عسكر غرناطة من الموحدين، والجند الأندلسيين، مع الرماة من الرجالة، والتقت حملة غرناطة بالأشقياء المخربين، أهل الحرابة، وهم ينصرفون بالمغانم من موضع بين نظر كل من وادى آش وغرناطة، فلجأوا إلى بعض الجبال الشاهقة. والمهم أن الجبل لم يقف حائلاً أمام- مصامدة الجبال أصلاً- الموحدين، فقد حملوا على الأعداء حملة صادقة بدأت وقت

صلاة الظهر، واستمروا يزعجونهم فى أطراف الجبل، فلم يأت وقت العصر إلا وقد تشتتوا فى أنحاء الجبل ما بين فار بنفسه، ومتردٍ من حافاته، «وقد تكسّرت أعضاؤهم وتمزقت أجسادهم».

وهكذا انتهت معركة جبل وادى آش بأن فتك الموحدون من عسكر غرناطة بالأعداء المحاربين، وحازوا أسلابهم ودوابهم، وأسروا من أعلاج النصارى ٥٣ (ثلاثة وخمسين) علجاً، إستاقوهم مع جملة نظام الأخماس، وكان انتصاراً جسيماً أضيف إلى انتصارات الشيخ أبى عبد الله، الذى عَرّف الخلافة بهذا الفتح، وتسلم الردّ المناسب، إعترافاً بجده واجتهاده فى ردع «المجرمين»، ويشرى بظهور الموحدين خصومهم المحاربين.(١)

حصار حصن طبيرة (Tavira) :

فى إطار حوليات ابن صاحب الصلاة الموحدية تعتبر سنة ٥٦٣هـ/١١٦٨م من سنوات الأحداث الجليلة فى الأندلس على المستويين السياسى والعسكرى، فإلي جانب أحداث المشرق مما سبقت الإشارة إليه فى غرناطة، كان للموحدين نشاطهم فى مكافحة اعتداءات مملكة البرتغال الناشئة فى الغرب (Algarve). وتمثل ذلك فيما قاموا به من حصار حصن طبيرة البحرى (جنوب شرق شلب) الذى كان موضع إمارة طوائف برية بحرية جديدة (أشبه بإمارة ميورقة فى الشرق Levante). تلك الدويلة قامت على أنقاض دويلات المريدين فى ذلك الصقع الغربى من الأندلس.

والنص الذى يرجع أصلاً إلى «كتاب المريدين» لابن صاحب الصلاة

---

(١) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٣٥٧-٣٥٩ وتاريخ الرسالة ٣ رمضان سنة ٥٦٣هـ/ ١١ يونيه ١١٦٨م، وقارن إبن عذارى، الموحدون (هويشى)، ص٧٦. وفى ذلك قال إبن حربون:

أليس من الآيات أن بدت فى واد وقيصر قد أمسا لأمرك خادما

هذا ، كما يضيف إبن عذارى: أن الأمير يوسف إستدعى العرب وخاطبهم برسالة فى قصيدة يحرضهم على الجهاد ، ويستدعيهم إلى الغزو. هذا ، ولا نعرف إن كان ذلك من أجل غزوة سنة ٥٦٣هـ/١١٦٨م هذه أم غيرها.

أيضاً، يشير إلى أن الثائر هناك هو: عبد الله بن عبيد الذى يوصف بأنه «الغادر»، والذى إستقر فى طبيرة، منذ سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م، وهو يمارس أعمال قطع الطريق فى البر، والقرصنة فى البحر، مما قد يعنى فرض الضرائب والإتاوات على الرفقة من التجار فى القوافل البرية والمراكب البحرية. هذا، ولقد حاول يوسف عندما كان والياً لأشبيلية أن ينازلها مرتين دون جدوى.[(١)]

والمهم أنه كان على الموحدين لكى ينالوا غرضهم من حصار طبيرة أن يلجأوا إلى السكن فى حصن قسطلة (Cacetla) فى شمالها الغربى على المحيط، من حيث كان الخروج بعسكرهم «يضربون عليها ليلاً ونهاراً، وينالون من أعدائهم كل ساعة نيلاً». وأمام تضييق الحصار بالقتال دون هوادة إنتهى الأمر بسقوط طبيرة بين أيدى الموحدين، فى أواخر شهر ذى القعدة سنة ٥٦٣هـ/أوائل سبتمبر ١١٦٨م.

وهكذا تنتهى الرواية بأنها إذا كانت قد عصيت على يوسف من قبل مرتين، فقد إنتهى الأمربأن «فتحها الله له فى خلافته بسعده ويمنه».[(٢)]

أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن
ملك الملوك فى أيبيريا

والظاهر أن سنة ٥٦٣هـ/١١٦٨م، سنة استقرار عرش الخلافة بالنسبة إلى أبى يعقوب كانت سنة «السعد» فعلا بالنسبة لخلافة الموحدين التى أصبحت وكأنها قيصرية أو إمبراطورية أيبيرية بشطريها الإسلامى والمسيحى- الأمر الذى يذكر بعهد الناصر المروانى أو المنصور العامرى.

---

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة ص ٣٦٧ - ٣٦٨

(٢) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٣٦٨- حيث: بعدما كان أبعاد النجعة فى نيلها، واليأس من إصلاحها، فيسرها الله بيمن أمير المؤمنين (يوسف)... (الذى سُرّ بإرتفاع شغبها، وإنقطاع نفاقها الطائل فى السنين ونوبها- وقد شرحت حالها ومن نافق وإحتلها فى «تاريخ المريدين»؛ وقارن إبن عذارى الموحدون (هويثى)، ص٧٧.

هكذا يمكن النظر إلى صورة العاهل الموحدى فى سنة ٥٦٣هـ/١١٦٨م- وإن كان بشئ من اتساع الأفق والخيال، أساس إكتشاف الحقائق المستجدة.

فالمعروف أن قيام دولة البرتغال كان توسعها الأقليمى على حساب الأراضى الإسلامية، كما كان الحال بالنسبة لتوسع قشتالة أو أراجون. ومن الصحيح أيضاً أن تلك الدول الأسبانية المسيحية كانت تتنافس فيما بينها على الاسترداد، حتى انتهى الأمر إلى تقرير ما يمكن أن يسمى «بالقواعد المنظمة» لذلك الإسترداد، تبعاً للإعتبارات الإقليمية، إلى جانب القوى السياسية والعسكرية، وكذلك الاعتبارات الدولية والدينية، وخاصة مع البابوية.

وإذا كانت عملية الإنقاذ المرابطية قد فشلت فى استرداد طليطلة[1]، بينما لم تكن عملية التجديد والإحلال الموحدية قد تمّ إنجازها بعد، أتت سنة ٥٦٣هـ/١١٦٨م، لا لتؤكد إستقرار عرش أمير المؤمنين فى الأندلس الإسلامية فقط، بل وفى أسبانيا المسيحية أيضاً.

والحقيقة أن أسبانيا المسيحية كانت تعانى مما يشبه نظام الطوائف الإسلامية ألا وهو النظام الإقطاعى السائد فى أوروبا العصور الوسطى، حيث التنافس بين الملوك وأمراء الإقطاع، والتحالفات ضد بعضهم البعض- فى غياب قيصر أو الأمبراطور- إلى جانب ما يمكن أن يسمى بنمو الروح الوطنية الأسبانية فى الجانبين الإسلامى والمسيحى، بشارة إطلالة العصور الحديثة، وهو الأمر الذى سمح فعلاً بظهور طوائف أندلسية أسبانية يمكن أن تمثل هامش ربط بين المسيحيين والمسلمين. وذلك ما ظهر فى نموذج السيد (El-Cid) فى شرق الأندلس، ومن ثم الربرتير

(١) انظر للمؤلف: عملية الإنقاذ المرابطى فى الأندلس، بين ملوك الطوائف وجماعات الشعب العامل على عهد يوسف بن تاشفين (٤٧٨هـ/١٠٨٥-٤٩٨هـ/١١٠٤م، ندوة الأندلس: الدرس والتاريخ، من منشورات كلية الآداب جامعة الإسكندرية، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ص٢٠٥-٢٤٥.

لدى المرابطين، ومن ثم نموذج ابن مردنيش وابن هَمُشك لدى الموحدين. ومثل هؤلاء من ذوى الهوية المزدوجة كانوا يمثلون فى مجتمعات الأندلس الإسبانية نوعاً من عامل الربط بين المجتمعين المتنافسين، رغم أعمالهم السلبية فى كثير من الأحيان.

أحد أمراء قشتالة: فرنانده رايس
لاجئاً سياسياً لدى الموحدين

والأمر الغريب حقاً فى هذا المقام أن نفس سنة ٥٦٣هـ/١١٦٨م، سنة «السعد» بالتسمية «بأمير المؤمنين» بالنسبة ليوسف، أنه وجد نفسه فوق ذلك، وكأنه إمبراطور الجزيرة الايبيرية أو قيصرها، وهو ما فعله بعض الملوك الأسبان مثل الفونس المحارب (الاراجونى)، أو الفونس السابع المعروف لدى العرب بالسليطين بمعنى الشاب أو الصغير.

ففى سنة ٥٦٣هـ/١١٦٨م وصل إلى مدينة أشبيلية وهى النيابة السلطانية للعاصمة مراكش، أحد أمراء قشتالة الإقطاعيين الكبار، وهو فرناندة رايس أو فرنانُدُ رودريكيز (Fernando Rodroques) صاحب مدينة ترجالة (Tregilio) العاصمة الواقعة فى غرب طليطلة، شمالاً بشرق. ويصف ابن صاحب الصلاة فرنانده رايس هذا، بأنه شهير النسب والشهامة. والصحيح أنه أحد كبار فرسان أسرة آل كاسترو العريقة. فهو يمت بالنسب والمصاهرة لصاحب طليطلة الفونس السابع الملقب بالإمبراطور (السليطين المتوفى فى رجب سنة ٥٥٢هـ/أغسطس١١٥٧م).

والمهم أنه لما انتكست أسرته الكبيرة أمام الأسرة الإقطاعية المنافسة: أسرة آل لارا والتى آلت إليها خدمة الملك الطفل الفونس (الثامن)، لم يكن أمام فرنانده رايس إلا اللجوء إلى كنف أمير المؤمنين يوسف بصفته كبير الجزيرة وحكمها.

والمعروف تاريخياً أن فرنانده وصل أشبيلية فى شهر رمضان سنة ٥٦٣هـ/مايه ١١٦٨م، وبصحبته إخوته، وهو يعلن الطاعة للخليفة

الموحدى يوسف بن عبد المؤمن، الأمر الذى يعنى خروجه على الملك القشتالى صاحب طليطلة، وعلى المدير لقصره من آل لارا- رموز الاسترداد.

ومن أشبيلية تمّ الاتصال بالحضرة مراكش، والاستئذان فى قدوم الأمير القشتالى ليؤدى فروض الطاعة والولاء، وإعلان الدخول فى خدمة الموحدين. وفعلاً سار فرنانده رودريجيز، وفى صحبته إخوته وأتباعه إلى مراكش حيث استقبلهم الخليفة أبو يعقوب يوسف بما يليق بأمثالهم من التكريم. ومن الغريب أيضاً أننا نفتقد ما يفيد عن موضوع الزيارة، إكتفاء بالقول أن الزعيم القشتالى «أقام فى الحضرة العلية ٥ (خمسة) أشهر تحت إحسان الأمر العالى، وامتنانٍ وعطاء جزيل، وإسكان كفيل».

وإذا كانت الرواية تعبر عن نجاح زيارة الضيف القشتالى للحضرة مراكش حتى كادت تلك الزيارة تنتهى بدخوله فى الإسلام، فإنها تنص فى النهاية على ما تم الإتفاق عليه مع القشتالى الذى «عاهد الله فى نصح الأمر بالخدمة المجدة، واستسلم وضمن عن نفسه ثغور بلاد الموحدين، وأن يكون رد ءاً لهم، حليفاً للمسلمين». وهكذا انتهت زيارة صاحب ترجالة القشتالى بأن «إنصرف تحت هذا الإحسان والصلح التام ومنه الأيمان، وأمر له الأمر العالى- أدامه الله وخلّده- بمواساته ومواساة إخوته وأصحابه مع الموحدين فى كل شهر، فكان ذلك». ومعنى ذلك إثبات فرنانده فى ديوان العطاء، وصرف البركة (الراتب) فى كل شهر لهم مع أصناف الموحدين، على أنهم فى الخدمة كبقية عمّال الدولة وعملائها- وإن كانوا من المعاهدين.(١)

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٣٦٨-٣٦٩؛ وقارن إبن عذارى، الموحدون (هويثى) ص٧٨- حيث النص على أن الخليفة «أمر بإثبات أخوته وأصحابه مع الموحدين، فى كل شهر فكان كذلك. وانظر أشباخ (يوسف)، المرابطون والموحدون، ترجمة عنان، ج٢، ص٢٤-٢٥، حيث الصراع فى قشتالة بين آل لارا وآل كاسترو إنتهى بإنتصار آل لارا الذين استولوا على طليطلة، ونادوا بالملك الطفل الفونسو (١١سنة). وأمام استئثار آل لارا السلطان اضطر آل كاسترو إلى الخروج إلى أراضى المسلمين. وهنا يقول أشباخ أن الفارين من آل كاسترو، وعلى رأسهم =

ملك ليون: فرنانده الببوج يطلب الهدنة والحلف من الموحدين

لما كان آل كاسترو المهزومين فى طليطلة، حلفاء أصلاً لمملكة ليون، لم يكن من المستغرب أن يحذو حذوهم فى التقرب من الموحدين، فرنانده الثانى المعروف بالببوج (كثير اللعاب)، وهو ابن الفونسو السلطين ملك قشتالة أصلاً. والببوج مشهور أيضاً بأنه صاحب مدينة السُّبَطاط (التى إبتناها لنفسه)، وهى التى تعرف فى ليون بمدينة رودريجو، وهى تقع شرقى قلمرية (Coïmbra) عاصمة البرتغال وغربى أبله- التى يعرف بأنه صاحبها أيضاً إلى جانب السُّبَطاط.[١]

وواضح أن الببوج لم يأت بشخصه، بل أنه أفصح عن رغبته فى الصلح والمهادنة بالمراسلة، ولا بأس أن كان ذلك عنَ طريق فرنانده رايس وآل كاسترو، وبنفس طريقة تدوين أسمائهم فى ديوان العطاء كجند مرتزقة. والنص يعبّر عن أن الببوج طلب بدوره الصلح والمهادنة، وأن يكون مع الموحدين، وعوناً لهم على أعدائهم. كما أخبر أن بينه خلافاً وبين القمط نونيه بيريز دى لارا، الوصى على عرش ملك قشتالة الطفل الفونسو.

والمهم أن الببوج عرف بالفتنة التى تعانى منها قشتالة حول الوصية على العرش، وأكد رغبته بناء على الصلح، فى أن يبعث إليه بعسكر من الموحدين إلى مدينة السّبطاط، «ليقاتل بهم نونْيهُ القمط المنازع له عن إبن أخيه فى بلاده. وفعلاً أمر أمير المؤمنين أبو يعقوب يوسف بمسير

= فردينان روير (رايس) =علقوا على تحريض الموحدين على غزو قشتالة، وان إنتهى الأمر بأن نجحوا فى إقناع فردينان ملك ليون بأن يؤويهم فى مملكته. هذا ولقد نجح فردينان رايس فى العودة إلى قشتالة بعد أن حقق حزبه إنتصاراً كبيراً فى سنة ١١٧٤م/٧-٥٦٩هـ على خصومه. وكان ذلك إيذانا بوصول آل كاسترو إلى ذروة الحظوة عند فريدنان ملك ليون. ومن ثمّ ساد الهدوء بين الاسرتين المتنازعتين (كاسترو، لارا) بالحلف والمعاهدة، وبقى فردينان رويز (فرنانده رايس) فى الحكم إلى أن توفى سنة ١١٨٥م/٨١-٥٨٠هـ.

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص.٢٢ وهـ١ (عن هويثى). وانظر عنان، المرابطون والموحدون ج٢ ص٣١ .

عسكر أشبيلية من أجل تحقيق هذا الهدف، وأمّر على تلك الحملة كلاً من الشيخ أبى العلاء بن عزون، والحافظ أبى على بن تمصيلت، والحافظ أبى عمران موسى بن حمّو.

وفعلاً وصلت القوة الموحدية إلى منطقة السُّبْطاط ما بين نهر دويره شمالاً ونهر قلمرية غرباً. وقاتل الموحدون أعداء الببوج ببلاد قشتيلية، وصعدوا فى حملتهم: «ووصلوا إلى أقصى نظرة ببلدة اشتوريش (شمال ليون علي بحر الانقليشيين).

وتنص الرواية هنا على أن الموحدين غزوا من حاربه، وسالموا من سالمه، وأنهم أقاموا عنده فى تلك الغزوة ٥ (خمسة) أشهر، ثم انصرفوا عنه سالمين. وهكذا تكون حملة السُّبْطاط قد حققت أهدافها، وأن الببوج اغتبط بنصرهم، وارتبط للصلح الذى ربطه بأمرهم. وبذلك تم الاتفاق بين الطرفين علي المعاملة بالمثل، «ومتى سمع (الموحدون) بعدو من النصارى يطرق بلاد أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بغدر أو مكر أن يكون لذلك العدو معهم دافعاً، وحامياً لحماهم مانعاً، ويظهر من البدار ما يحوز به فى ملّته الوفاء فى مذاكرة الأخيار، فأجاب إلى ذلك». وتأكد العهد و«حلف فى بيعة بلده وبالإيمان عن دينه هنالك، فوفىّ بما عاهد، وربط بأيمانه ولسانه».

وبذلك تمّ العقد، وسار الببوج مع القوى الموحدية إلى مدينة بطليوس، وقاتل معهم صهره إبن الرنك (ملك البرتغال) حين تملكها بغدر جرانده اللعين، وهزمه فى داخلها، وأخرجه منها حسب ما يذكر بعد هذا- وكان فعله لطفا من الله تعالى.[١]

سياسة الموحدين فى الأندلس ما بين الحرب والحلف :

بلجوء فرنانده رايس (القشتالى)، ومن بعده فرنانده الببوج (الليونى)

---

(١) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٣٧٠-٣٧٢، وقارن إبن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص٧٨ .

إلى الموحدين، ومن ثم تدخل الموحدون عسكرياً إلى جانب قوات ليون فى نهدين من بلادهم شمالاً حتى إشتوريش (على خليج بسكاى) كان يعنى انغماس الموحدين فى الفتنة القائمة بين ممالك الاسترداد المسيحية، الأمر الذى كان يعنى المزيد من الأعباء بالنسبة لبلاد المسلمين الأندلسية. وهذا ما ظهر فى ردود الفعل العنيفة من قبل حركة الاسترداد البرتغالية جنوباً فى «الغرب»- مصدر الخطر الحقيقى فى ذلك الحين.

وإذا كان الموحدون قد إستعادوا أخيراً طبيرة على المحيط من بين يدى بعض المغامرين المسالمين، فلا ندرى إن كان اقتلاع أمراء الطوائف المحليين من حصونهم كان فى مصلحة الدفاع عن تلك المواضع الإسلامية أم لا. فالحقيقة أن الخطر البرتغالى كان داهما فى الفترة من سنة ٥٦٠هـ/ ١١٦٥م، وقت أن كانت الثورة فى غمارة تثير المتاعب لمراكش، وحتى سنة ٥٦٣هـ/١١٦٨م، عام استقرار الأمور بالنسبة للخليفة أمير المؤمنين يوسف.

والحقيقة أن إبن الرنك ملك البرتغال (الفونس هنريكيز) كان، وبمساعدة بعض الناشطين من أعوانه مثل القائد جرانده (جيرالدوسمبادور) الذى يصفه المسلمون بالكلب الغادر، يمثل خطراً داهماً بالنسبة للمسلمين. وهكذا تسجل حوليات ابن صاحب الصلاة سلسلة من أعمال الغدر هذه، إعتباراً من أواخر سنة ٥٥٧هـ/ أواخر سنة ١١٦٢م، حيث كان نصارى شنترين يغدرون مدينة باجة، ويهدمونها بعد أن سكنوها عدة أشهر. ومثل هذا يقال عن غدر جرانده (الرهيب) مدينة ترجاله Trujello، فى جمادى الثانى سنة ٥٦٠هـ/أبريل١١٦٥م، وبعدها مدينة يابرة (Evora) فى ذى القعدة ٥٦٠هـ/سبتمبر ١١٦٥م وبيعها للنصاري، ثم قاصرش (Aceres) شمال بطليوس فى صفر ٥٦١هـ/سبتمبر١١٦٥م ثم حصن منتانجس (Montanchez) جنوب قاصرش وشمال بطليوس، ثم حصن جلمانية (Jurumenia) جنوب بطليوس. وهكذا إستطاع جرانده (جيرالدو) أن

يحاصر بطليوس بتلك الحصون، ويفاتنها، ويؤذى المسلمين فيها.[١]

وواضح أن تحالف الموحدين مع ملك ليون (الببوج) والحملة العسكرية فى شمال قشتالة (سنة ٥٦٣هـ/١١٦٨م) والتى تبالغ الروايات فى مدى تقدمها حتى إشتوريش، فكأنها نزهة عسكرية، كانت ترفع من شأن الموحدين فى كل أيبيريا، وخليفتهم أمير المؤمنين يوسف، وهكذا تنص الرواية على سيادة الأمن والرخاء، الأمر الذى يعزز فكرة الإعداد للحملات العسكرية البعيدة المدى، وخاصة فى الأندلس- همّ الخلافة الموحدية.

ما بين حملة الأندلس واضطراب أهل الجبال فى العدوة وفى جبل تاسررت

وإذ فسّرت رواية ابن صاحب الصلاة الإعداد لغزو الأندلس بأنه كان تأثراً وغيرة لله تعالى: إشفاقاً على المسلمين، ودفاعا عن الدين، فلا شك أن عذر المدن والحصون- وخاصة فى الغرب الأندلسى (قبل سنة ٥٦٣هـ/١١٦٨م- مما سبق)، الأمر الذى كان يؤدى إلى تطويق بطليوس (أرض الزلاقة) كان من الأسباب الأساسية لتلك الغيرة، وذلك الإشفاق.

هذا، كما أن ما تشير إليه الرواية فى تلك السنة (سنة ٥٦٣هـ، وهى سنة الهدوء والتهدين، عن اضطرابات وقعت فى جبل يُسمى تاسررت[١]،

---

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٣٧٣-٣٧٤؛ وقارن إبن عذارى، الموحدون(هويثى)، ص٧٨-٧٩. أما عن أسلوب غدر جرانده وهو الساعد الأيمن لإبن الرنك البرتغالى فى مهاجمة تلك الحصون فتتلخص فى التسلل ليلاً فى الليالى المطرة الحالكة والمظلمة الشديدة الريح والثلج إلى البلاد (الإسلامية)، وقد أعد آلات من السلالم من أطول العيدان تعلو سور المدينة التى يؤم ويروم. فإذا نام السامر المسلم فى برج المدينة ألقى تلك السلالم إلى جانب البرج، ورقى بنفسه عليها أولاً إلى البرج، وتقبضّ على السامر، وقال له: «تكلم على ما كانت عادتك ليلاً (حتى) يتشعر الناس به. فإذا استوفى طلوع جملته الذميمة فى أعلى السور، صاحوا بلغاتهم صيحات عظيمة منكرة، ودخلوا المدينة، وقتلوا من وجدوه وإستلبوه، وأخذوا كل ما فيها سبياً وفيئا.

والذى ترجح الأخبار فى سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م التالية أنه من جبال العدوة، فكأن المقصود بذلك جبال سبتة، وأن ثوراته من توابع ثورة بلاد غمارة السابقة، حيث النص على أنه «فى أولها (سنة ٥٦٤هـ) هدأت الفتن فى العدوة، وصلحت البلدان، وارتفعت الحروب... وانقطعت فتنة الضلال من الجهال أهل الجبال، فتابوا وأنابوا، ودُعوا للجهاد فأجابوا، وعاينوا الآيات بنصره المبين». وهكذا تشير رواية ابن صاحب الصلاة الأصلية، إلى العلاقة الجدلية، كما يقال- بين أحداث المغرب الموحدى، ووقائع الأندلس على عهد يوسف.

حملة الأندلس سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م :

فى ضوء ما سبق من أحداث التدخل الموحدى فى الأندلس، لا بأس من الإشارة، إلى جانب تهدين الجبال ودعوة أهلها من الثوار إلى الجهاد فى الأندلس، إلى ما جدّ من التحالف مع الأسبان المسيحيين، وما تحقق بمؤازرتهم من غارات بعيدة تذكر بحملات الناصر المروانى والمنصور العامرى- فكأن الفتوحات الإسلامية فى حالة تجدد وانبعاث.

هكذا فكر أمير المؤمنين أبو يعقوب يوسف فى تهدين الأندلس، وفرض النظام الموحدى نظام: «عهد الخلفاء الراشدين المهديين». وفى ضوء فكرة التجدد الإسلامى هذه، أخذ فى إعداد «عسكر مبارك شهم إختاره من الموحدين»، وبعد العرض والتمييز، عهد بالقيادة إلى شيخ الدولة «الأجل: أبو حفص عمر بن يحيى» الهنتاتى، الذى كان عليه أن يسير إلى قرطبة لحماية الأندلس، وذلك كمقدمة للجيش الموحدى الأكبر، الذى يقوده «الخليفة» نفسه، والذى كان يقع على عاتقه إقرار النظام، بترويع المنافقين والكافرين، وتنغيص لذات عيشهم أسوأ عيش.[٢]

---

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٣٦٠ .

(٢) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٣٧٥، وبهذه المناسبة أرسل ديوان الرسائل (الانشاء) من مراكش، إلى أهل الأندلس رسالة يخبرهم فيها بتلك البشرى الكريمة، وذلك بتاريخ ربيع الآخر سنة ٥٦٤هـ/ابريل١١٦٩م.

هذا، ويستكمل ابن صاحب الصلاة روايته التى تهتم بالتفصيلات الدقيقة، أكثر من اهتمامها بالأحداث الخطيرة- فكأنها المذكرات الشخصية التى تهتم بالأحداث اليومية، وهى من هذا الوجه تشبه ذلك النوع المبكر من التاريخ الإسلامى المعروف بالأيام، والذى نبغ فيه الواقدى- فيروى قصة شاهد البيان للأحداث، وهو الزعيم الأندلسى (الغربى)، من رؤساء المريدين (ج٥)، والتى توضح أن السبب فى تعجيل حركة أبى حفص من مراكش إلى الأندلس، هو نجاح القائد الجليقى جرانده (جيرالده سيمبادور) بغدر بطليوس التى كان سقوطها بيد الأسبان المسيحيين يعنى السيطرة على المنطقة المعروفة محلياً باسم الميتيخو (Almetejo) والتى أصبحت من أملاك ابن الرنك (الفونس إنريكيز)، صاحب قلمرِية (Coimbre): عاصمة البرتغال وقتئذ.

والمهم أنه إذا كان الأعداء الأسبان قد نجحوا فى غدر بطليوس المدينة فى شهر ربيع الآخر٥٦٤هـ/مارس ١١٦٩م، فإن القصبة (القلعة) التى أحاطوا بها ظلت صامدة بقيادة الحافظ أبى على عمر بن تمصيلت. وعندما وصل هذا النبأ إلى مراكش انزعج الخليفة أبو يعقوب يوسف، وأمر بالحشد، فضربت الطبول، وخرج بنفسه إلى ضفة وادى (نهر) تنسيفت (القريب من مراكش)، حيث أمر بالتجمع وهو يعلن قرار المسير بنفسه. وبطبيعة الحال كان الهدف من ذلك هو التحريض على الإسراع فى تلبية نداء الجهاد فى الأندلس. وعندما تم اجتماع عسكر مناسب، تقرر أن يكون مقدمة للجيش الكبير الذى يعد بعدئذ، ويكون أمير المؤمنين يوسف على رأسه فى أسرع وقت. واجتمع رأى الموحدين على أن يتقدم الشيخ أبو حفص الهنتاتى على رأس تلك المقدمة، وذلك فى شهر رجب٥٦٤هـ/أبريل١١٦٩م- وذلك خلال شهر واحد فقط.[١]

(١) انظر صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٢٧٥- حيث غدر بطليوس فى رجب ٥٦٤هـ/ابريل١١٦٩م، ومسير الشيخ أبى حفص لنجدتها فى ربيع الآخر ٥٦٤هـ/مارس١١٦٩م. والذى نراه أن الأوفق تقديم ربيع على رجب إلا أن تكون سنة رجب هى ٥٦٣هـ/١١٦٨م، وليس ٥٦٤هـ- وهو ما لا نرجحه.

سياسة الحلف مع الإسبان وإنقاذ بطليوس :

وصل العسكر الموحدى إلى أشبيلية سالما، ومنها سار بقيادة أبى حفص الهنتاتى لغوث المسلمين فى الغرب، «ودفاع العدو الغادر ابن الرنك» صاحب قلمرية (ملك البرتغال) فى بطليوس، وفك حصار الموحدين فى داخل القصبة. وما أن اقترب الموحدون من منطقة بطليوس (المينتيخو) (Almetejo) حتى «وصل البشير معلماً بلطف الله وتأييده لهذا الأمر العزيز بأن فرنانده الببوج ابن اذفنش السليطين، صاحب مدينة السَّبْطاط وآبله (وليون وزاموره)، وصل بجمعه، وحفله من الخيل والرجل حامياً للمسلمين، دافعاً بصنفه الكافرين، عن مدينة بطليوس، طاعة منه إلى أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين».(١)

والظاهر أن المسألة كانت مفاجأة للموحدين فى بداية الأمر، ولكن الببوج لم يلبث أن طمأنهم، بأنه أتى معاوناً وحليفاً، دون أطماع شخصية. فهذا ما يظهر فى رواية ابن عذارى التى تضيف إلى رواية إبن صاحب الصلاة شهادة أخرى تقول: «وقيل أنه (الببوج) لما وصل إلى مقربة من بطليوس وجه منها رسوله إلى الحافظ أبى على عمر بن تيمصليت والمحصور بالقلعة مع الموحدين، وأهل المدينة الأندلسيين، يقول لهم: أثبتوا فإنى واصل... وانظروا فى معاونتى كيف أدخل إليكم». وهكذا نقب ابن تيمصليت باباً فى جهة خفية بالقصبة. وعندما تحقق الموحدون المحاصرون داخل القصبة من اشتباك قوات ليون مع قوات البرتغال، فتحوا ذلك النقب، وخرجوا منه ليفتحوا باب المدينة، ويدخلون منه العسكر الليونى الحليف. وبذلك تحولت ساحة بطليوس إلى ميدان قتال، وانضم الموحدون فى القصبة إلى أصدقائهم أصحاب فرنانده الببوج مرجحاً لكافة الحلفاء. وكانت الهزيمة على البرتغاليين الذين فروا هاربين.

---

(١) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٣٨٠، وانظر أيضاً إبن عذارى، الموحدون (هويثى) ص٨٠.

وفى دهشة الفرار أصيب ملك البرتغال فى باب المدينة بكسر بليغ فى فخذه فسقط مغشياً عليه، ورغم إنقاذ أصحابه له، إلا أنه وقع أسيراً بين أيدى رجال الببوج، الذى أطلقه بعد ذلك «برغبة النصارى له، وسرحه إلى بلاده مهزوماً ذميماً، ولم يركب بعد ذلك إلى أن هلك».

أما عن عميله جرانده الجليقى الموسوم بالغادر فقد فرّ إلى بلده.

وهكذا «فتح الله مدينة بطليوس... ووفى الببوج بما عاهد عليه... وكان خروج النصارى منها فى شعبان٥٦٤هـ/١١٦٩م. وبذلك اكتسب الموحدون حليفاً وفياً هو الببوج إبن السليطين. وقد ألقى الله بينه وبين ابن الرنك العداوة المتصلة، وأورثها الإخوة منهم والأبناء.(١)

وكانت إستعادة بطليوس بمثابة تمهيد لانتقال الشيخ أبى حفص بعسكره من الموحدين، من أشبيلية إلى قرطبة كسند للسيد أبى إسحق إبراهيم واليها، فى جهاده على إقرار الأمور بالقضاء علي تهديدات المحاربين فى

---

(١) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٣٨٢- حيث النص: «وفتح الله هذا الفتح الجسيم، وصرف بطليوس إلى الإسلام أحسن صرف... وفّى فرنانده الببوج لأمير المؤمنين بن أمير المؤمنين فيما عاهده عليه، وصدق فى أيمانه، ورأى بعد ذلك من الإحسان والإنعام جزاء حسن عهده ما لم يتخيله فى نفسه... حسب ما أذكره بعد فى موضعه: واسلم مدينة بطليوس للحافظ عمر بن تمصليت». وتضيف الرواية:أن الببوج رفض دخول القصبة دون إذن من أمير المؤمنين، وأنه فعل ما أوجبه العهد والود.

ومن أشبيلية أرسل الشيخ أبو حفص الهنتاتى إلى أمير المؤمنين يوسف: بوصف هذا الفتح الإلاهى. وفي ذلك الفتح قال أبو عمر بن حربون يمدح أمير المؤمنين (يوسف):

بيمن أمير المؤمنين رفعتم ... بعزّكم تلك الذرى والدعائما
وكيف رأى إبن الرنك مركب بغيه ... إذا اعتاض من دُهم الجياد الأداهما
وإنى لأرجو للجزيرة كرّة ... تعيد عليها عهدها المتقادما
بنو الملك المرهوب فى الأرض كلها ... ومن ملأ الدنيا لهُىً وملاحما
وهم ادبوا الهيجاء فالسيف قد غدا ... بهم ناثراً والرمح قد صار ناظما
ورثتم عن المهدى نوراً وحكمةً ... بها إختارك الرحمن للناس حاكما

المنطقة. وفى ذلك تقول الرواية أنه باستقرار الشيخ أبى حفص فى قرطبة زاد العاصمة العتيدة صلاحاً ونجاحاً، وروع قلوب أهل الحرابة هناك، وكان تهدين أمر قرطبة تمهيداً جيداً لدخول ابن همشك فى الشرق فى التوحيد صراحة وبشكل نهائى.

مشاغبات جرانده فى حصن جلمانية :

ولا يبق بعد ذلك إلا ما أنزله جرانده (جيرالدوسيبمافور) «اللعين» من الغدر بوالى بطليوس وقائدها أبو يحيى بن الشيخ أبى حفص. ففى أثناء إقامة أبى حفص الهنتاتى فى قرطبة صدر الأمر العالى بولاية إبنه الحافظ أبى يحيى بالولاية على بطليوس، مع العهد إليه بحفر بئر فى داخل القصبة يؤمن لها الإمداد بالماء فى الظروف الصعبة، الأمر الذى يزيد فى حصانتها، وهذه البئر التى تأتى بالماء من خارج السور هى التى كانت تعرف عند العامة بالقوراجة. والمهم أنه لما كان جرانده يسكن فى حصن جلمانية غير بعيد من بطليوس فقد استمرت الحرب معه، والتى «صبر فيها الحافظ الأسنى أبو يحيى وظهر... إلى أن تحيل العلج اللعين فى خدعة من الحرب صنعها وأوقعها».

فلقد أغار جرانده على بعض أطراف بطليوس، وعندما تبعه الحافظ أبو يحيى بأصحابه ورجاله فرّ أمامهم مذعوراً وكأنه يطلب النجاة، وهو فى الحقيقة يجرهم إلى الكمين الذى خرج عليهم، فكانت هزيمتهم بالمفاجأة، والمهم أن جرانده أسر عدد من أصحاب أبى يحيى (القواد). واضطر أبو يحيى أن يشترى فداءهم «من مال نفسه». ومن الطريف هنا ما ينص عليه ابن صاحب الصلاة من أن فداء قريبه- على ما نظن- وهو: على بن صاحب الصلاة بلغ ٣٠٠ دينار، إلى جانب إعطائه «كل ما سلب له من فرس وآلة». وبذلك نال الحافظ المغدور- فى ميدان القتال هذه المرة- شكر أمير المؤمنين يوسف «لجهاده واجتهاده»، ورغبة أصحابه وأجناده.

وبطبيعة الحال كانت هذه توطئة لصرفه عن بطليوس.[١]

وهكذا انتهت سياسة الحلف مع بعض ممالك الأسبان المسيحية، بانغماس الموحدين تماماً فى الفتنة الإيبيرية بعامة: ما بين الصراعات الداخلية فى الدويلات المسيحية، وحرب الاسترداد مع الأندلس الكلية. هذا ولو أن الشاعر بن حربون يخاطب أبا يعقوب يوسف في هذا الشأن قائلاً:

بسعدك أضحى الدين جذلان باسما   وباسمك أمسى الشرك للشرك هادماً

براهين صدق ما تزال ولم تزل   تشبّت يقظاناً وتوقظ نائما[٢]

أحوال الشرق الأندلسى ما بين إبن همشك وابن مردنيش

من العرض السابق لأحوال الموحدين فى الأندلس يتضح لنا أن أحوال الغرب (Algarve) تعنى أن نظام الطوائف كان قد اختفى هناك منذ ظهور المريدين، الذى هو أصلاً نظام الرباط والمرابطين من المجاهدين فى سبيل الله. هذا، ولابأس أيضاً أن كانت سيطرة المرابطين على الأندلس بعد الزلاقة من الأسباب الحاسمة فى القضاء على نظام الطوائف فى الغرب (الأندلسى). هذا، كما استكمل الموحدون القضاء على ذلك النظام فى نفس الغرب. وهو الأمر الطبيعى من حيث أن الدولة الموحدية كانت قد قامت تحت شعار التوحيد السياسى القائم بدوره على الوحدة المذهبية.

والحقيقة أن الحالة كانت أفضل فى شرق الأندلس عنها فى الغرب، حيث تحول النظام فى الشرق إلى نظام أسبانى إسلامى مشترك السمات، يرجع ظهوره إلى تاريخ الأندلس المبكر حيث كان ظهور عمر بن حفصون (ت ٣٠٥هـ/٩١٧م)، ومن ثم تطور على عهد السيد

---

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ٣٩٢-٣٩٤، وقارن تلخيص ابن عذارى، الموحدون (هويثى) ص٨٣.

(٢) انظر ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص٨٢.

(Ecid ج٤ ص٢٨٥) عــهــد الطوائف والمرابطين، ومن بعــد أخـذ شكل إستقرار على عهد الموحدين فى نظام ابن مردنيش وصهره ابن همشك، والذى أصبح ملك الشرق (شرق الأندلس). فكأن الموحدين اعترفوا بالأمر الواقع- وإن كان إلى حين، كما تقضى السياسة أو أصول المجابهة.

ولاشك أن تحالف الموحدين فى أول الأمر مع المريدين، كانت مرحلة انتهت بالتحالف مع ليون ضد البرتغال، الأمر الذى أوقف إسترداد البرتغال باسترجاع بطليوس، وهى السياسة التى ظل فى إنتهاجها أبو يعقوب يوسف حتى دفع حياته ثمناً لها فى شنترين سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م، كما يأتى.

والمهم هنا أن نجاح الموحدين فى استرجاع بطليوس من براثن البرتغال، بمعونة من ملك ليون يمثل مرحلة جديدة بالنسبة للعلاقة مع كل من أميرى شرق الأندلس المحليين: إبن مردنيش، وابن همشك، وكذلك الأمر بالنسبة لبنى غانية، أمراء المرابطين: ميورقة (جزر البليار).

فبعد استعادة بطليوس كان على الشيخ أبى حفص أن يخرج بقواته من أشبيلية إلى قرطبة لمعاونة السيد أبى إسحق إبراهيم، أخى الخليفة، فى جهاد المحاربين. وهكذا انغلقت أبواب «الغرب» أمام غارات إبن مردنيش وحليفه ونسيبه ابن همشك، ومن يتبعهما من الميليشيات المسيحية.

وفيما كان ابن همشك هو الطرف الأضعف فى ذلك التحالف، كان من الطبيعى أن يكون هو البادئ بالتقرب من الموحدين، وخاصة بعد أن أخذت أخلاق صهره ابن مردنيش تتحول من سئ إلى أسوأ.

وفى ذلك تقول الرواية التى ينقلها ابن صاحب الصلاة: أنه «عندما روّع الشيخ أبو حفص قلوب المحاربين المجاورين لقرطبة،... تجلّت لإبراهيم بن همشك فى هذه المدة من نور الهدى ما أسرج له مصباحاً، أبصر به التوحيد صراحاً». أما رواية ابن صاحب الصلاة نفسه، فتقول، إنه «ببركة هذا الأمر العزيز نشأت البغضاء بين ابن همشك، وصهره ابن

مردنيش سراً وإعلاناً، وخافه ابن همشك على نفسه فانقطع عن مواصلته وزيارته زمانا. وهو يؤكد بعد ذلك أن ما رُوّع منه وفزع، هو ما قام به (ابن مردنيش) من أعمال شيطانية ضد المقربين من أصحابه، مثل: وزيريه ابني الجّداع، والبناء عليهما برأي منه، وقتله لابن صاحب الصلاة الغرناطى بالجوع.

هذا وعندما استشعر ابن مردنيش الوحشة من جانب حميه ابن همشك ردّ عليه بدون رعاية، فطلق ابنته (زوجته هو)، وطردها إلى أبيها مهانة باكية، هذا كما هدده بالحرب. وعندئذ لم يكن أمام ابن همشك إلا الاستنجاد بالشيخ أبى حفص، فأرسل إليه بالتوحيد والتوبة، وإعلان الرغبة فى تمكين الموحدين من بلاده. هذا، وكرّر خطابه بالوصول بنفسه، والانتباذ من طاعة ابن مردنيش، وموالاة الكفار.

وفعلاً وصل ابن همشك إلى قرطبة حيث الشيخ أبو حفص، والسيّد أبو إسحق إبراهيم، وذلك فى شهر رمضان سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م. وعندما تمّ الاجتماع معه عاهد الله بالتزام الأمر العزيز المطاع، والدخول في حكم التوحيد. وتمت الكتابة إلى الخليفة أبى يعقوب، بمثابة رجاء العفو من الله، وحسن توبته.

وبعد جواب الأمر العالى بتقريبه: «إتصلت البلاد التى كانت بيده ببلاد الموحدين، فأمنت من الفتنة الطرقُ والرفاق (التجار). وتمّ نشر هذا الخبر السار فى كل البلاد.»[١] وكان من الطبيعى أن يثأر ابن مردنيش من ابن همشك فأمر قواده وأجناده أن يفاتنوا بلاد ابن همشك ويحاربوهم، ودامت الفتنة بينهما أكثر من سنة كاملة. وكان ابن همشك يستغيث بحلفائه الجدد الموحدين من عدوه ابن مردنيش، ويستنصرهم عليه.[٢]

(١) ابن صاحب الصلاة المن بالإمامة، ص٣٨٨-٣٩١، وقارن إبن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص٨٢.

(٢) ابن عذارى الموحدون (هويثى)، ص٨٢-٨٣، وانظر الأصل فى إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٣٩٤.

المسألة الأندلسية هى الشغل الشاغل لحكومة أبى يعقوب يوسف منذ سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م

وهكذا، وبعد أن زادت مسئوليات الحكومة الموحدية منذ حمل أبو يعقوب يوسف لقب أمير المؤمنين، بفضل تحالفات سنة ٥٦٣هـ/١١٦٨م، وما ترتب عليها من مهام فى «الغرب» (Algarve)، ومن ثم التحالف مع ابن همشك فى «الشرق (Levant) سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م، الأمر الذى زاد من ثقل المسألة الأندلسية التى لم تعد موضوع جهاد أو دفاع، بل قضية ضمّ أو استيعاب، كما يستشف من رواية عبد الواحد المراكشى.[١]

وبذلك كان على الخليفة أبى يعقوب أن يعيد دراسة المسألة الأندلسية فى سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م عن طريق الخبراء فى شئونها، من: الولاة الحفاظ والمشايخ القواد، وحسبما طرأ عليها من المستجدات. وبدأ ذلك بأن استدعى إلى الحضرة السيدان: أبو إبرَاهيم إسماعيل الوالى بأشبيلية، وأبو إسحق إبراهيم الوالى بقرطبة، كما استدعى معهما الشيخ الحافظ أبو عبد الله بن أبى إبراهيم الوالى بأغرناطة، وذلك مع حفّاظهم وعمال البلاد. وكان تحركهم فى جمادى الأولى سنة ٥٦٤هـ/ديسمبر١١٦٩م، وأقاموا فى الحضرة إلى أول عام ٥٦٥هـ/٢٥سبتمبر، حيث انصرف السيدان بصحبة أخيهما السيد أبى على الحسن كوال لسبتة (المجاز)، بينما أقام الحافظ الشيخ أبو عبد الله بن أبى إبراهيم بالحضرة مع بقاء غرناطة تحت حكمه وأمره، وعياله فيها حتى أجاز فى صحبة السيد الأعلى أبى حفص، مما سبقت الإشارة إليه.[٢]

---

(١) المعجب، ص٢٤٨- وذلك بمناسبة دخول بنى مردنيش فى طاعة الموحدين وعندما إستوثق الأمر ليوسف فى سنة ٥٦٧هـ/٧٢-١١٧١م- حيث النص على أنه بدأ ليوسف فى ذلك الوقت «أن يعبر إلى جزيرة الأندلس قصد غزو الروم ظاهراً، مبطنا إتمام تملك الجزيرة، والتغلب على ما فى يد محمد بن سعد بن مردنيش منها...».

(٢) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٣٩٤، وقارن إبن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص٨٣.

وفيما كانت الاستعدادات قائمة فى الحضرة من أجل عملية الإنقاذ الأندلسية، أتت الأقدار بما لا يشتهى الناس. ففى أواخر تلك السنة (٥٦٤هـ)، فى صيف سنة ١١٦٩م: «إختلف الهواء بمراكش» بمعنى انتشار الوباء بشكل عام لم يسلم منه الغنى أو الفقير، حتى مات فى المرض كثير من السادات أبناء الأسرة المؤمنية، بل ولم يسلم أمير المؤمنين نفسه من المرض، مما يأتى ذكره.

والمهم أنه مع إقبال سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م صدرت الأوامر الخلافية بتعيينات جديدة، مما سبقت الإشارة إليه، حيث آلت «سبتة وأنظارها وجبال غمارة وأقطارها» إلى السيد أبى على الحسن، والذى تحرك إليها، كما عاد معه السيدان أبو إبراهيم إلى أشبيلية، وأبو إسحق إلى قرطبة. هذا، كما صحبهم بالأمر الخلافى الحافظ الأسنى أبو يحيى زكريا بن يحيى بن سنان: أحد أبناء أشياخ خمسين النبهاء، والياً على حصون: طبيرة (Tavira) وسنت مرية (Santa Maria): «الفارو»، اليوم، على المحيط، والعليا (قرب شلب)- فعلا ذكره فى الحفّاظ، وتميّز عند أمير المؤمنين، الأمر الذى سمح ببقائه فى تلك الولاية لمدة ١٢ (إثنتى عشرة) سنة، عندما نقل بالأمر العالى إلى أشغال مدينة مرسية، فكأنه زاد رفعة- مما يأتى ذكره.[١]

الأندلس ما بين غضب الطبيعة وتهديدات قشتالة سنة ٥٦٥هـ/٧٠-١١٦٩م

إذا كانت سنة ٥٦٤هـ/ ٦٥-١١٦٨م هى سنة الخيرات الطبيعية، وبالتالى الظروف السياسية الحسنة بالنسبة للأندلس، فإن سنة

(١) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٣٩٦- حيث الختام بالقول: «وإنما إختار أمير المؤمنين هذا الحافظ النبيه لهذا الحصن (طبيرة) وخصه به من بعد فتنة وحربه لثقته عنده ويقظته وذكائه، لضبطه وحزامته، ولأنه أحد الطلبة المتفننين فى العلوم على مذاهب الأئمة بالمعقول والمفهوم، وقارن إبن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص٨٣- حيث التلخيص الدقيق لرواية ابن صاحب الصلاة.

٥٦٥هـ/ ٧٠-١١٦٩م الوافدة كانت سنة أحزان الطبيعة، من : إنحباس المطر والزلازل في الأندلس، كما كانت سنة الوباء في مراكش، والذى هدد العائلة المالكة في صميم ساداتها، فهي بالنسبة لدولة أبي يعقوب يوسف من سني التعاسة والبؤس. فلقد توقف المطر اللازم للحرث والزرع بالأندلس حتى شهر دجنبر (ديسمبر) العجمى (ربيع الأول والثانى) حيث نزل، فكان الحرث بعد الأوان، وفى نفس السنة، فى شهر جمادى الأولى (يناير ١١٧٠م)، حدثت زلازل عظيمة: صباحاً عند طلوع الشمس، وظهراً عند الزوال، وخاصة فى مدينة أندوچر التى عانت من ذلك الزلزال عدة أيام، حتى كادت تغوص بها الأرض، كما قاست منه عواصم الأندلس الكبرى: قرطبة وأغرناطة وأشبيلية بصفة خاصة.[١]

حملة كونت قشتالة نونيه (Nuño) الوصى على العرش

وكانت فرصة انتهزها الخصوم أصحاب الاسترداد الأسبان ليثأروا مما نزل بهم من الضربات الموحدية. فلقد خرج الأمير الإقطاعى: الكونت نونيُه، من عائلة لارا المسيطرة على عرش ملك قشتالة (الفونس الثامن) «الصغير: ابن السليطين)، من طليطلة (دمرها الله)، وأغار على أراضى رُنْدة وجبالها فى أقصى الجنوب (جنوب غرب انتيقيره، بين جبل الثلج ونهر لكُه على سمت شريش)، ووصل إلى الجزيرة الخضراء وجبالها أيضاً، ليصل إلى البحر، وهو يقتل المسلمين فى تلك الأقطار والأنظار، ويأسرهم ويكتسح سائمتهم.

---

(١) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٣٩٧- حيث «فكان الرائى بعينه يرى حيطان الديار تضطرب، وتميل حتى إلى الأرض، ثم ترتفع وترجع على حالها بلطف الله تعالى- وتهدمت من ذلك مواضع ديار كثيرة فى البلاد المذكورة، وصوامع مساجدها- هذا ويلاحظ المحقق: عدم تحدث المؤرخين عن هذا الزلزال، وقارن إبن عذارى، الموحدون (هويثى) ص٨٤- حيث إضطراب النص بعض الشئ.

غدر بطليوس من جديد على يدى جرانده الغادر (جيرالدو سيمبافور)

وإلى جانب غارة الكونت نونيُـه هذه، والتى تذكر بحملة الفونس المحارب الأراجونى حتى المضيق، كانت بطليوس تعانى مرة أخرى من تضييق جرانده الغادر (جيرالدو سيمبافور). ففى شهر رجب من سنة ٥٦٥هـ/مارس-ابريل ١١٧٠م، كان قد أحكم الخناق عليها حتى منع عنها الميرة- الأمر الذى كان يهدد المدينة بالجوع. وهنا فكر الموحدون بأشبيلية فى أن يقوموا بحملة إمداد كبرى تكفى المدينة لمدة طويلة، وتقنع المغامر الجلّيقى بعدم جدوى الحصار بعد ذلك. وفعلاً تم جمع ميرة موفورة من الطعام والآلات والمحلات للحمل إليها. وتمّ حمل ذلك الطعام على نحو ٥٠٠٠ (خمسة آلاف) دابة، «تقدم عليها للتوصيل الحافظ أبو يحيى زكريا بن على بعسكر أشبيلية وجهاتها من الموحدين والأجناد الأندلسيين.

وعندما اقتربت القافلة الشهية من مدينة بطليوس خرج عليها اللعين جرانده الغادر بجمعه الذميم من النصارى، وأهل شنترين. والمهم أنه لم ينجح المسلمون فى الدفاع عن طعامهم، فبعد الحرب مدة طويلة من النهار، إنهزم المسلمون، وقتلوا وأسروا، وانتهبت الميرة وذهبت بكليتها، وذلك يوم الخميس ٢٦ من شعبان سنة ٥٦٥هـ/١٧ مايه ١١٧٠م- حيث أسفر اللقاء عن استشهاد الحافظ أبى يحيى زكريا- وكان للهزيمة صدى حزين بكل من قرطبة حيث الشيخ أبو حفص، وأشبيلية. وأخطرت الحاضرة بذلك.

أوقات صعبة تمرّ بها الحاضرة مراكش

الوباء والعائلة المالكة

فى ذلك الوقت من سنة ٥٦٥هـ/ ١١٧٠م كانت مدينة مراكش تعانى من القحط والوباء الذى ضرب عدداً من أفراد الأسرة المؤمنية: الإخوة السادات، وأصاب بالمرض أمير المؤمنين أبا يعقوب يوسف، حتى «ضعف عن الحركة للغزوة التى وعد بها جميع الموحدين بالأندلس من الوصول.

إليهم، فى كتابه الذى وجهه إليهم فى صحبة الشيخ أبى عبد الله (مما سبق) فتأخرت حركته.

والمهم أن أبا يعقوب (الذى حمل بحق لقب أعظم بنى عبد المؤمن) رغم ما ألم به من المرض ومن ثم الضعف، كان يعد العدّة ليبر بالوعد الذى قطعه على نفسه، من عملية إنقاذ الأندلس التى كانت تدور بخاطره. فهو« لم يزل فى حال استدعاء للعرب من إفريقية، والموحدين من كل جهة (كما) أعطاهم وكساهم»، الأمر الذى سيمكنه حين «يستقل» (يشفى ويبل من المرض) أن ينجز ما وعد به (سنة ٥٦٦هـ/١١٧١م- مما يأتى).

الحاضرة مراكش تستجيب لإستغاثة حليفها ابن همشك فى شرق الأندلس

كانت سنة ٥٦٥هـ/١١٧٠م سنة كبيسة، كما يقال بالنسبة للموقف بالأندلس، حيث انفتحت الجبهات: الغربية والشرقية دفعة واحدة. ففى الغربية كانت المواجهة مع ابن الرنك: ملك البرتغال، والكونت نونيه (Nuño) آل لارا الوصى على عرش قشتالة، وفى الشرق كانت مملكة ابن مردنيش فى مرسية وبلنسية، وشريكه المنشق ابن همشك: حليف الموحدين. والحقيقة أن كلا من الجبهتين كانت توالى الاستغاثة بالحضرة مراكش، وكان الخليفة أبو يعقوب يخطط لعملية الإنقاذ وقتما تسمح له الظروف بابلاله من المرض. ولما كان الحاح ابن مردنيش بالعدوان على بلاد ابن همشك قد خرج عن حدود الاتزان، مما سبقت الإشارة إليه، فقد اتفق الرأى فى مراكش، بمشورة من الشيخ أبى حفص بالأندلس، على إرسال حملة تكون مقدمة لحملة أمير المؤمنين المنتظرة، وتكون وجهتها بلاد الشرق، كعملية إنقاذ لبلاد ابن همشك الموحدية. وكان من الطبيعى أن يعهد بقيادة تلك الحملة إلى السيد الأجل شقيق الخليفة وحاجبه، وذلك تحت شعار «تلافى الخطر عن جزيرة الأندلس، وغزو ابن مردنيش والنصارى معه، وحصاره فى مرسية قاعدته، ومقارعته فى داره وحاضرته».[1]

(١) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٣٩٩، وقارن إبن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص٨٤.

وخرج السيد الأعلى أبو حفص، فى غزوته لابن مردنيش هذه، من حضرة مراكش فى أول شهر ذى القعدة سنة ٥٦٥هـ/١٧يوليه، مستعجلاً، مسارعاً لنصر جزيرة الأندلس، لمن إستصرخ به ممن وجدوا واستعدوا، لغزو من عاداه». وكان فى صحبته «على عادته» أخوه السيد أبو سعيد (عثمان)، وجماعة من علية أشياخ الجماعة، منهم: أبو عبد الله بن أبى إبراهيم، وأبو يعقوب يوسف بن تيجيت، وممن يليهم من حفاظ أهل خمسين. أما عن الصنف الأندلسى فقد اصطحب منهم الداهية: أبا محمد سيد رأى بن وزير، وأخاه أبا الحسن على، إلى جانب أبطال من فرسانهم الأجناد الساكنين بحضرة مراكش، إنتخبهم واستصحبهم لمعرفتهم بالأندلس وحروبها، إلى جانب مشاورتهم فيما يتاح إليه من الأمور ومعرفة الثغور.

اللقاء مع إبن همشك والدفاع أولاً عن بطليوس:

وسار السيد الأعلى أبو حفص تقدمه أعلامه حتى أجاز بعسكره البحر إلى العدوة الأندلسية، وكان وصوله إلى أشبيلية فى أول عام ٥٦٦هـ/٤سبتمبر ١١٧٠م. وهناك استراح بعض الوقت من أجل الإجتماع بالشيخ أبى حفص الهنتاتى الذى وصل إليه من قرطبة وفى صحبته إبراهيم بن همشك بأصحابه المختصين به. فاجتمعوا وتشاوروا فى الرأى فيما يكون أو الغزو بالمشى، فقرروا الآتى:

- أن يتوجه السيد الأسنى أبو سعيد (عثمان)، فى سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م، أولاً إلى مدينة بطليوس لإحياء اسمها بعد مماتها، وإخراج النصارى بالدفاع عن جهاتها. وسار إليها السيد أبو سعيد بعسكر من الموحدين والأندلسيين والعرب، ومعه ابن وزير وابن عزون لمعرفتهما بثغر بطليوس.

ومن حسن الطالع أن وافق وصوله خروج فرنانده الببوج ابن السليطين، فى هذا التاريخ قاصداً بطليوس ليسترجع ملكها وأخذها من أيدى المسلمين، لما رأى ابن الرنك عدوه قد قارب التغلب عليها مرة ثانية بإلحاح

جرانده (جيرالدو) على أنظارها. وقال لنفسه «إنه أولى بها دفاعاً لعدوه». وصحّت فعلاً مسألة خروجه هذه، وأنه وصل بعسكره وآلات سكناها بالفحص المعروف بالزلاقة (حيث وقعة سنة ٤٧٩هـ). وهنا بعث إليه السيد أبو سعيد جماعة من أشياخ الأندلس وأشياخ الأجناد العقلاء الأولياء «للقائه وإيلافه على أوله... وهل باق على الصلح المربوط معه أم لا».ورداً على ذلك قال الببوج: «إنما خرجت لحمايتها وإمساكها لأمير المؤمنين».وانتهى الأمر بلقائه بالسيد أبى سعيد، وتجديد الصلح بينهما.

هذا «وتكلم إبن وزير وابن عزون مع ترجمانه بما يصلح من الصلح بينهما حتى كمل الغرض المراد، واتصل العهد والسداد». والمهم أنه إلى جانب تجديد الصلح مع فرنانده الببوج كان على السيد أبى سعيد أن ينهض بعكسره المبارك إلى حصن جلمانية، وينازله، بل ويفتحه ويطرد منه جرانده الغادر (جيرالدو سيمبادور)، ومن ثم يهدمه، بمعنى إعادة الحياة من جديد إلى بطليوس.(١)

غزو ابن مردنيش فى عقر داره بالشرق:

بتأكيد الصلح مع الببوج، وتأمين بطليوس وإحياء نظرها بطرد جرانده الغادر (جيرالدم سيمبافور) من حصن جلمانية وتسويته بالأرض يكون الموحدون قد نجحوا فى تهدين الغرب تمهيداً لاسترجاع ما كان قد إسترده ابن الرنك (ملك البرتغال) من الأراضى الإسلامية. وهكذا كان علي السيد الأجل أبى حفص أن يتفرغ لبسط السيادة الموحدية على أراضى ابن همشك الموحدية، والعمل على غزو مملكة إبن مردنيش فى الشرق، فى: مرسية

---

(١) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٣٩٩-٤٠٢- حيث وصف ابن وزير للقائه مع الببوج، وكيف أنه أخفى على ترجمانه معرفته الإسبانية العجمية لكى يفهم حقيقة أمره، وكيف لاطفه فى الصلح حتى أكمل، وكيف سرق أرذال النصارى المتصرفين فى الخباء عمامة رأسه فى غفلة منه، وكيف أن السيد/ أبا سعيد أخذ عمامة رأسه ودفعها إليه، وطلب لنفسه عمامة أخرى؛ وقارن إبن عذارى، الموحدون (هويثى) ص٨٥-٨٦ حيث تلخيص نفس الرواية مع بعض الهنات.

وبلنسية وأنظارهما.

وهكذا تحرك السيد الأعلى أبو حفص من أشبيلية وبصحبته أخوه السيد الأسنى أبو سعيد، والشيخ أبو حفص الهنتاتي، وفى معيتهم الزعيم الأندلسي إبراهيم بن همشك، وذلك في أول رجب سنة ٥٦٦هـ/ ١٥مارس١١٧١م. وبعد إقامة أيام في قرطبة خرجوا مصممين على الغزو. وكانت أول مدينة ينزلون عليها من مدن ابن مردنيش هي: قيجاطة (أو قيشاطة Quesada)، والواقعة فى شمال شرق جيّان. ولم يكن فتح قيشاطة سهلاً، إذ تطلب الأمر القتال والنزال قبل القبض على قائدها الشرقي الذى ضربت رأسه برأى ابن همشك- فكأن المسألة ثارات بين الحليفين السابقين.

ومن قيشاطة الفتح طريق الشرق إلى مرسية، حيث اكتسحت بسائط بلاد ابن مردنيش. وقرب مرسية غلبوا على حصن الفرج الذى كان متنزها لابن مردنيش، كما غلبوا على القرى والبساتين، وكل ذلك بإرشاد إبن همشك.

ومنذ بدأ حصار مرسية ظهرت الغلبة على عسكر ابن مردنيش، كما ظهر الخور على كل من كان بصحبته من العسكر الإسبانى المسيحى، ويستدل على ذلك من أنه عندما أراد أن يحشد منهم عسكراً يتقوى به على ضبط مدينة لورقة، لم يتيسر له أكثر من ٤٠٠ (أربعمائة) فارس، أرسلهم إلى قائده المقرب إليه هناك، وهو: أبو عثمان بن عيسى الذى أضافهم إلى عسكره الذى كان يضبط به قصبة المدينة.

والظاهر أن وصول العسكر الأسبانى المسيحى إلى لورقة كان يثير خواطر أهل المدينة الذين لقوا معاملة جائرة من قبل عمال ابن مردنيش، وتلك المعاملة القاسية كانت تنسب إلى ضيق ابن مردنيش بصعوبة موقفه الذى سبب له الخلل والاعتلال النفسى الذى أمرضه جسدياً وذهنياً.

والمهم أن العامة من أهل لورقة قاموا على النصارى، وعلى من معهم

من أصحاب ابن مردنيش، ونادوا بالتوحيد. وبذلك خاطب زعماؤهم السيد الأجل أبا حفص، وهو يحاصر مرسية، فسار إليهم بنفسه، «واحتل مدينة لورقة، وملكها واستوطن بعسكره المنصور أرباضها ورياضها وبسائطها». أما عن قصبة لورقة فقد صمدت لبعض الوقت، بل وكانت تحاول مناوشة الموحدين خارج القصبة حتى أن ابن القائد أبى عثمان أخذ أسيراً فى بعض طلعاتهم هذه، ولم تنجح المساومة فى تحريره نظير الاستسلام. مع إشتداد الحصر والجوع والعطش، ومع تدخل ابن همشك نزل أبو عثمان بن عيسى على الأمان عن القصبة مع النصارى وأصحابه، وأجلوها، ودخلها الموحدون، بينما رجع القائد أبو عثمان وأصحابه وإبنه محمد إلى مرسية.

حصار مرسية:

وهكذا لم يبق لابن مردنيش سوى مُرْسية التى صدرت الأوامر من مراكش بإحكام حصرها. وأثناء حصار مرسية نجح الموحدون فى الاستيلاء على حصن إلج (Elche). كما صدر الأمر للشيخ أبى عبد الله ابن أبى إبراهيم بالمسير إلى مدينة بسطة ففتحها. وبسقوط بسطة بادر أهل جزيرة شُقْر بالطاعة والتوحيد، وقاموا على النصارى الذين عندهم وأخرجوهم من بلدتهم.

والمهم أنه أثناء حصار مرسية كانت أحوال ابن مردنيش تسير من سئ إلى أسوأ، من: إنقلاب إخوته على طاعته وأصهاره، إلى جانب ظهور التقصير من أخيه يوسف فى منازلة جزيرة شقْر، وفى قتال عدوه إبن هلال، الأمر الذى أدى إلى ملازمة العلة المزمنة التى كانت سبب منيته.

توحيد محمد بن مردنيش:

وخلال تلك الغزوة وحصار مرسية قام بالمرية (Almeria) محمد بن مردنيش (إبن العم) المعروف بابن صاحب البسيط، وأعانه على قيامه محمد بن هلال، فوحدوا وخاطبوا السيد الأعلى أبا حفص بالمحلة المؤيدة، فوجه إليهم عسكراً من الموحدين، معيناً لهم[١]، حيث انتقم ابن مردنيش

(١) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٤٠٣-٤٠٧ .

من ابن عمه محمد «فأمر بقتل أخت نفسه: زوج محمد بن عمه (صاحب البسيط)، بل وبقتل بنيه منها، وقطع رحمه عنها، فأخذ ابن الراعى الموكل بالعذاب فأغرقهم فى البحيرة قرب بلنسية. «واختل ذهن ابن مردنيش فى إثر ذلك، وعاد صبحه كالليل الحالك، وفزع من إذايته أهله وقرابته وشيعته وخاصته، واختلت -بالتالى- جبايته وحالته».[١]

وبذلك كانت أحوال الغرب والشرق وقد تمهدت، فى الوقت الذى كانت صحة الخليفة أبى يعقوب يوسف قد تحسنت، فكان جوازه إلى الأندلس، واهتمامه بأحوالها على كل المستويات، من داخلية وخارجية، الأمر الذى سيتطلب بقاءه فى الأندلس لمدة حوالى خمس سنوات حافلة بجليل الأعمال، فكأن الدولة الموحدية، إبتداء من عهده هذا، قد أصبحت أندلسية الصبغة أكثر منها مغربية، كما بدأت أصلاً. وهذه طبيعة الأشياء، فالأمم الوحشية المتغلبة عادة ما تنصبغ بحضارة المغلوب، رغم كلفه فى البداية على الأقل، بتقليد الغالب فى لغته وعاداته- حسب بعض نظريات ابن خلدون.

(١) قارن إبن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص٨٧-٨٨ .

﴿ ٤ ﴾

جواز أبى يعقوب يوسف إلى الأندلس :

وهكذا كان «اتصال هذا الفتح واليمن الشامل»، من: الإنتصار على الأعداء، وتضييق الخناق عليهم بالحصار بمثابة إشارة الضوء الأخضر لخروج الخليفة نفسه، بصفته القائد الأعلى للجيوش الموحدية. وهذا ما كان قد تمّ الإتفاق عليه من البداية، لولا المرض الذى ألمّ به فى أوائل سنة ٥٦٥هـ/أواخر١١٦٩م، والذى استمر يعانى منه خلال ١٤ (أربعة عشر) شهراً طوالاً، لم يتوقف فيها عن العمل بمعونة وزيره أبى العلاء بن جامع.[١]

إستدعاء عرب أفريقية للجهاد :

ومما يذكر لأبى يعقوب يوسف فى هذا الشأن: الإعداد لحملة الغزو

(١) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٤٠٩- حيث أن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين لم يزل ينظر فى الغزوة التي وعد بها الموحدين... مع ضعفه، فإن مرضه كان فى أول سنة ٥٦٥هـ/سبتمبر١١٦٩م. فكأنها «غيبة» الـ ١٤ شهراً و١٥ يوماً. لكنه كان يدخل إليه وزيره أبو العلاء إدريس بن أبى إسحق بن جامع يعلمه بالمخاطبات الواصلة، والأحوال المسلية السارة المتجاملة، ويحضر معه الأطباء الأولياء: أبو مروان بن قاسم (قرطبى ت٥٧٥هـ/ ٨٠-١١٧٩م، وأبو بكر بن طفيل (ت٥٧٥هـ/١١٧٩م)، وغيرهما، ينظرون فيما يصلح به من الشراب والغذاء، وجميع الأشياء. هذا، كما كان يدخل معهم الفقيه أبو محمد عبد الله المالقى الذى كان بمثابة الوزير المستشار، الأمين، من حيث مشيخته لطلاب الحضر، وكذلك الأمر بالنسبة لأشياخ الموحدين، كأبى محمد عبد الواحد بن عمر وغيره، ممن كانوا يحققون الدعاء له بالشفاء إذا جلسوا. وواضح من النص الخاص بمدة المرض أنها كانت معتبرة كنوع من «الغيبة». ويتأكد من ذلك بالنص الذى يقول (ص٤١٠): «فمتى طرأت مخاطبة من السيد الأعلى على أخيه (من الأندلس) فى معنى الغزو أمر على حاله بالجواب عليها، وإذا وصلت شرح له ما إتصل لديها، وغير ذلك عليه السكوت...»، وقارن إبن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص٨٨- حيث التلخيص المفيد من قبل مؤرخ المغرب الكبير.

الأندلسية، مكاتبته عرب أفريقية فى شأن التحريض على الجهاد. فهو «يستدعيهم إلى الغزوة العظمى التى فى نيته... ويصفهم فيها بما هم فيه من الشهامة والزعامة»، مما يرد فى قصيدة إبن طفيل (الفيلسوف) التى خاطبهم فيها، ومنها:

أقيموا صدور الخيل نحو المغارب ... لغزو الأعادى وإقتناء الرغائب
ألا فابعثوها همَّة عربية ... تحف بأطراف القنا والقواضب
أفرسان قيس بن هلال بن عامر ... وما جمعت من طاعن ومضارب
بكم نصر الإسلام بدأ فنصرهُ ... عليكم وهذا عوده جدّ واجب
حذار فإعراض الفتى عن نجاته ... وتضييعه للحزم إحدى المعايب
وما خُلُق الأعراب اخلاف موعدٍ ... ولكن صدق الوعد خُلُق الأعارب(١)

هذا وعندما تأخر العرب فى الرد قليلاً، خاطبهم يستعجلهم، ويذكر لهم «نيته العازمة على الجهاد، ويسترحلهم بقصيدة من إنشاء كاتبه ابن عياش»، ومما فيها يقول:

أقيموا إلى العلياء عوج الرواحل ... وقودوا إلى الهيجاء جُرْد الصواهل
وقوموا لنصر الدين قومة ثائر ... وشدّوا على الأعداء شدة صائل
بها تُفتح الدنيا وتُبْلغ المنى ... بها ينصف التحقيق من كل باطل
بجيش يضل الطير فى محراته ... وتحجب عنه الشمس سحب القساطل
ويطلع ليل النقع فيه كواكباً ... من البيض أم من مرهفات المناصل
فلا تتوانوا فالبدار غنيمة ... وللمدلج السارى صفاء المناصل(٢)

وفى ذلك يقول ابن صاحب الصلاة: إنه لما وصلت هاتان القصيدتان بنواحي أفريقية والزاب والقيروان وتبيّنت لهم معانيها، وفصاحتها، ومن

---

(١) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٤١١-٤١٤، وقارن إبن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص٨٨-٨٩.

(٢) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٤١٥-٤١٧، وقارن إبن عذارى، الموحدون (هويثى) ص٨٩-٩٠.

التحريض على الجهاد، «أجابوا إلى الطاعة، على حكم الإستطاعة، بأكمل البدار»، وهنا يشير صاحب «المن» إلى حتمية الخضوع للأمير الموحدى العزيز، ويضرب لذلك مثلاً ينفرد به، ألا وهو محاولة شيخ بنى رياح وزعيمهم جبّارة ابن أبى العينين، حينما فرّ بنفسه إلى بلاد مصر والحجاز واليمن فى محاولة لضم العرب هناك إلى جانبه من أجل الصمود أمام الموحدين، «فلم ير فى تلك الأصقاع من يَرْفُد لها رَغْداً»، فإقتاد راحلته ميمما هذا المغرب الأقصى الذى ظهر فيه نور العدل... ونور خليفة أمير المؤمنين الأعدل، سيدنا الإمام أبى يعقوب-رضه.

والمهم من كل ذلك أن جبارة عندما عاد من رحلته المناهضة لطاعة الموحدين، وجد أكثر أبناء عمه قد بادروا إلى طاعة هذا الأمر العزيز، والحركة إلى الجهاد الكريم. فأسرع إلى خشد قبيلته ولحق بهم أولاً إلى السيد الأسنى أبى زكريا يحيى (أخى يوسف) بمدينة بجاية، حيث طلب منه العفو، فوجد عنده الصفح والعفو ما يجده عند سيد كريم.

ومن المهم أيضاً أن السيد أبا زكريا تحرك إلى الحضرة مراكش، فأقبل العرب تحت لوائه، متبركين بصحبته ودعائه. هذا، كما وصل من أفريقية من العمال (الجباة) والأمناء: أبو محمد عبد الواحد أقوسجور صاحب تونس وأنظارها، وأبو زكريا يحيى ومنصور الهنتاتى، والنعمان... بهؤلاء العرب والأموال، والخيل العراب، العتاق الأحساب، المدربة عند الأعراب.

ولما وصلوا إلى مدينة تلمسان صحبهم السيد/ أبو عمران بن الخليفة(؟) أيضاً بمن عنده من العساكر والعمال بالأموال، مع عاملهم أبى الربيع بن عبد النور، وبالأعداد الوفيرة من الخيل المسومة. وهنا تقول الرواية: «وإجتمع الجميع، وصحبهم السامع المطيع» (الذى يقصد به مؤرخنا إبن صاحب الصلاة نفسه). ولما اقتربوا من العاصمة مراكش صدر الأمر بالرفق فى المشى، والوصول فى هيئة وقورة، حفاظاً على الخيل العتاق، فامتثل الجميع للأمر، وكان عدد الخيل الواصلة من أفريقية

٤٠٠٠ (أربعة آلاف) فرساً، و١٥٠ (مائة وخمسون) جملاً من المال الصامت.(١)

استقبال حافل لمجاهدى إفريقية والمغرب الأوسط:

ومن حسن الطالع أن أمير المؤمنين أبا يعقوب كان فى ذلك الوقت قد استقل وشفى من المرض، فتمكن سروره بوفود السيدين والعرب، وعزم بأن يكون خروجه أولاً إلى المسجد الجامع. وكان الخروج إلى الجامع لأداء الفريضة، بعد اتصال المرض، يوماً مشهوداً، وهو يوم الجمعة ١٦ ربيع الأول ٥٦٦هـ/٢٨ نوفمبر ١١٧٠م. أما خطيب الجمعة فكان الفقيه أبو محمد المالقى، الذى راعى مقتضى الحال، فأسرع فى الخطبة وفى الصلاة بالتخفيف على الخليفة الذى كان فى دور النقاهة. وفهم الناس واستبشروا بشفائه- وانتظروا على يديه اليمن والخير.

وعندما صاح الناس بظلاماتهم فى الجامع، أمر الخليفة «بكتب مسائلهم، وفهم من عدله قضاء وسائلهم».

وفى يوم السبت التالى (١٧ ربيع الأول) تقرر النظر فى إقامة الحدود على أهل التعدى، كما صدر الأمر إلى القاضى أبى يوسف حجاج بن يوسف بتطلع أحوال المسجونين، وإنصاف المظلومين من أهل الشكايات.

وفى يوم الإثنين (١٩ ربيع الأول) أمر بفتح مجلس بباب القصر الذى كان مغلقاً، وهو المعروف بباب الإسطوان (الإيوان)، والذى كانت تعرف سقائفه بالإسم المحلى «مُنْتقيمى» (Emin-Tgemmi) أى باب الدار، والذى كانت قد أعدّت له كسوة، فتمّ إعداده فى حضور العدد الوفير من الموحدين، حيث بسطت فى المكان (السقائف) أحمال الحصى والرمل، وفرشت وسط صحن الدار الذى يمشى فيه الناس.

وبعد تجهيز الأسطوان (الإيوان) جلس أبو يعقوب، بينما كان الوزير أبو

---

(١) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٤١٧-٤١٩، وقارن ابن عذارى، ص٩٠.

العلاء إدريس بن أبى إسحق، والأخ السيد/ أبو محمد عبد الله، يقومان بترتيب الناس فى الدخول عليه على طبقاتهم، من: أشياخ الموحدين، وأشياخ طلبة الحضر، فكانوا يسلمون عليه ويدعون له، ويهنونه على السلامة والعافية. أما أشياخ الناس الذين استدعوا بعد ذلك، من: الأجناد ورجال الدين والخاصة من الوافدين، فكانوا يدخلون «للسلام دون كلام».

هذا، كما ألقيت الخطب باللغتين الغربية (البربرية للموحدين) والعربية (الرسمية) بالتهنئة وشكر الله على العافية والشفاية، والدعاء بالنصر والتأييد.(١)

وبمناسبة العافية والشفاء تصدق الخليفة على الضعفاء والوافدين من الغرباء، حيث كان يصيب البعض منهم ما يناهز الـ٣٠ (ثلاثين) ديناراً. وكان العطف على هؤلاء المساكين يستدر ابتهالهم بالدعاء فى دوام الأمر العزيز بالنصر والعافية الشاملة.(٢)

(١) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٤١٩-٤٢٠- حيث الإشارة إلى أن خطيب اللسان الغربى هو الشيخ الزاهد: أبو محمد عبد الواحد بن عمر، أما خطيبا العربية فهما: القاضى أبو يوسف حجاج والفقيه أبو محمد المالقى، وقارن ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص٩٠.

(٢) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٤٢١-٤٢٨- حيث التركيز على الشاعر الأندلسى المسن: أبو الحكم بن رضى البلنسى الذى تشرّد خارج بلده، وأقام بالحضرة مراكش مدة سنتين فى ضيق شديد، رغم اتصاله بالوزير إبن جامع والفقيه المالقى، الى أن كان شفاء أبى يعقوب واستقلاله فرصة للدخول عليه، وتقبيل اليد المباركة، ومن ثم إنشاده لقصيدة تعبر عن ثقافة العصر، مما يتعلق بالدعوة المهدية (التومرتية) والأسرة المؤمنية كمقدمة لمقام الأمر العزيز العالى، وان لم يعبر عن المناسبة (مناسبة الإستقلال والشفاء)، ومنها:

مسامرى وخبير القوم مسئول ... حدّث فقولك مسموع ومقبول
ألست عن سير المهدى تخبرنا ... ومن عن الله نبّى عنه جبريل
وعن حواريه الأسنى وصفوته ... وسيفه حين سيف الدين مغلول
وعن بنيه مصابيح الهدى ظهرت ... فى كل داجنة منهم قناديل
وسُعد حديث أبى يعقوب عن طرقٍ ... ففى مسامعه المأمول والسول
إلى إمام الهدى أسرت بأرجلنا ... ريح الشمال والإفال الشماميل
ولم تدع مردنيشا عند حولتها ... يوم العروبة إلا وهو مذهول
مولاى لم لى أمنى النفس من سنة ... بذا المقام وجدى فيه ممطول

البروز لإستقبال العرب الوافدين من إفريقية :

عندما عُرف أن وصول السيدين: أبي زكريا يحيى وأبي عمران مع العرب هو ضحوة السبت، ربيع الآخر٥٦٦هـ/١٤ ديسمبر ١١٧٠م، صدرت الأوامر لجميع الموحدين والعسكر الموجودين بالحضرة أن يكونوا على استعداد للعرض «في مراكبهم وهيآتهم». وهكذا «قسمت عليهم الدروع والبيضات والرماح والدرق والأسلحة والكسوات والعلامات (الشارات) والرايات».

وفي صبحية السبت المذكور بكّر الجميع، هن: الحفاظ والطلبة من الموحدين، وجميع القبائل من العسكر إلى السدّة العظمى، وهي كما نرى باب الأسطوان أو باب السقائف (منتقيمى)، والذي فرش بالحصى والرمل من أجل اللقاء بين الخليفة والوزير ابن جامع الذي كان يشغل في نفس الوقت وظيفة الحجابة، فلا يصدر شئ إلا عن رأيه، ولا تتنجز عدة من أمر الخليفة إلا عن شفاعته وسعيه.

وعندما اكتمل ترتيب الاحتفال، من: إحضار الطبول التذكارية المربعة الشكل، والتي ترجع إلى أيام ابن تومرت، وكمل عددها إلى ١٠٠ (مائة) طبل، بعد أن ترادف الموحدون زمراً زمراً حتى كمل الاجتماع، إستوى أمير المؤمنين على صهوة فرسه الأغر، وهي أول ركبة من حين مرضه. وكان الوزير أبو العلاء بن جامع راجلاً على قدميه إلى جواره ليسرع نحو أهل الحاجات أو الشكايات: كتابة أو كلاماً أو إشارة.

=وعند إنتهاء إنشاد تلك القصيدة التي بلغت أبياتها ٧٢ بيتاً، حسّن أشياخ المجلس العالي إنشاء فصولها ومعانيها، وصوبوا أغراضها ومبانيها، فأمر الخليفة بإسهام بمدينة مالقة وزاد، وانصرف الرجل مملوءاً بالحقائب، وبيده ظهير كريم بالتنويه به في البلاد، وبمواساة مستمرة له في ديوان العمل بالغير المعتاد. ولابأس من الإشارة هنا إلى الظهير الذي أنعم به على مؤرخنا إبن صاحب الصلاة بهذه المناسبة، وهو ظهير كريم ومواساة معها: «أعانتني على الزمان الذميم وأغنتني عن اللئام» ص٤٢٨-٤٣١

ولى العهد المخلوع:

هذا وكان السيد/ أبو عبد الله محمد المخلوع يقف فى ساقة (مؤخرة موكب) أخيه الخليفة على قرب منه- الأمر الذى يعتبر شهادة حسن ظن فى نظام الأسرة الحاكمة المؤمنية، كما نرى، وهذا لا يمنع من كونه عملاً احترازياً.

وفوق رؤوس أهل الساقة الملكية كانت ترفرف أمام العسكر ١٦ (ستة عشر) علماً من البنود الكبار، وبيد كل رجل من أعيان الموحدين علم، وعليه درع تلمع لمعان اللجين الخالص فى الشمس. وكذلك سائر الأجناد، من: الحشم (المرابطين) والروم (النصارى) والعبيد (السودان)- وعلى الجملة كل الناس.

وأما عن مكان اللقاء، فلما كانت المواضع المتصلة بالمدينة قد ضاقت أفنيتها لسعة البحائر والجنات، فقد إتفق رأى الخليفة أن يكون فيما وراء الشريعة (مصلى العيد)، فى الفحص العريض هناك. وهكذا سار موكبه والطبول قاصفة، والجيوش متكاثفة، إلى الموضع الذى وقع عليه الاختيار، حيث أمر بضرب خباء (خيمة كبيرة) نزل فيه مع إخوته وبنيه.

وعندما اجتمع الوافدون من عرب إفريقية بالخارجين لاستقبالهم (البارزين) من عسكر (الحضرة)، أشار الخليفة بالقيام بعرض تدريبى بين الجانبين. فحملت البعض فيهم على البعض «جرياً ولعباً وفرحاً وطرباً، فرأى الحاضرون والناظرون منهم عجباً». واستمر ذلك العرض العسكرى الترفيهى مدة، والطبول تضرب إلى أن مضى أكثر النهار.

ثم كان على الوافدين النزول للسلام، فتقدمهم الأخوان السيدان: أبو زكريا وأبو عمران، وتبعهما أشياخ الموحدين وأشياخ العرب، وفيهم على بن منتصر شيخ بجاية وأنظارها- وهو الذى ظهر فى تلك الغزوة إلى أن قتل- ثم جميع الوافدين من الناس على بكرة أبيهم.

وبعد السلام أمر الخليفة الجميع بالانصراف إلى مدينة مراكش، فى

منازلهم المعينة لهم. بينما انصرفت عامة العرب إلى محلتهم التى حدّدت لهم. وكان موكب دخول أمير المؤمنين أبى يعقوب إلى داره بالحضرة من المناظر الغريبة العجيبة التى بُهت الناس منها وكأنها «عرساً من الأعراس».[١]

وفى اليوم الثانى (٣ ربيع الآخر ٥٦٦هـ/ ٥ ديسمبر ١١٧٠م) صدر الأمر بمبايعة أمراء العرب، وتمت تلك البيعة فى اليوم الذى يليه (٤ ربيع الثانى/٦ديسمبر). وتمادت بيعتهم إلى الأربعاء ٢٠ ربيع الآخر، فكأنها استمرت ١٧ (سبعة عشر) يوماً- زيادة للطاعة وتأكيداً، على ما نظن.

ضيافة الغزاة: الخروج إلى بساتين البحيرة ما بين الطعام والشراب

بعد استراحة الأربعاء ٢١ ربيع الآخر من المبايعة العربية، وبعد أداء صلاة الجمعة ٢٢ ربيع الآخر كان خروج الخليفة يوسف من الحضرة إلى البحيرة، حيث «أطعم العرب والناس الوافدين، وغيرهم مدة ١٥ (خمسة عشر) يوماً. والحقيقة أنه لم يكن من الممكن إطعام الآلاف المؤلفة من الفرسان والمشاة من الضيوف الوافدين، ومن يلوذ بهم من الحشم والتابعين، فضلاً عن أهل الحضرة المضيفين من العسكر وغيرهم. وبناء على ذلك كان من المقدر أن يستضيف الآدبون فى البحيرة ما يزيد على ٣ (ثلاثة) آلاف رجل- يومياً.

ولا بأس من الإشارة هنا إلى ما جرت عليه العادة فى بلاد السوس، من تكريم الضيوف بشراب الرب، المصنوع من عصير العنب الحلو المطبوخ، والممزوج بالماء ليصبح شراباً ترفيهياً. فكانت الحال أنه كل ما أكلت طائفة وقامت، مشت إلى موضع الخليفة- رضه- وسلمت عليه ودعا لها، ونهضت إلى ساقية (نهر من رب) تشرب وتطرب.[٢]

(١) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٤٣٠-٤٣٣، وقارن إبن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص٦١- حيث ١٦ بنداً من البنود المذهبة؟.

(٢) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٤٣٣، وقارن إبن عذارى، الموحدون، (هويثى)، ص٩١؛ وانظر ج٥.

ولم يكن من الغريب بالنسبة لمثل هذه المآدب الملكية الضخمة، حيث ما لذ وطاب من الطعام والشراب أن يدور حولها ما يزعج أصحابها. وهذا ما حدث بالفعل عندما وقعت في بعض الأيام «هوشة بين صبيان الموحدين الذين يمسكون دوابهم خارج (بساتين) البحيرة، وبين أتباع العرب، وأدت إلى اختطاف الثياب واستلاب الجلباب، وتحزب الجهال من الأعراب بالأحزاب، حتى وصل ذلك الأمر إلى باب الدار (الخلافية) عند الحجاب». وعندما انجلت الغمة عن سلب كثير من الناس في الطريق، بل وموت ٤ (أربعة) أشخاص من عبيد الناس وأحرارهم، وبلغ ذلك أمير المؤمنين... «أقلقه التعدى في باب سدته، ولصق حضرته، أمر برفع الطعام مدة ٣ (ثلاثة) أيام، عتباً على العرب بسبب جرأتهم على سوء الأدب».

وبعد طلب العفو، والاعتذار من جانب العرب عما جناه أتباعهم وعبيدهم، «قبل الإمام توبتهم، وأمر بصرف إطعامهم، والتمادى على إكرامهم». وكان على المأدبة أن تستمر إلى ٥ جمادى الأولى ٥٦٦هـ/ ١٥يناير ١١٧١م- فكأن عيد البحيرة استمر ١٢ (إثنى عشر) يوماً، حافلة بالطعام، وبالرُب «المقنن» أيضاً.

هذا، ولم يفت سيّدنا، كما يقول ابن صاحب الصلاة إحصاء خسائر يوم «الهوشة»، من: الثياب والأسباب والأرواح، من عبيد وأحرار، «وأمر بجبر كل ما مضى للناس، من: ثيابهم، وقيمة عبيدهم ودوابهم، وأدى الأحرار بدياتهم إلى قبائلهم». وينهى رجل البلاط شهادته هذه بالقول: «وهذا غاية العدل والكرم، الذى لم يتقدم لغيره من الزمان بالقدم».(١)

تمييز العرب وعرض من وفد منهم:

بعد استراحة قصيرة لمدة يومين من نهاية احتفلات مآدب البحيرة «وهوشتها»، وفى يوم الأحد ٨ من جمادى الأولى/١٨ يناير ١١٧١م، أمر

---

(١) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٤٣٣-٤٣٤؛ وقارن إبن عذارى، الموحدون (هويثى)ص٩١ .

سيدنا أبو يعقوب (يوسف) بتمييز العرب الأفريقيين، بأن يحضروا بين يديه فى رحبة قصره العتيق بدار الحجر، داخل الحضرة مراكش، وأن يكون عرضهم بحيث يراهم، ويطلع على هيئاتهم، بهدف الجدّ فى إصلاح ما يرى من حالهم.

ويظهر من معنى التمييز هنا، هو تصنيف العساكر والناس على ترتيب توحيدهم، أى أقدميتهم فى الدخول فى الدعوة الموحدية. وعلى هذا الأساس كان البدء فى أول يوم بعرض قبيلة زغبة، وتمادى عرضهم اليومى المحدود مدة ١٥ (خمسة عشر) يوماً. وكان ذلك على دفعتين يومياً: طائفة من غدوة حتى صلاة الظهر، وأخرى من بعد صلاة الظهر إلى آخر النهار. «وسيدنا الإمام» جالس مع أشياخ الموحدين، وأشياخ طلبة الحضر، وأشياخ العرب- وهو يحرض على الجهاد.

وفي يوم الأحد ٢٢ جمادى الأول أحضر أبو يعقوب مشايخم وكبراءهم وطلبتهم: أبا محمد عبد الواحد أقوشجور، وأبا زكريا يحيى الهنتاتى والنعمان لمناقشتهم فى قوائم تمييزهم السابقة، فاتضح أن فى تمييزهم الجديد «زيادة كثيرة فى العدد على ما سمح لهم». فلقد لاحظ الخليفة أن الواحد منهم ينزل عن فرسه لكى يركبه آخر من الرجالة (بل) ويدخل عليه ويغير بعض ثيابه وآلته، ومثل ذلك عن العمامة، «وفى إعارة الثياب وآلات الركوب: يجرد بعضهم بعضاً على مرأى من الناس، لا يهابون أحداً، ولا آمراً».

والمهم أن الخليفة كان يعرف حاجتهم، ويعترف ببدارهم إلى طاعته، وأنه يعذرهم لما فى نفسه من إرادة الجهاد بهم لأعداء الله، فهو يتألف قلوبهم.(١)

(١) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٤٣٥-٤٣٦- حيث رواية منسوبة إلى كاتب تمييز العساكر المسئول دفع البركات (الرواتب) للموحدين ولساير الناس من الأجناد المرتزقين، وأنه عندما أخبر أمير المؤمنين يوسف بأنه وجد فى زمام تمييز العساكر زيادة كبيرة على ما تقدم، قال له -رضه- «نفذ البركة على ذلك، إنما غرضنا الإحسان لأجنادنا، وأن يظهر عليهم الخيرات والبركات»، وامتثل لذلك، فجعل =

العرض العام: تمهيداً لغزوة الأندلس العظمى

في أول جمادى الثاني سنة ٥٦٦هـ/ ١٠يناير ١١٧١م أمر أبو يعقوب يوسف بالتمييز العام للموحدين على عدد قبائلهم، فامتثل الأمر، واستمر ذلك العرض لمدة ١٥ (خمسة عشر) يوماً، تمّ فيها تقسيم الخيل المسومة الجياد على فرسان الموحدين، وعلى العرب الوافدين. و«أعطى للجميع الرماح والدروع والبيض والسيوف»، كما أنعم على الجميع بالآلات اللازمة لمثل هذه الغزوة الحافلة، وأعطيت لهم البركة (المالية) في مقابل الزاد.

وتمّ توزيع الرواتب المقررة في مجلس أمير المؤمنين العالي حيث جلس أبو يعقوب ومن حوله أشياخ الموحدين وطلبة الحضر إلى جانب أشياخ العرب. وأمر الوزير بإحضار الأموال بين يديه من: دنانير الذهب ودراهم الفضة، والتي علت في الحضرة أكداساً. أما عن مخصصات المجاهدين فكانت كالتالي:

الموحدون:

- **الفارس الكامل:** ١٠ (عشرة) دنانير.
- **الفارس (غير الكامل):** ٨ (ثمانية) دنانير.
- **الراجل الكامل:** ٥ (خمسة) دنانير.
- **الراجل (غير الكامل):** ٣ (ثلاثة) دنانير.

العرب:

- **الفارس الكامل:** ٢٥ (خمسة وعشرون) ديناراً.
- **الفارس (غير الكامل):** ١٥ (خمسة عشر) ديناراً.
- **الراجل (دون تصنيف):** ٧ (سبعة) دنانير

أما عن مشايخ العرب ورؤسائهم، فكانت بركاتهم كالآتي:

= الله تبارك وتعالى البركة في جباياته في جميع طاعته وجهاته بسمحه في ذلك، وإحسانه، وجزيل هباته، وإتصال صدقاته؛ وقارن إبن عذارى، الموحدون (هويثى) ص٩٢.

- كل شيخ: ٥٠ (خمسون) ديناراً

- كل رئيس قبيلة: ٢٠٠ دينار

هذا، إلى جانب كساء جميعهم بالقباطى والعصى والغفائر والعمائم، وإهدائهم السيوف المحلاة والدروع السابغات (كاللجين) والبيض والقنا من الرماح الطوال.

وزيادة فى حسن الاستعداد للجهاد أمر للعرب بـ ٣٠٠٠ (ثلاثة آلاف) فرس، قسموها على قبائلهم وأتباعهم ورجالهم.

وكان من الطبيعي أن يكون للموحدين أيضاً نصيبهم من الخيل المسومة المستوردة (المجلوبة)، والتى قسمت على قبائلهم ورجالهم.

وتعليقاً على كل ذلك ينص ابن صاحب الصلاة، قائلاً: «وهذا كله من سيّدنا نظراً إلى جزيرة الأندلس، فى هذه الغزوة الحافلة- خلّد الله أمره وأعز نصره».[١]

(١) المن بالإمامة، ص٤٣٧ .

٥

خروج حملة الجهاد الأندلسية من مراكش ٥٦٦هـ/١١٧١م

هكذا أتمّ أبو يعقوب يوسف العدّة لأول حملة كبرى يقوم بها للجهاد فى الأندلس، وهو خليفة: أمير للمؤمنين (من الموحدين)، بهدف إحياء رسمها، ودفع الأسبان النصارى عن جهاتها، والمنافقين المحاربين من جنباتها.

وكان خروج الحملة من الحضرة مراكش صبحية السبت ٤ رجب سنة ٥٦٦هـ/١٣مارس١١٧١م، عن طريق باب دُكّالة، وقد احتشد الناس لرؤيته، وقد ملأت العساكر الأرض، فسار أمامهم، والعلم الأبيض فى المقدمة، ووراءه الرجالة حسب العادة فى المشى والأعلام الملونة، ورجال المؤخرة، والطبول فى الخلف، والمشى هادئ ليسمح بأن يلحق به من تأخر من عسكره المنصور على رتبهم المختلفة.

وكان فى مقدمة الموكب مصحف عثمان- بأغشيته المرصعة الثمينة- على جمل مرتفع، وهو مغطى بكلة حمراء، وقدامه مصحف المهدى بن تومرت.(١)

وكان النظارة يشاهدون مع الرايات والطبول فى الموكب العجيب، الوزير أبا العلاء إدريس بن جامع، يحفّ به كبار مشايخ الدولة، مثل: أبى محمد

(١) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٤٣٨-٤٣٩، وهـ١- حيث مصحف عثمان، والأغشية التى صنعت له والتى إشترك فى عملها المهندسون والنظامون والجلاؤن. وكيف كان المصحف منظماً بالجوهر النفيس والياقوت الأحمر والأصفر والأخضر الغريب. هذا، «وقد جلبت إلى الأندلس ومن ثم المغرب من دولة الطولونيين التى كانت بقطائع مصر، الأمر الذى جعل النظارة يتيقنون من دين أبى يعقوب، يقينه من إهتباله بكتاب الله تعالى، وإهتمامه به...»، وقارن إبن عذارى، الموحدون (هويثى) ص٩٢ .



خريطة رقم -١

بـــــلاد مــراكـــــش

عبد الواحد بن عمر (صاحب المهدى)، وأبى سعيد يخلف بن الحسين، وأبى محمد عبد الله بن تفريجين، وأبى محمد المالقى شيخ طلبة الحضر، والقاضى أبو موسى عيسى بن عُمران: قاضى المحلة والجماعة.

المنازل:

وعلى هذا الترتيب كان النزول فى ذلك اليوم الأول فى إحدى الدور المتخذة لأبى يعقوب- إقتداء برسم والده- بوادى تنسيفت، علي حوالى ٣ أميال من مراكش، «وعساكره محدقة به من كل جانب»، هذا، ولا يفوت ابن صاحب الصلاة الإشارة إلى أن السعر فى المحلة الأميرية كان فى تلك الأيام، وفى ذلك اليوم بالذات، رخيصاً- رغم كثرة الناس وزيادة عددهم.

فسعر الربع من الدقيق: ٢ درهم، والشعير (٢٥ مُداً: ١ درهم، واللحم ٦٠ أوقية (٤ أرطال): ١درهم، وذلك ما يستند إليه مؤرخنا (ابن صاحب الصلاة) فى تقرير: قضاء مسائل أهل الحاجات، وكتابة الظهائر لهم، وبالتالى اتصال المسار، وارتفاع المضار- والحمد لله.[١]

وكان الرحيل من تنسيفت فى اليوم الثانى من حركته (الأحد ٥ رجب/١٤مارس)، متنقلاً فى محلاته حيث كان النزول فى داره بدشرجيت، احتل فيها بمن حمل من عياله- على رسم والده.

وارتحل يوم الإثنين (فى المرحلة الثالثة) إلى داره بتونين (بطريق سلا)، ثم إلى توقسطين فى المرحلة الرابعة، وعساكره محدقة به. وفى المرحلة الخامسة كان الوصول إلى وادى أم الربيع، وقد عُقد عليه جسر بقنطرة وثيقة من القوارب، وآلات الخشب الماسكة لها فى عباب الماء. وهناك نزل فى داره (فى رباط تيط) على قرب من القنطرة، حيث صدرت الأوامر بالجواز والتغذية بشكل منظم، كل جماعة تجوز فى يوم محدد- خشية انهيار القنطرة.

ورغم ذلك فقد تزاحم العرب فى الإجازة على النهر حتى انتهى الأمر

(١) المن بالإمامة، ص٤٤١-٤٤٢.

بالتقاتل فيما بينهم، وموت واحد منهم، وكادت تقع بينهم الفتنة، الأمر الذي يُذكّر «بهوشة» البحيرة، أثناء ضيافة العرب في بساتين البحيرة (مما سبق). والمهم أن تلك الفتنة استدعت تدخل الخليفة مرة أخرى، حيث أدى الفدية من ماله الخاص.

وفي منطقة أم ربيع الخصبة، وبمناسبة فتنة العرب أيضاً، أمر أبو يعقوب بالمواساة، من: الشعير والدقيق واللحم وغيرها من الزاد لجميع العساكر، إلى أيام معدودات، ثم سار في المرحلة السادسة على ما هو معلوم من المراحل الآتية حتى وصل داره بوادي وسنات، على مقربة من مكول، حيث أمر للمرة الثانية بالمواساة، من: الشعير للعلف والدقيق واللحم لزاد جميع العساكر، ومن ثم تمادى في مشيته على ترتيبه المعروف حتى قرب في المرحلة السابقة من المهدية (رباط الفتح، الرباط، قصبة الوداَيا).

وفي تلك الأرض العريقة استدار أبو يعقوب بوجهه إلى الناس، وهو راكب على فرسه، فدعا لهم، وأمرهم بالنزول فيها، بينما دخل داره هناك، وذلك في يوم الإثنين ٢٠ رجب ٥٦٦هـ/٢٩ مارس ١١٧١م- فكأنه قطع تلك المراحل السبعة في ١٧ (سبعة عشر) يوماً.[١]

الإقامة برباط الفتح:

وكانت الإقامة برباط الفتح أياماً. وفي اليوم الثاني أمر أبو يعقوب بعرض العساكر وتمييزهم مرة ثانية للتأكد من سلامة الترتيب والتقيد بالنظام. وكان تمييز العرب يتم بمعرفة كل من السيد/ أبي زكريا والفقيه/ أبي عبد الله المالقي، وتمّ ذلك العرض «على أصح عمل»، وكذلك الأمر بالنسبة للموحدين حيث «صح عددهم».

عين غبّولة:

ولما كان ماء عين غبّولة الذي أجراه عبد المؤمن هناك سنة ٥٤٥هـ/

---

(١) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٤٤٣-٤٤٦- حيث هامش على تاريخ مدينة الرباط قديماً وعلى عهد الموحدين.

قد فسد جريه وأسن، كما تعطل فى البطاح والبحائر سقيه، أمر الخليفة- بإعادته إلى حالته الأولى، بل وزاد فيه بناء صهريج عظيم متسع يجتمع فيه الماء، ثم يجرى منه إلى السقاية حيث شرب خيل العسكر ومواشيهم، ومواشى الناس وشربهم.

جسرسلا :

هذا، ولما كان الجسر الذى نصبه أبوه (عبد المؤمن) ما بين سلا والمهدية (الرباط) «قد خرقته البحور وهدمته الدهور»، فإنه أمر «بنصب جسر آخر إلى جانبه أعظم منه بناء وأساساً وإعتلاء، من الحجر العادى والجيار الثابت لأمواج البحار، فصنع فى أقرب مدة، وبأعظم آلة وعدّة، ووصله بالقوارب والخشب، حتى جاء فى أمن له من الأزمان والحقب».[1] والذى يفهم من وصف ذلك الجسر أنه بناء يجمع ما بين بناء القنطرة الحجرية فى طرفيه، وعقد القوارب فى الوسط، مما يسمح بحركة المد والجزر وأمواج البحر.

والمهم أن العرض والتمييز انتهى بعطايا أمير المؤمنين أبى يعقوب، من «الكسوة للموحدين والأشياخ من كل قبيل، لطلبة الحضر والعرب». وكانت هدية الكسوة تحوى ٦ (ستة) أثواب، هى: عمامة، وغفارة، وقبطية مبطنة، ومقطعين مهدويين، بالإضافة إلي الكساء.

هذا، كما خصّ الكثير منهم بالأخبية، وعتاق الخيل، كما ختم بقضاء حوائج الناس، والصدقة على الضعفاء، ومنهم: بعض قدامى أسرى بطليوس [2]. وفداء الأسير البطليوسى فى المعسكر الموحدى، وهو يطلب الفداء، يعنى أنه كان هناك نظام خاص بالأسرى يسمح بإطلاق بعضهم، حسب الاتفاق الشفهى (أو العرف) الموثق بالأيمان المغلظة، فكأنه نوع من الولاء بالنسبة لآسريه من الأسبان النصارى.

وهكذا انتهى العرض والتمييز فى عشية الجمعة ٩ شعبان ٥٦٦هـ/١٨

(١) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٤٤٩-٤٥٠ .

(٢) المن بالإمامة، ص٤٥٠-٤٥١ .

أبريل ١١٧١م، وكان على الشيخ أبى سعيد يخلف بن الحسين التقدم بالموحدين نحو قصر مصمودة (القصر الصغير حاليا- مقابل طريفة) وذلك فى صبيحة السبت ١٠ شعبان/١٩أبريل، وتلاهم تقدم العرب بعد ذلك، بقيادة السيد/ أبى زكريا يحيى. واستمر جواز الموحدين ٥ (خمسة) أيام إلى يوم الأربعاء ١٤ شعبان، ومن ثم تحرك أبو يعقوب بقواته الخلافية للعبور، والتى كانت تتكون من ٢٠,٠٠٠ (عشرين ألف) فارس نصفهم ١٠,٠٠٠ (عشرة آلاف) من الموحدين والنصف الآخر ١٠,٠٠٠ (عشر آلاف) من العرب- وذلك دون المتطوعة من الناس والمجاهدين.

وكان على رأس هذه القوات الملكية: الشيخ/ أبو محمد عبد الواحد بن عمر، والوزير/ أبو العلاء بن جامع إلى جانب الجماعة والحفاظ والطلبة من أهل الحضر، وأخيراً العبيد (من الحرس الخلافى الأسود)- حسبما كانت تقضى تراتيب المشى والحركة.

ونزل الخليفة (يوسف) بقواته وحرسه الخاص فى موضع الحمّام، على مقربة من وادى سبو بالمعمورة. ومن الحمّام واصلت القوات من الموحدين والعرب إلى قصر مصمودة على البحر (فى مقابل جزيرة طريف) حيث المجاز. وابتدأت العساكر بالعبور من أول رمضان ٥٦٦هـ/٨ مايه١١٧١م. وكان عبور الخليفة، بعد عبور العساكر، مع خاصته يوم ٢٧ رمضان/٦ يونيه، وكان فى استقباله على الشاطئ الأندلسى أشياخ أشبيلية وقرطبة، وجميع أشياخ الأندلس، بجزيرة طريف. وكان دخوله أشبيلية فى يوم الجمعة ١٢ شوال (بعد صلاة الجمعة)/١٩ يوليه ١١٧١م- حيث استقبله الناس بمظاهر الطاعة والسرور.

ولما كانت قوات الخليفة هذه، إضافة إلى الجيش الذى سبقت مسيرته مع السيد الأسنى/ أبى حفص (أخى يوسف)، وكذلك الجيش الذى تقدم قبل ذلك بقيادة الشيخ أبى حفص إينتى، فبذلك يكون قد «اجتمع فى الأندلس من العساكر عدد عظيم، وظهر بهم الفتح الجسيم».

وبعد إقامة ١٠ (عشرة) أيام بأشبيلية رحل منها إلى قرطبة فى ٢٣ شوال/٢٩ يونيُه، وكان وصوله إليها فى أول ذى القعدة/٦ يوليه ١١٧١م.[١]

عودة الروح إلى قرطبة: الجهاد فى قلب قشتالة حملة طليطلة

تعتبر الحملة الموحدية الأولى على طليطلة بمثابة كسر لطوق الحصون والقلاع الذى ضربته قشتالة على بلاد المسلمين، على امتداد نهر وادى آنه (guadiana) والذى كان يسمح فى كثير من الأحيان بسياحة جنود الإسترداد «جنوباً إلى تخوم نهر الوادى الكبير، فكأن بعض تخوم قرطبة بل وأشبيلية «أرض حرام» (no mans land) يسمح باجتياحها دون رعاية.

أما ما نعرفه عن حملة طليطلة هذه، والتى لا يحدد ابن صاحب الصلاة لها تاريخاً واضحاً، كما هى العادة فى كل أخباره، فإنها كانت بقيادة: أبى محمد عبد الله بن أبى حفص بن تفراجين، وأشياخ من الموحدين لا ذكر لأسمائهم. وأما أبرز الأعمال التى أنجزها إبن تفريجين، فهو عبور وادى تاجه، الأمر الذى كان محرماً على قوات المسلمين منذ أمد وحين، فكأن الروح قد ارتدت إلى قرطبة، وكأن أمير المؤمنين أبا يعقوب يوسف، يجدد ذكريات الناصر والمنصور.

والحقيقة أن ما حققته الحملة لم يكن أكثر من اجتياح لبطائح عاصمة القوط القديمة (موسطة الأندلس) وغنم ما حواليها، دون الاقتراب من حصونها ومعاقلها- مما لا إشارة له فى الرواية - التى تحمد للقائد الموحدى أن انصرف إلى قرطبة سالماً غانماً- فكأنها كانت الخطوة الأولى فى الطريق الذى لا نهاية له، والقطرة الأولى فى غيث لا رجاء فيه.

وفى هذا المجال نلاحظ أن العسكر الموحدى بقرطبة كان قد استقر فى

---

(١) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٤٥١-٤٥٢، وقارن إبن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص٩٢.

داخل المدينة وفى خارجها، على ضفتى الوادى مدة إقامة أبى يعقوب إلى آخر شهر ذى الحجة/٣سبتمبر ١١٧١م حين انصرف إلى أشبيلية التى اتخذها مقراً.[١]

وكان احتفال عيد الأضحى فى حضرة أمير المؤمنين أبى يعقوب بقرطبة، عيداً يعيد أمجاد العاصمة الأندلسية العتيدة. ففى صبيحة يوم العيد، خرج فى موكبه الوقور إلى الصلاة خارج المدينة حيث الشريعة (مصلى العيد). وكان إمام الصلاة هو الفقيه الشهير: أبو محمد المالقى (مستشار الخليفة). وعقب الصلاة كان دعاء الخليفة المبارك، ومن ثم كان سلام كبار رجال الدولة عليه، من: كبار مشايخ الموحدين، وأبناء الجماعة ومن يليهم فى الرتبة. وبعد أن ذُبح الكبش بين يديه، إنصرف إلى دار الإمارة بقرطبة، كما انصرف العساكر والناس لترتيب عيدهم، على ما جرت عليه السنة.

وفى ثانى أيام العيد جلس الخليفة عند الشروق فى مجلس اليمن من قصره بقرطبة لتلقى السلام والتهنئة بالعيد. وهكذا كان الوزير أبو العلاء بن جامع يقدم للدخول من جرت العادة بدخوله على الإمام، من: أشياخ الموحدين الكبراء وأبناء الجماعة ومن يليهم حسب منازلهم، ومن ثمّ الطلبة والفقهاء والقضاة والكتاب والأولياء وأهل الوفود، ووجوه أهل قرطبة، وكل واحد يعرف باسمه. أما المتميّز من الداخلين فكان الوزير أو المستشار (الملكى) يُعرِّف باسمه ونسبه وبلده، فيبايع ويقبل اليد المباركة للبيعة ويخرج- فكأن الاجتماعات الاحتفالية الكبيرة هذه، كانت مواسم لتجديد الخضوع والطاعة.

هذا، كما دخل الشعراء والأدباء بما صاغوه من الأشعار فى المديح والتهنئة للخليفة العادل ودولة الإيمان والتوحيد.[٢]

---

(١) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٤٥٧.

(٢) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٤٥٧-٤٦٠ . ومما أنشده الشاعر عبد الله بن المتّجلى الشلبى، والوزير ابن جامع واقف يتابع وإلى جواره الكاتب إبن عياش:

شرف الخلافة ان ملكت زمامها   وغدوت من عقب الإمام إمامها
صنع الإلاه حساما ماضيا   يحيى جوانبها فكنت حسامها

أشبيلية نيابة لحضرة مراكش بالأندلس

أما عن استقرار الخليفة أبى يعقوب فى أشبيلية فسيجعل منها نيابة لمراكش العاصمة لمدة حوالى خمس سنوات، إعتباراً من سنة ٥٦٧هـ/٧٢-١١٧١م. ففى خلال تلك الفترة نالت منه عناية قصوى، إذ حباها بالمسجد الكبير والقصر الفخم حتى يمكن القول أنه دمغها بطابعه. وهنا تشير رواية ابن صاحب الصلاة إلى أن أهل أشبيلية لم يضاروا بإقامته فيها مع حاشيته الكبيرة، ولا بما قام من الأعمال المعمارية الضخمة. فهو وحاشيته لم يشغل من دور أشبيلية إلا نحو من ٦٠ (ستين) داراً خصصها لأشياخ الموحدين. هذا إلى جانب شرائه ١٠٠ (مائة) دار خصصها لنزول الوافدين إليه، بمعنى أنه كان يرفق بأهل أشبيلية ولا يحب أن يكلفهم بما يرهقهم مما يتعلق بسكن الوافدين من المغرب أو من عرب أفريقية.[1]

والحقيقة أنه مما يذكر لأبى يعقوب يوسف أثناء إقامته بالأندلس أنه اعتنى بإقرار الموحدين فى مختلف أنحاء الجزيرة الأندلسية بمعنى وضع مقاليد السلطان في الأندلس بين أيدى الموحدين. والظاهر أن مسألة إسكان هؤلاء الوافدين كانت مثاراً لسوء الاستغلال من قبل بعض كبار المسئولين. وهكذا آخذ أبو يعقوب عامله محمد بن أبى سعيد، المعروف بابن المعلم،

=ورأت عداة الله إن حمامها ... من قيس عيلان فكنت حمامها
فعلى رماحك ان تشق جيوبها ... وعلى سيوفك أن تفلّق هامها
وعلى الخلافة أن تلوذ بسيد ... يُجرى على سبل الهدى أحكامها
قُل للأقاصرة الذين تمردوا ... وافى حسم الماردين غمامها
ليس إبن سعد خلف سعدان غدا ... حلف النصارى عاضداً أحكامها
فلسوف يصبح بالقضاء مجدّلا ... إن لم تطهّر نفسهُ آثامها
وبمدللتوحيد كف ضراعة ... بعتاب نفس رافضا إحرامها
أنى يفوقك خائن ولو اعتلى ... دار المجدّ أو ارتقى أعلامها

(عدد الأبيات ٥٠ (خمسون) بيتا).

(١) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٥٢.

المسئول عن أعمال المخزن (أشغال الحكومة) بأشبيلية والأندلس وعزله عنها، وأمر بالسير به إلى قرطبة للتحقيق معه ومحاسبته على سوء استغلال السلطة، كما يقال الآن. هذا، كما عين على أعمال أشبيلية بدلاً من ابن المعلم، أبا داود يلول بن جلداسن.

والمهم أن محاسبة ابن المعلم على أفعاله وأعماله لمدة سنوات سابقة أدت إلى ثبوت خيانته فى الأموال، الأمر الذى أدى إلى إنزال عقوبة الإعدام به.(١)

والمهم أن استقبال الخليفة أبي يعقوب فى أشبيلية كان رائعاً، «لم ير الناس مثله فى الأندلس فى القديم ولا فى الحديث». وفى حفل الاستقبال الذى أقيم بالمناسبة، أنشد الأستاذ ابن سيد يهنئه ويذكر حال ابن مردنيش، ويصف بروز الناس إليه، قائلاً:

السعد يقدم والعزائم تصدق ... والنصر بينهما يحف ويعنقُ

وأمامها ملك أغرّ يحفه ... جيش تغصّ به البلاد وتشرق

جُنّ ابن سعد بالنفاق جنونه ... وطغى إلى أن بات فيه الأونق

أو ما ترى الأيام تندى نُضْرة ... مذ حلّ حمصاً والليالى تشرق

برزوا ليوم برزوه فى عارض ... يعى اللسان بوصفه والمنطق(٢)

هذا، كما أنشد الشاعر أبو العباس الجراوى قصيدة يذكر فيها ابن مردنيش أيضاً، ومنها:

---

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٤٥٢-٤٥٣، حيث الإشارة إلى أنه عندما وصل إبن المعلم إلى قرطبة، جعل لمحاسبته أبو القاسم بن عساكر، وأبو عبد الله محسن كاتب العسكرية، كما استعين بكل من الفقيه أبى محمد المالقى، والكاتب أبى الحكم بن عبد العزيز بالشهادة عليه كخبيرين- ودامت تلك المحاسبة والتقصى إلى آخر شهر ذى الحجة من عام ٥٦٦هـ/٣ سبتمبر ١١٧١م، عند خروج الخليفة من قرطبة إلى أشبيلية. وانظر ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص٩٤- حيث النص على عزل إبن المعلم ومحاسبته، وتقديم إبن جلداسن على عمله.

(٢) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٤٥٣-٤٥٧- حيث القصيدة فى ٣٢ بيتا.

حللت من العلى أسمى ذراها   وجاريت النجوم إلى مداها

لقد أخنى الزمان على النصارى   بوطء مؤيد صدعت صفاها

خطوب أذهلت عقل ابن سعد   وزادت عن لواحظه كراها[1]

---

(١) إبن عذارى، الموحدون (هويثى) ص٩٣-٩٤.

﴿ ٦ ﴾

النقلة من قرطبة إلى أشبيلية
لـــماذا أشبيليـــة؟

بانتـقـال أبي يعـقـوب يوسف من قـرطبـة إلى أشـبـيلـيـة في مطلع سنة ٥٦٧هـ/سـبـتـمـبر ١١٧١م، كـان خليـفـة عـبـد المؤمن الأول (إبنه يوسف) يعترف بصعوبة إرجاع مسار عجلة التاريخ إلى الوراء، بمعنى تقدم عـجلة الاسترجاع الإسلامية نحو الشمال. ولكن الاهتمام بأعمال الإنشاء الكبرى في أشبيلية، من: إنشاء القنطرة على الوادي الكبير، الأمر الذي يعني ربطها بعواصم الأندلس الأخرى، سبيل التعاون فيما بينها، ومن ثم إقامة الجامع الكبير ليضاهي جامع قرطبة أو ليفوقه في نسق جديد من هندسة البناء، وفي النحت والزخرفة، ومثل هذا يقال عن القصر Alcazar (قصر أشبيلية الموحدي). والحقيقة أنه إذا كان اتخاذ أشبيلية كعاصمة للأندلس الموحدية أو نيابة عن الحضرة مراكش، يعتبر من وجهة النظر الاستراتيجية إنكماشاً للأندلس نحو الجنوب الغربي، فإن تثبيت موقع أشبيلية بتلك العلامات المميزة، يعتبر في نفس الوقت تشبثاً بالموقع وبالتالي بالأرض، بمعنى الدفاع الجدي عنها- ليس بالمقاومة فقط، بل وبالرجوع والاسترجاع أيضاً.

فالبناء يعني القوة والتكاتف الجماعي والعمران والنهضة، وما فوق ذلك من الفن والجمال والإبداع، الذي يتطلب الأمن والحماية- وهذا ما سيحاول أبو يعقوب يوسف أن يحققه للحاضرة الأندلسية أشبيلية، بل وما سيدفع حياته ثمناً له في شنترين.

أما عن السبب المباشر لمغادرة الخليفة قرطبة إلى أشبيلية، فهو استقبال أخيه المجاهد السيد الأعلى/ أبي حفص، في الحاضرة أشبيلية. فقد أتت

الأنباء إليه بالإفادة أن أخاه الشقيق كان ينهى الحملة الموحدية فى الشرق بنجاح بعد أن استولى على معظم أراضى إبن مردنيش، ووضع مرسية عاصمة الشرق تحت الحصار، وأنه يريد التبرك بلقاء أخيه الخليفة، ليعرفه بما تمّ على يديه فى غزوته تلك. ولا ندرى إن كان هناك ثمة أغراض خفية أخرى مثل: تفكير الأخ الوزير الحاجب المجاهد فى العودة إلى أشبيلية، واتخاذها مقراً. فكأنه صاحب نيابة الأندلس أو ولاية العهد؟ هذا ما يمكن أن يفهم من استعجال أبى يعقوب بالانصراف من قرطبة إلى أشبيلية، ودخولها يوم الأحد ٢ المحرم ٥٦٧هـ/٢٤ أغسطس١١٧٢م. وتمخضت الرحلة هذه عن صدور الأوامر بإنشاء قنطرة أشبيلية على الوادى الكبير «لمصالح الناس، وإجازة العساكر عليها» بأشبيلية ومنطقة «الشرف» الغربية.

والظاهر أن مشروع بناء القنطرة كان مخططاً له من قبل، فهذا ما يفهم من بدء العمل فيها فى نفس اليوم الذى وصل فيه أبو يعقوب إلى الموقع، وهو يوم السبت المحرم/٢٣أغسطس، يوم حضوره إلى الموقع حيث بدأ العرفاء من: المهندسين والصناع والنجارين بالعمل فيها، بخصوص ما يلزم من الاجتهاد والفتح والاقتصاد، الأمر الذى تم فى أقل من ٤٠ (أربعين) يوماً، حيث النص: فكملت فى اليوم الـ٧ من صفر سنة ٥٦٧هـ/١١ أكتوبر١١٧٢م «وحضر أمير المؤمنين يوم كمالها حتى عقد الجسر منها، ووضع على الوادى فى يوم حفل»، الأمر الذى يوحى بأن مشروع القنطرة كان سابقاً على سنة ٥٦٧هـ/٢٣ أغسطس١١٧٢م، وسط: «قرع الطبول... وحضور الكتائب والجنود وعقد الألوية والبنود».(١)

---

(١) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٤٦١-٤٦٢، وقارن إبن عذارى، الموحدون (هويثى) ص٩٤- حيث النص: «فى هذه السنة (٥٦٧هـ)، كملت القنطرة بأشبيلية، فظهر له منها من الأجر الجزيل والأثر الجميل ما لم يتقدم لمثله لأمير من الأمراء الخلائف، ولا لملك من أهل الطوائف».

عودة السيد الأعلى أبى حفص من غزوة مرسية إلى أشبيلية

وفى ١٥ المحرم/١٩ سبتمبر كان وصول السيد/ الأجل أبي حفص من غزوة مرسية فى الشرق إلى أشبيلية بجميع عساكره، حيث استقبله أخوه الخليفة على ميلين خارج المدينة «بتبريز عظيم، وسرور جسيم، ودخلوا أشبيلية خير دخول». وواضح من انفرادهما «فى السلام والكلام والرأى أياماً» أنه كان بين الأخوين من الخلاف ما لا يريدان أن يطلع غيرهما عليه، فكأن ذيول أزمة الإمارة والخلافة كانت مازالت عالقة بالنفوس، بعد ما يقرب من عشر سنوات طوال. وهذا ما يتضح من سياق رواية رجل البلاط ابن صاحب الصلاة التى تقول: إنهما «إتفقا على الخير الذى نظّم الأمر العزيز نظاما، وأسكنا بالتضامن بينهما الأرواح والأجساما».(١)

وأغلب الظن أن مسألة محمد بن المعلم الذى كان مشرفاً على مبانى السيد الأعلى أبى حفص، التى بنيت على وادى أشبيلية خارج باب الكحل منها، والذى اتهم ابن المعلم من قبل الخليفة وأعوانه بالخيانة فيها، الأمر الذى أوجب محاسبته فى قرطبة، قبل الانتقال إلى أشبيلية، كانت من الموضوعات التى ناقشها الأخوان- وهى أصلاً من الأمور التى تفسر التنافس بينهما على اتخاذ أشبيلية مقراً له.(٢)

هذا، كما ناقشا أمراً خاصاً بأعيان وفرسان الشرق الذين وفدوا مع السيد/ أبى حفص، مهاجرين راغبين فى التوحيد. وتمّت توبة هؤلاء الشرقيين الذين بايعوا أبا يعقوب يوسف، والذى أمر لهم بمراسيم تحرير أموالهم. وهو الأمر الذى كان له صداه فى الشرق الذى أتى أهله «أفواجاً مبايعين حتى انفرد صاحبهم ابن سعد، وتمادى فكرّ إلى القبر واللحد».(١)

(١) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٤٦٢، وقارن إبن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص٩٤- حيث النص على وصول السيد أبى حفص من غزاته إلى أشبيلية منصوراً، واجتمع بالخليفة بها على سرور كامل، وبروز لم يعهد فى الأيام الأوائل.

(٢) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٤٦٤-٤٦٥ .

والمهم أن الأخوين الملكيين تجاوزا ما كان بينهما من خلاف حول الاستئثار بأشبيلية، كما نرى واتفقا على أن يكون هدفهما المشترك هو: «النظر لحماية جزيرة الأندلس». وفى هذا المجال كان «أول ما نظروا فيه هو التعجيل فى إمداد بطليوس بما كانت تحتاجه من الميرة»، من: القمح والشعير والآلات المعينات والأقوات التى بلغت ٤٠٠٠ (أربعة آلاف) بغل. وسارت حملة التموين هذه تحت حراسة مشتركة مشدّدة، من: عسكر الموحدين والعرب. وهنا ظهرت أهمية قنطرة أشبيلية الجديدة التى جازت عليها القافلة، فى اليوم الثالث من إكمالها فى ٨ صفر ٥٦٧هـ/١٢ أكتوبر ١١٧١م. وكان وصول القافلة إلى بطليوس إحياء للمدينة، التى كانت قد أصبحت منطقتها «أرضاً حراماً».

ومن المهم الإشارة هنا إلى أن حملة التموين هذه أنجزت نصراً عسكرياً جانبياً، وذلك بالاستيلاء على حصن لبيون (Lebion) المجاور لبلطيوس، وذلك بنصيحة من أبى العلاء بن عزّون. فلقد كانت فى ذلك الحصن بقية من الأسبان المسيحيين، «فاجتمع لهم (الموحدون) خيران وفيران ونصران».(٢)

بساتين البحيرة بأشبيلية:

هذا، كما صدر فى نفس هذا الوقت الأمر ببناء قصور أبي يعقوب يوسف المعروفة بالبحيرة (تيمناً ببحيرة مراكش الشهيرة)، وذلك خارج باب جهور من أشبيلية، وذلك فى الموضع المعروف قديما بلُقم فرعون.

وكان المشرف على البناء أبا القاسم الحوفى القاضى، وأبا بكر بن الجدّ، اللذين عرفا بالأمانة والديانة، ومعرفة المساحة والتكسير والفلاحة. هذا، كما كان عليهما أن يتخذا فى الأراضى المتصلة بتلك القصور والمبانى: مغارس الزيتون والأشجار والأعناب، والفواكه العجيبة، من كل الأنواع. ونفذ الأمر التالى كذلك إلى أهل الأنظار «بالشرف» بقلع أصول الزيتون المختارة من الألوان بمال المخزن، واستجلابها إلى البحيرة المذكورة

---

(١) المن بالإمامة، ص٤٧٠ .

(٢) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٤٦٢-٤٦٣ .

للإغتراس. فجلبوا عشرات الآلاف، فغرست على نسق عاماً بعد عام. وكل ذلك تحت إشراف الخليفة نفسه.

هذا وكان الإشراف على بناء قصورا لبحيرة خاصاً بالعريف ابن أحمد بن باسه، عريف البنائين بالأندلس، «فجاءت من الحسن بما يحار فيه الوصف... أربت على مبانى الخورنق والسدير». وجعل لها أسواراً محيطة بالطابية (البتون Béton) من كل الجهات. أما المسئول عن غرس تلك البحيرة فكان الشيخ: أبو داود يلول إبن جلداسن، مشرف أشبيلية وأعمالها، وأمين أمير المؤمنين.[١]

وبعد ذلك، صدرت الأوامر العالية إلى عمال غرناطة ووادى آش «أن يجلبوا لبحيرة أشبيلية وبساتينها، هذه، ضروب الأجاص المسمى عند الأطباء بالكمثرى، وكذلك الأجاص المسمى بالعَبْقر والأزره، والتفاح». وكان المسئول عن الإشراف على كل ذلك هو الوزير ابن جامع وابن يحيى، وذلك من شروق الشمس إلى الغروب. والمهم أن تلك البساتين أحيطت بالجدران العالية من الجهات الأربع «لحمايتها ولكنّها من الإذاية».[٢]

مشروع المياه الجارية فى البحيرة وفى أشبيلية: المدينة

بعد إنشاء بساتين البحيرة الشاسعة، كانت مسألة إمدادها بالماء الجارى موضع نظر المسئولين. والظاهر أن الفكرة أتت أصلاً كعملية إحياء لساقية (قناة مرصوفة) قديمة قرب مدينة قرمونة (شمال شرق أشبيلية). ويرجع الفضل فى إحياء تلك القناة الإصطناعية، الرومانية أصلاً، إلى «الحاج المهندس يعيش»، الذى تتبع رسم القناة بالحضر بالعدانين والفعلة بالمئات

(١) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٤٦٤-٤٦٧- حيث أنه كان تحت نظر ابن جلداسن وعمله: تقييد الإتفاق فى الاغتراس والبناء بالشهادة على ذلك فى كل يوم، وذوات أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين وعبيده ينقلون عليها الأحجار والآجر والجيار، والثمار والأشجار.

(٢) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٤٦٧-٤٦٨- حيث: فكانت تصل بذلك القطار إثر القطار، بجميع الثمار المختارة للإغتراس والإثمار.

من الرجال والفنيين (الخدام) حتى وصل إلى المنبع فى الموقع المعروف «بعين الغبّار»، حيث اتضح للحاج يعيش أنها فى الحقيقة موضع فتق فى طريق السرب القديم، فتتبعه فى الوادى إلى قرب قلعة جابر، جنوب أشبيلية «فوزن فى ذلك الموقع، وساقه على وزنه من الأرض حتى البحيرة المذكورة». فكان إنجازاً عظيماً سُرّ له أمير المؤمنين يوسف الذى أمر بإجراء ذلك الماء إلى داخل أشبيلية بالقصور، ولشرب الناس ومرافقهم، على أوفى الفضل منه بكمال الهندسة والتدبير.

وهكذا كان إجراء الماء فى أشبيلية يتم رسمياً فى حفل كبير، فى حارة ميور (Mayor) يوم السبت ١٥ جمادى الآخر سنة ٥٦٧هـ/١٤ فبراير ١١٧٢م، وذلك بحضور أمير المؤمنين يوسف، وعسكر من كبار الموحدين والفقهاء والطلبة. وحيث «ضربت الطبول على إجرائه، والسرور موصول إلى محبسه، وإنتهائه بداخل أشبيلية بحارة مَيور يوم السبت ١٥ جمادى الآخر سنة ٥٦٧ هـ/ ١٤ فبراير ١١٧٢م، وذلك بحضور أمير المؤمنين يوسف، وعسكر من كبار الموحدين والفقهاء والطلبة. وحيث ضربت الطبول على اجرائه، والسرور موصول إلى محبسه، وانتهائه بداخل اشبيلية بحارة ميور المذكورة.[١]

المسجد الجامع الكبير بأشبيلية:

ومن أهم الأعمال العمرانية التى قام بها أبو يعقوب يوسف فى أشبيلية، والتى ظلت بقاياها مفخرة للمدينة العتيدة حتى اليوم، هو بناء الجامع الموحدى الكبير بها. والحقيقة أن حاجة المدينة إلى جامع كبير كانت ماسة، وقتئذ، بعد أن ضاق جامعها المعروف «بجامع ابن عدبّس»، بمعنى أن أشبيلية كانت تنتقل فى عصر الموحدين من مدينة إقليمية إلى مدينة الأندلس المركزية بدلاً من قرطبة، فكأن مسجدها هو الآخر كان يحل محل جامع قرطبة العريق (الذى إبتلع الكتدرائية التى أقيمت فيه بعد «الاسترداد» فلم يبق منها إلا الجامع: La Mezquita).

---

(١) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٤٦٨-٤٦٩.

ولقد بدأ تخطيط موضع الجامع فى شهر رمضان (المبارك) سنة ٥٦٦هـ/مايُه١١٧١م، وذلك فى مكان الديار التى هدمت بداخل القصبة (القلعة)، وكان ذلك تحت إشراف شيخ العرفاء: أحمد بن باسه، وأصحابه العرفاء البناؤن من أهل أشبيلية، بل ومن جميع عرفاء الأندلس وكذلك العاصمة مراكش، الأمر الذى يوحى بأن ابن باسة ربما كان مهندس كتبية مراكش، قبل جامع أشبيلية. ولا نريد القول أن ابن صاحب الصلاة يبالغ عندما يضيف إلى ذلك عرفاء مدينة فاس وأهل العدوة، وأنه اجتمع بأشبيلية من أصناف النجارين والنشارين، والفعلة لأصناف البناء أعداد من كل صنف: صناع مهرة فى كل فن، فنقلل من قيمة التحفة المعمارية الموحدية الأشبيلية التى تسمح بمثل تلك المبالغات.

وإذا كان ابن صاحب الصلاة يجعل تدين يوسف وكأنه الدافع إلى بناء الجامع الأشبيلى إلا أنه لا يغيب عنه أن الهدف الملموس من بناء الجامع هو تمصير أشبيلية، والسكنى بأشرف مرأى ومسمع، بدلاً من الجامع الصغير الذى كان موجوداً بالقصبة، والذى ضاق بالموحدين عندما تكاثروا. وكذلك الأمر بالنسبة لجامع ابن عدبّس الذى ضاق بأهل المدينة حتى «صلوا فى رحابه وأفنيته وفى جوانب الأسواق المتصلة به، فيبعد التكبير بالفريضة، فربما فسدت صلاتهم».[١]

وفى طريقة البناء يقول ابن صاحب الصلاة أن أساس الجامع على «الماء (الجوفى) بالآجر والجيار والحصى والأحجار على أعظم البناء والاقتدار»، الأمر الذى سمح بالقول إن عقود أرجل بلاطاته (أروقته) تحت الأرض أطول مما فوق الأرض. وهكذا كان ما جمع عليه الرجال من الآلات والخشب المجلوب من سواحل العدوة مما يسمح بالقول: «بما لم يقدر عليه ملك من ملوك الأندلس قبله».[٢]

أما عن البناء الذى بدأ فى رمضان سنة ٥٦٧هـ/أبريل-مايُه ١١٧٢م

(١) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٥٧٤-٥٧٥.

(٢) المن بالإمامة، ص٤٧٦.

(أي بعد سنة من التخطيط)، فلم يتوقف صيفاً ولا شتاء طوال السنوات الأربع التى قضاها أبو يعقوب يوسف بأشبيلية، إلى أن كمل بالتسقيف. وجاء فى أبهى المنظر الشريف، وأعجز فى بنائه من تقدمه... وقارب به جامع قرطبة فى السعة.(١)

وكان الناظر على البناء هو العريف أحمد بن باسه، وصاحب تقييد الأنفاق: أبو دواود يلول بن جلداسن، خاصة أمير المؤمنين، ومشرفه على الأعمال. ومن الحفاظ على هذا البناء: أبو بكر بن زهر (ت بمراكش ٥٩٥هـ/سبتمبر١١٩٩م)، وأبو بكر البناقى، ثم أشركهم النظر: عبد الرحمن العنسى الغرناطى، فظهرت على كتابه وأصحابه خيانة، فعزل وعزلوا واستبدلوا. ورجع النظر إلى أبى داود ابن جلداسن.

وكانت سرب المدينة تشق بحريها «تحت الأرض على مواضع إختطاط الجامع فنكبّت عنه، وصرفت إلى جهة الجوف... وعمل أعداد من الرجال على أوثق البناء تحت الأرض».

أما عن القبة على المحراب، فقد إهتبل العرفاء فى بنائها وفى العمل بصنعة الجبس (المقرنص)، والأقباء بالبناء ونجارة الخشب بغاية الاحتفال».

أما الساباط (الممر المسقوف) المعد لخروج الخليفة من القصر إلى الجامع، فهو مقبو يسار المحراب لشهود صلاة الجمعة. أما حجرة المنبر فتقع على يمين المحراب، وهى مقبوة السقف. والمنبر من أغرب ما قدر عليه الفعلة، عجيب الشكل، إتخذ من أكرم الخشب، مفصلاً منقوشاً، مرقشاً محكماً بأنواع الصنعة والحكمة... مرصعاً بالصندل، مجزعاً بالعاج

(١) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٤٧٦- حيث النص مرة أخرى على أنه «ليس فى الأندلس جامع على قدره، وسعته وعدد بلاطاته. وعن دراسته بعد تحويله إلى كتدرائية» انظر ديبلا فوا، مجموعة «فن واحد»، إسبانيا والبرتغال، باريس ١٩١٧، ص١٤٩ أو شكل ٢٩٨.

Ars= Una, Espagne et Portugal, par Marcel Dieulafoy, P. 149 fig. 298.

والأبنوس، يتلألأ كالجمر بالشغل، وبصفائح الذهب والفضة. أما المقصورة فهى من أحسن الخشب.

وكان الخليفة يتطلع بناءه أكثر الأيام بنفسه، ومعه السيد الأعلى أبو حفص مع أعلام إخوته وأشياخ مملكته ووزيره ووجوه رجاله من طلبته وأهل دولته، وهو يحثهم بالجدّ فى البناء، والوثاقة فيه والاستعلاء، والعكوف بعمل الأمانة والديانة، وترك الأهواء، ويعطيهم البركات، ويعدهم بالصلات حتى إنكملت جهاته الأربع بالبناء، وعقد الأقواس منه بالأقباء، وكمل التسقيف.

ثم حان انصراف أمير المؤمنين أبى يعقوب إلى حضرته مراكش فى ١٤ شعبان ٥٧١هـ/٢٨ فبراير ١١٧٦م، وأمر بتسريح العرفاء والبنائين والصناع إلى مواطنهم، فكانت «ورشة» العمل دائرة فى البناء لمدة ٣ (ثلاثة) أعوام و١١ (أحد عشر) شهراً قمرية.

إنتقال الخطبة من جامع عدبّس إلى الجامع الجديد الكبير بالقصبة

لما انصرف السيد/ أبو إسحق إبراهيم (ابن الخليفة) من زيارة أبيه من حضرة مراكش إلى أشبيلية يوم السبت ١٨ من ذى الحجة/٢٤أبريل (٥٧٧هـ) أنفذ أمر أبيه من إلزام الناس حضور صلاة الجمعة والخطبة فى الجامع المذكور (جامع القصبة). وكانت أول خطبة على منبره يوم الجمعة ٢٤ من ذى الحجة المذكور/٣١ إبريل العجمى سنة ٥٧٧هـ/مايه١١٨١م، وأول خطيب: أبو القاسم عبد الرحمن بن عُفَيْر اللبلى. وبذلك ارتفعت الخطبة من جامع عدبّس، وأزيل منبره من موضعه إلى جانب الحائط الغربى.[(١)]

أما عن صومعة (مئذنة) جامع أشبيلية المعروفة اليوم بالجيرالدا، فإنه

(١) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٤٧٩-٤٨٠- حيث «وكانت المقصورة قد أزيلت أيضاً من موضعها عنه قبل ذلك، وفرّقت فى بلاطات السقائف الجوفية (الشمالية) والشرقية، وذلك يوم الجمعة ١٩ شعبان ٥٧٠هـ/١٥ مارس١١٧٥م (وكان القاضى عمر بن عدبّس إبتناه سنة ٢١٤هـ/١١٢٩م) وهنا يقدم إبن =

لن يبدأ العمل في بنائها إلاّ في سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م [1]، وذلك بأمر الخليفة أبي يعقوب يوسف، وبمناسبة غزاته الأخيرة لشنترين، وذلك مع بناء سور حصين حول قصبة أشبيلية، وعلى أن تكون الصومعة ضمن سور القصبة، فكأنها ذات وظيفة مزدوجة: دينية- عسكرية، هذا،كما أمر يوسف أيضاً ببناء دار للصناعة (صناعة السفن) متصلة بسور القصبة أيضاً، على الوادى الكبير، بباب القطائع (السفن).

ولكنه شاءت الأقدار أن يكون باني تلك المجموعة المعمارية الخاصة بقصبة أشبيلية هو الخليفة الثالث أبو يوسف يعقوب (بن يوسف) المنصور، الذي ولي بعد إستشهاد والده في شنترين، كما كان قد سبقه إلى دار البقاء أيضاً المهندس المعمارى الكبير ابن جلداسن الذى كان قد عهد إليه بتنفيذ بناء تلك المجموعة الأثرية الرائعة. وسيستمر أبو يوسف يعقوب المنصور فى سياسة والده فى تمصير أشبيلية، وذلك ببناء الأسواق حول الجامع، إلى جانب ترميم جامع ابن عدبّس (مما يذكر فيما بعد).

إزدهار أشبيلية علامة إستقرار الأندلس

توحيد الشرق ونهاية بنى مردنيش

كان وصول السيد أبى حفص إلى أشبيلية فى أول سنة ٥٦٧هـ/سبتمبر ١١٧١م، والموحدون يشددون الحصار على مرسية، بشارة ببداية النهاية بالنسبة لمحمد بن سعد بن مردنيش، الذى كان قلّ أصحابه واختل ذهنه

= صاحب الصلاة ملاحظة منهجية طالما طبقها، وإن وضعها تحت عنوان: «والحديث شجون: يوجب إدخال ما تقدم مع ما تأخر»، وهى فكرة ترابط الأحداث زمنيا بشكل لا ينفصم، وفى ذلك نقول: إنه وجد فى أحد بلاطات جامع عدبّس كتابة بخط قديم فيه: «يرحم الله الإمام عبد الرحمن ابن الحكم، الأمير العدل، المهتدى، الآمر ببناء هذا المسجد على أيدى عمر بن عدبّس، قاضى أشبيلية سنة ٢١٤هـ/٨٢٩م. وكتب عبد البر بن هارون (عامل من عمال البناء) ووصل الأمر (أمر أمير المؤمنين أبى يوسف بقراءة سورة إذا جاءك المنافقون فى الركعة الثانية من صلاة الجمعة، فصلى بها الخطيب يوم الجمعة ١١ ربيع الأول سنة ٢٩١هـ/٤ فبراير سنة٩٠٤م.

(١) ابن عذارى (هويثى) ص٩٥.

حتى أوقع بكبار رجال دولته من الوزراء وحتى «انفرد عنه أخوه وأصهاره، ومن ظن أنه أنصاره، ومنهم أبو الحجاج يوسف أخوه الذى دعا إلى «الإنابة، والمبادرة إلى التوحيد».[١] هذا، إلى جانب الأعداد الكبيرة من أعيان الشرق الذين هاجروا إلى أشبيلية طائعين.[٢]

وهكذا، عندما تحقق ابن مردنيش من ذلك زادت عليه علّته، ومن ثم حضرت منيته، فتوفى فى ١٠رجب سنة٥٦٧هـ/ ١٠ مارس١١٧٢م، وله من العمر ٤٨ سنة- وبذلك انقرضت أيامه ودولته. وهكذا بادر قواده وأشياخه بالطاعة، وألزموا ابنه هلال بن محمد بن مردنيش بمخاطبة الخليفة يوسف بالطاعة والدخول فى التوحيد، ومن ثم الحركة إلى الحضرة بأشبيلية للمبايعة، مع ظهور هلال رمضان ٥٦٧هـ/إبريل١١٧٢م.[٣]

ومن ثم انفصل هلال بن مردنيش مع أصحابه، فأنزل هو فى قصر محمد بن عباد، «الرفيع الشأن العظيم البنيان»، وأنزل أصحابه فى الدور المتصلة به. وقد أعدت لهم الفرش والبسط والمطاعم والمكارم والمشارب. وأفهموا

---

(١) المن بالإمامة، ص٤٧١ .

(٢) المن بالإمامة، ص٤٧٠ .

(٣) المن بالإمامة، ص٤٧١-٤٧٢، حيث مبادرة هلال بعد موت والده واستقرار الشيخ أبى حفص بمرسية وتملكه لها، فوصل (هلال) مع جميع إخوانه وأصحاب أبيه القواد والكبراء من أهل الثغور، وذلك فى آخر شعبان من عام ٥٦٧هـ/٢٦ ابريل ١١٧٢م، فأخرج الخليفة إلى لقائه أخاه السيد/ أبا زكريا (صاحب بجاية) وأخاه أبا إبراهيم إسماعيل مع علية أبناء الجماعة من الموحدين فتلقوه على أميال من أشبيلية، ودخل فى صحبتهم إلى القصبة حيث استقبلهم الخليفة فى مجلسه قرب المغرب، فطلع فى الحين هلال رمضان المعظم (من عام ٥٦٧هـ/٢٧ أبريل سنة١١٧٢م. وسلّم هلال بن محمد بن مردنيش على الخليفة أبى يعقوب، وبايعه فى حضرة السيد الأعلى/ أبى حفص وجمع إخوته السادات، والأشياخ الموحدين، وطلبة الحضر. وفى هذا اللقاء قال القاضى أبو موسى عيسى بن عمران: «طلع علينا فى هذه الليلة هلالان: رمضان وهلال هذا بالطاعة، فاستحسن أمير المؤمنين كلامه.

أنهم الأقارب الأصحاب، ورحبت بهم المملكة الخلافية والدولة الإمامية.[١] وهكذا، تسلم منهم عواصم الشرق، وهى مرسية وبلنسية وجيان وغيرها، كما تزوج اختهم.[٢]

(١) نفس المصدر السابق، وقارن ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص٩٥-٩٦.

(٢) والنويرى، نهاية الأرب، أبو ضيف، ص٤٣١، وانظر إبن خلكان، ج٧ ص١٣١، حيث وفاة إبن مردنيش فى ٢٩ رجب ٥٦٧ هـ بمرسية.

٧

بيعة أجناد الشرق الواصلين مع هلال بن مردنيش

وفى صبيحة أول رمضان- أى اليوم الثانى لمبايعة هلال وأتباعه- كانت بيعة أجناد شرق الأندلس من أصحابه- حيث أخطر أشياخ الموحدين وطلبة الحضر، وجميع الناس لحضور تلك البيعة. وحين جلس الخليفة فى مجلسه العالى، خرج الوزير أبو العلاء بن جامع، وأمر الوافدين بالدخول عليه، «فسلموا سلام جماعة، ثم بايعوا: واحداً واحداً، وكان يقدمهم شيخهم: أبو عثمان سعيد بن عيسى، كبير الأجناد المذكورين، وصاحب الثغر، والتزموا الطاعة».

والمهم أن أجناد الشرق المجاهدين حقاً، لم يلبثوا أن اقترحوا على الخليفة القيام بغزو من جاورهم من بلاد الأسبان المسيحيين، وحدّدوا مدينة وبــذة (Huete : ما بين قونقة وأقليش) قرب الروافد العليا لوادى آنه. وبينوا أنها أيسر البلاد للفتح، إذ هى: «حديثة البنيان، قريبة الإسكان»، كما وضحوا أن «سورها غير ممتنع، وأنها دون باب ولا حجاب». ولقى الاقتراح الشجاع قبولاً من لدن الخليفة أبى يعقوب، والواضح أنه أراد أن يوثق العلاقة بهم، فوعدهم بتحقيق رغبتهم هذه بمجرد نهاية شهر الصوم. ولما كان هلال بن محمد بن مردنيش قد أنزل البارحة بقصر العباديين، بينما أنزل أصحابه بقربه فى ديار القصر، فقد تولاهم أبو يعقوب يوسف برعايته، «فتوالت عليهم البركات (الأرزاق أو الهبات)... حتى نسوا ما كانوا فيه فى عهد رياستهم... فاغتبطوا غاية الاغتباط، وظهر على وجوههم، وهيآتهم آية النشاط».[1]

(١) المن بالإمامة، ص٤٧٣-٤٧٤، وقارن ابن عذارى، والموحدون (هويثى)، ص٩٤-٩٥.

حملة فى عمق قشتالة: غزو وبذة (Huete)

غزوة وبذة التى أوحى بها فرسان الشرق إلى الخليفة أبى يعقوب يوسف فى أقصى الشمال الشرقى من إيبيرية، ما بين الروافد العليا لنهر تاجه ومنابع وادى آنه، فى غرب قونقة، على الروافد العليا لنهر (وادى) شقر، تعتبر الغزوة الأولى لأبى يعقوب يوسف، وهى من حيث الأهمية النسبية تذكر بغزوات ملوك الإسترداد الكبيرة فى الجنوب الأندلسى، مثل: الفونس الأراجونى المحارب. وهى من هذا الوجه تعتبر رداً مناسباً من جانب الموحدين على مثل تلك التحرشات الأسبانية.(١)

والمهم أن أبا يعقوب يوسف خرج من حضرة أشبيلية لتلك الغزوة عند تحسن الأحوال الجوية، وذلك فى نهاية الليل من يوم الإثنين ١١شوال/ ١٥مايُه العجمى سنة٥٦٧هـ/١١٧٢م، وكان الوصول إلى قرطبة فى تمام الأسبوع، وذلك يوم الأحد ١٧ شوال، حيث كان النزول فى جبل فحص السرادق المطل على أبراج أرض الزاهرة (مدينة المنصور العامرى). وفى اليوم التالى كان الوصول إلى قصر قرطبة حيث أقام لمدة ٨(ثمانية) أيام من أجل ترتيب أمور الغزوة. وهكذا خرج يوم الإثنين ٢٥شوال/٢٣يونيُه، وسلك الطريق إلى القصير (Alcocer)، ومرّ بأندوجر، ومن ثم نزل فى بياسة (Baeza) حيث تلقاه ابن همشك، وهو ينصرف من حصار حصن بلج (القشتالى) العظيم الامتناع والشاهق البنيان.(٢)

إستسلام حصن بلج (Vilches):

وعندما اجتمع ابن همشك بأمير المؤمنين يوسف وحرضه على الحضور على حصن بلج هذا وحصاره، وعندما حصرت القوات الموحدية الحصن

---

(١) هذا ولابأس من الإشارة هنا إلى ما يقوله عبد الواحد المراكشى، من أنه عندما استوثق ليوسف الأمر فى سنة ٥٦٧هـ/٢-١١٧١م، بدا له أن يعبر إلى جزيرة الأندلس قصد غزو الروم ظاهراً، مبطناً إتمام تملك جزيرة الأندلس- المعجب، ص٢٤٨.

(٢) ابن صاحب الصلاة، ص٤٨٩- حيث: وقد كان ابن مردنيش أعطاه للنصارى رداً على توحيد إبن همشك وأملاً فى التضييق عليه.

هالها منعته، كما «هال النصارى كثرة أعداد المسلمين»، الأمر الذى أدى إلى إستدعاء الأعداء لابن همشك وإعلانهم الرغبة فى أخذ الأمان لهم على أن يتركوا الحصن، وذلك فى صبيحة السبت ٣٠شوال/٤ من ذى القعدة. وكان من الطبيعى أن يوافق أمير المؤمنين على جلاء العدو عن الحصن، وهو الأمر الذى تم فى التو واللحظة فى ضحى يوم السبت نفسه، وبذلك آلت السيادة على حصن بلج الحصين إلى الموحدين مع وضعه تحت إشراف ابن همشك.(١)

الطريق إلى وبذة

والمهم فى وصف الطريق إلى وبذة أن منّ ابن صاحب الصلاة يمثل الرواية الخبرية التى ترقى إلى مستوى أخبار «الأيام» التى تمثل شهادة العيان التفصيلية التى لا تترك شاردة ولا واردة من الأحداث، زمنية كانت أو موضوعية، إلا وذكرتها.

وهكذا كان الطريق من حصن بلج إلى وبذة يستهدف المرور بمناطق: حصن الكرس (Alcaraz) الذى استغرق الوصول إليه أكثر من ٣ (ثلاثة) أيام فيما بين يوم الإثنين وضحوة الجمعة (٦ من ذى القعدة/٢يوليُه١١٧٢م) حيث كان الاستيلاء عليه برغبة أهله عند صلاة الجمعة. وبذلك دخل الحصن فى أملاك الموحدين تحت إشراف ابن همشك. وهكذا تم استرجاع الحصنين الذين أهداهما كل من ابن همشك وابن مردنيش لنصارى الريكونكيستا. وذلك فى منطقة الأرض الحرام بين بلاد المسلمين وبلاد النصارى، حيث يعرف الطريق حينئذ باسم «بلاط الصوف» (Belazate)، وهو المتصل ببطاح مدينة جنجالة (Chinchilla) من حيث كان الوصول إلى موضع الغُدُرْ (Algodor)، وهو رأس وادى آنه، من حيث المجرى إلى مدينتى بطليوس ومرتله ومن ثم نظر باجة.

---

(١) المن بالإمامة، ص٤٨٧-٤٩٠.

وكان النزول فى بلاد صوف يوم الأحد وحتى ظهر الإثنين حيث تزوّد الناس بالماء إلى مرج البسيط حيث كانت الإقامة يوم الثلاثاء ١٠ من ذى القعدة، وكان الوصول فى اليوم الثانى (الأربعاء) إلى وادى جزيرة شوقر حيث شرب الناس ودوابهم ومواشيهم.

وكان الوصول إلى وادى شُقر يعنى نهاية الأرض الحرام (nomans' land)، الأمر الذى كان يقتضى اتخاذ الأوضاع العسكرية المناسبة للقتال فى أرض العدو بعد الاستيلاء على حصونه المتقدمة. وهكذا، وبعد أن استراح الرجال يوم الأربعاء، كانت المسيرة يوم الخميس١٢ ذى القعدة حيث كان شرب العسكر، والذى أعقبته صدور الأوامر للسيد الأسنى أبو سعيد بالتقدم بعسكر ضخم من الموحدين والعرب والأجناد والرجالة، إلى جانب حوالى ١٢,٠٠٠ (إثنى عشر ألف) فارس «ليغيروا على أول بلاد النصارى، بجهة وبذة».

وكان مسير السيد/ أبى سعيد إسراء (ليلاً) بصحبة أبى العلاء بن عزون مستشار الدولة برجاله، وكذلك الأمر بالنسبة لابن همشك، وكان الأمر «أول فتح للموحدين فى أول عمائر بلاد النصارى»، وهو حصن بموضع من مرج خمل، حيث قتل رجاله، وسبيت نساؤه وأبناؤهن، وذلك يوم الجمعة ١٣ من ذى القعدة، حيث أرسلت البشائر إلى الخليفة أبى يعقوب يوسف، فى مؤخرة الجيش.

أما عن أهل وبذة فإنهم لم يأخذوا حذرهم بالإعتصام وراء أسوارهم، بل إنهم جاءوا فى إثرهم، وخرجوا بخيلهم ورجالهم للقاء الموحدين، حيث دارت الحرب بين الطرفين غير بعيد من أسوار المدينة. هذا، وإن كان العرب بحرب الكر والفر التى يألفونها- كما نرى- قد خرجوا على النظام حسبما يشير النص إلى ذلك، الأمر الذى تطلب لفت أنظارهم. وانتهى القتال بانفصال الطرفين المتحاربين.

وهكذا بات العسكر الموحدى ومعهم السيد/ أبو سعيد «فى موضع

نزولهم بالجبل المطل على مدينة وبْذَة، إنتظاراً لوصول أمير المؤمنين أبى يعقوب يوسف والذى كان فى يوم الثلاثاء ١٧ من ذى القعدة/ ١٤ يوليُه١١٧٢م».[١]

معركة وبذة (Huete)

ضرب الحصار على المدينة

التعبئة :

عندما اقتربت القوات الموحدية من وبذة صدر أمر الخليفة أبى يعقوب يوسف بالتعبئة العامة، من: الموحدين والعرب من أجل الحصار. فانحازت القبائل المختلفة بعضها إلى جانب بعض وتميّزت الفرق المختلفة بالشارات والشعارات الخاصة بها. ومن ثم صدرت الأوامر بالصعود إلى الجبل المطل على وبذة، فسارت العساكر تحت قيادة السيد/ أبى سعيد عثمان محاطاً بعسكره الخاص حيث استقر فى مركز القيادة بمحلته في سفح الجبل. بينما استقر أبو يعقوب يوسف بصفته الخليفة، وبكتيبة «حرسه المنصورة»، فى ساقة الجيش، محاطاً بأبناء الجماعة وأبناء خمسين وأهل الدار والعبيد. وخلفه السيد الأعلى أبو حفص (أخوه) وسائر السادات (الإخوة) والرايات تتبعهم على عادتهم، مع ١٠٠ (مائة) طبل تضرب.

وهكذا استقرت الحملة الموحدية بجبل وبذة والرجال يطلّون على المدينة بالرماح الطوال، وغلائل الدروع، والبيض (على الرؤوس) والدرق (أمام الصدور)، والرايات خفّاقة والعلامات أعلى الهامات على أتمّ السلاح وأعمّ الصلاح.[٢]

والصعود فوق الجبل يعنى اتخاذ موقف دفاع منيع ضد احتمالات المفاجأة من قبل العدو، أما من الناحية الهجومية، كما فى ميدان وبذة،

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٥٩٠-٥٩٢، وقارن ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص٩٦؛ وابن خلدون، ج٦ ص٢٤٠- حيث: منازلة رندة بدلا من وبذة- ربما نقلا عن ابن الأثير

(٢) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة؛ ص٤٩٢-٤٩٣.

فيعنى أن خطة القتال تتمثل فى إكتساح ضواحى المدينة، وبالتالى تجريدها من دفاعاتها الأمامية فى اكتساح يشبه الموج من الغارات المتوالية من فرق الجيش الموحدى المختلفة.

التقدم نحو الربض :

وهكذا بدأ الهجوم فى ١٧ من ذى القعدة سنة ٥٦٧هـ/١٣ يوليُه١١٧٢م، على أطراف وبذة، بالتكبير على المدينة بأعلى الأصوات وبالتوحيد، مع ضرب الطبول إيذاناً بالتقدم نحو العدو، «واتصلت الحرب بين المسلمين والنصارى الذين أذهلتهم المفاجأة، فغلب المسلمون على ما كان لصق سورهم، وداخل أرباضهم ودورهم، وحرّقت وهدمت».

وبهذا التقدم من أسوار وبذة نزل الموحدون بأخبيتهم من ظهر الجبل إلى مزارع المدينة وبساتينها المتصلة بالجنات والكروم. وعن هذا الطريق نجحوا فى قطع ماء الوادى (النهر) عن المدينة، كما حُرم أهلها من ثمار جناتهم.

أما عن مركز القيادة ومحلة الأمير فقد نُقلت إلى رأس الجبل، وهى تزهو بلونها الأحمر، ويحيط بها الحرس الخلافى من جميع العساكر.[١]

التخطيط للقتال :

وفى عشية ذلك اليوم عقد أبو يعقوب يوسف مجلس مستشاريه من أشياخ الموحدين، وانتهت المذاكرة معهم فى كيفية قتال أهل وبذة المعتصمين بتحصينات مدينتهم ودفاعاتها. وتقرر أن يقوم السيد الأعلى/ أبو حفص ومعه إخوته وبنو الجماعة وأشياخ الموحدين ومن أشياخ الأندلس: أبو العلاء بن عزون وإبراهيم بن همشك بتكوين لجنة تنظر خطة مقبولة للعمل. وقامت تلك اللجنة- وسط إجراءات أمن مشددة- بالطواف حول جوانب المدينة المربعة، وانتهى الرأى إلى تقسيم محيط المدينة وأسوارها إلى ٧ (سبعة) مناطق، عهد بمهاجمة ٥ (خمس) منها إلى ٥ (خمس) من

---

١) المن بالإمامة، ص٤٩٣؛ وقارن ابن عذارى، ص٩٦، وانظر ابن الأثير، ج١١ ص٣٩٠- حيث الإسم رُندة خطأ، وهو ما ينقله ابن خلدون، العبر،ج٦ ص٢٤٠.

القبائل الموحدية والحليفة، تحت إشراف ٥ (خمسة) من السادة إخوة الأمير أبي يعقوب. وهكذا، كان مع قبيلة هنتاتة السيد/ أبو سعيد (عثمان)، ومع قبيلة كومية السيد/ أبو زكريا يحيى (صاحب بجاية)، ومع قبيلة غمارة السيد/ أبو على الحسن، ومع قبيلة جدميوة السيد/ أبو إسحق إبراهيم، وأخيراً مع قبيلة جنفيسة السيد/ أبو إبراهيم إسحق. أما القطاع السادس فكان لأشياخ الموحدين الخلص، كل شيخ فى قبيلته، بينما كان القطاع السابع من نصيب المجاهدين العرب الذين جمعتهم جهة واحدة متصلة بالمدينة.

وأمام خطة الهجوم هذه، قام النصارى بزيادة تحصين وبذة بإقامة أُخدود (حفير) خارج الربض، تمّ على وجه السرعة فى يومين، كما أضافوا ستارة (زربا: سوراً أمامياً) من خشب على أبواب بيوتهم.[١]

التقدم نحو الأسوار:

وهكذا بات الخليفة أبو يعقوب يوسف ليلة الأربعاء ١٢ من ذى القعدة/٨ يوليه ١١٧٢م على نية الجهاد، وكذلك فعل المقاتلون، وفى الصباح، وبعد أداء الصلاة وقراءة الحزب (من القرآن) حسب العادة، استعد الناس للجهاد خلف «فى جحفل جرار، كتائبه كالجبال السائرة... تخفق راياته، وترعد طبوله، وتتوقد نصوله، وتتجاول بالصهيل خيوله، تضم أقطاره مساعير الرجال ومشاهير الأبطال،... قد لبسوا السوابغ والأبدان (القمصان)، وتقلدوا الصفائح والقضبان، وتنكبوا القسى والمرّان». وكان فى صحبته أخوى السيد الأعلى/ أبو حفص، وأشياخ الموحدين، وكبار رجال الدولة، من: الفقهاء والقضاة، مثل: الحافظ أبى بكر بن الجد، والفقيه أبى محمد المالقى، والقاضى أبى موسى عيسى بن عمران، والقاضى أبى محمد بن الصفار (ت٥٧٦هـ/٨١-١١٨٠م)، والقاضى أبو الوليد بن رشد (ت٥٩٥هـ/١١٩٩م).

---

(١) المن بالإمامة، ص٤٩٤- حيث النص: «وظنوا (أهل وبذة) بسوء تدبيرهم ان ذلك الحفير والزرب يمنعهم من أمر الله تعالى، فكان ذلك الحفير لهم قبراً، واستئصلوا فيه قتلاً وعقراً.

وعند اقتراب الخليفة من الحفير والزرب (سور الخشب)، نزل على ربوة مرتفعة، حيث ضربت قبّة خباء جلس فيها مع صحبه. ومن ثم وصلت العساكر حسب ترتيبها المذكور آنفا، واتخذ كل فريق منهم القطاع المخصص للقتال. وبعد تقسيم السهام على الرجال، وتزيد المجاهدين بجميع ما يلزمهم من الآلات. وبعد أن تقدم من أمرّ من الإخوة والأشياخ بمبايعة الأمير بتقبيل اليد والتسليم والإعراب عن الثبات في الجهاد، دعا لهم بالنجاح والفلاح، فركبوا خيلهم، وقدموا المشاة أمامهم. وكان من ترتيب القتال مع أهل وبذة أيضاً، ألا يدفع المجاهدون على النصارى إلا عند ضرب الطبول وخفقها. وكان عدد الطبول ١٠٠ (مائة) مُصَفّفة.

والمهم أنه «عندما ضربت الطبول، ودفعت العساكر صار النهار ليَلاً، وحل بالكافر ويلاً... فانهزم جميعهم... وقتلوا حتى لصق سورهم، وفي داخل بيوتهم ودورهم»- حيث كانت المدينة دون أبواب، الأمر الذي يَعني أنها كانت جديدة البناء لم تكتمل بالأبواب. وهكذا كانت الهزيمة تامة على الأعداء الذين لجأوا إلى القصبة (حصن الدفاع ومركز الحكومة)، «فلم يبق من سورهم موضع فيه قتال إلا الركن من جهة الغرب حيث كان المسئول عن القتال هناك: أبو العلاء بن عزون الذي اضطر إلى طلب المعونة من الأمير، فلم يجاوبه لاشتغاله مع الطلبة (من الفقهاء والقضاة) في المذاكرة»، كما تبالغ الرواية كما نرى.[1]

ما بين التقصير والعجز وانشغال الأمير بالمناظرة:

وهنا يشير ابن صاحب الصلاة مسألة عدم الاستيلاء على أسوار وبذة من قبل القوات الموحدية، بعد أن تخلى مقاتلوا وبذة عن معظم الأسوار باستثناء «الركن من جهة الغرب»، وهو ينسب ذلك إلى إحدى مسألتين، أولاهما: التقصير والعجز من قبل المجاهدين الموحدين، وثانيتهما: إنشغال الخليفة أبي يعقوب يوسف بمجالس المناظرة، وقت المقتلة أو «المجزرة».

---

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٤٩٥-٤٩٦.

والحقيقة أن رواية إبن صاحب الصلاة التى ينسبها إلى إبن عزون قائد الجبهة فى قطاعها الغربى، والذى لم يحقق الانتصار فى ذلك الموقع، فلجأ إلى طلب المعونة من الأمير، فلم يظفر بما كان يرجوه من بركته أو حث المقاتلين ورفع معنوياتهم، فكان ذلك سبباً فى خسارة المعركة برمتها.(١)

هذا وتضيف الرواية مزيداً من المعلومات التى حدث بها ابن عزون- وهو يتنصل شخصياً من غير شك من تحمل المسئولية، إذا يقول: «لما قاتلت النصارى فى البرج الذى كان عمدة امتناعهم فيه بمدينة وبذة فأشرفت على الفتح والغلبة لهم، ولم أر أحداً من أهل الأجناد الأنجاد، ولا من الشيوخ والقواد من يعيننى، مشيت بنفسى إلى أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين، وهو جالس مع أخيه السيد الأعلى/ أبى حفص، ومع طلبة الحضر يتكلم فى المسائل، فقلت: يا سيدنا... «عسى عون فقد أشرفت على الفتح».(٢)

والحقيقة أن مقولة ابن عزون هذه توضح مسئوليته الرئيسية عن الفشل فى ذلك القطاع الغربى. ويؤيد ذلك أن ما كان يريده ابن عزون لم يكن شيئاً من المدد، بل أنه كان طامعاً فى خروج الأمير بنفسه إلى ساحة

(١) المن بالإمامة، ص٤٩٦-٤٩٧، حيث الإشارة إلى أنه عندما عجز أبو العلاء بن عزون عن تقويم الموقف فى قطاعه أو جبهته، فمشى إلى أمير المؤمنين طلبا لمعونته المعنوية على الأقل، فلم يجاوبه لاشتغاله مع الطلبة- وعلى رأسهم ابن رشد، فيلسوف العصر- فى المذاكرة. هذا فى الوقت الذى كان فيه أهل وبذة قد انهزموا إلى داخل الأسوار، حيث: «هدمت بيعهم وأخذ مما فيها ٩ (تسعة) نواقيس قاتل عليها النصارى حتى قتلوا عند كنائسهم، وأخلوا أسوارهم من كل جهة، وظهر الفتح ظهوراً غريباً بعدد المؤمنين، والاستيلاء فى ذلك اليوم على الكافرين. ولكن عند ذلك كفّ الله أيدى المسلمين عن الغلبة على المدينة، ووصلوا إلى السور، ووقفوا عنده وقوف العاجز المقصر، قد تركوا للراحة والكسل، وبما فهموا أن المراد تعجيز الحال فى ذلك النضال». هذا إلى جانب ما تقوله الرواية: «وأما الرماة فرأيت الشيخ المقدم عليهم: محمد بن تيفوت يمنعهم من رمى النصارى بالسهام، فلم تقع الآلات ولا الرماح ولا الدروع السابغات ولا البيضات.

(٢) المن بالإمامة، ص٤٩٧».

الوغى، ليرفع الهمم، ويثير الحماس فى نفوس العسكر، ويؤدى ذلك إلى إنقاذ الموقف المتدهور، بل والاستيلاء على وبذة، كما يقول ابن عزون.(١)

والصحيح أنه مما يضعف رواية ابن عزون هذه، هو ما ينسب إليه من القول إن السكوت لم يكن من جانب الأمير يوسف فقط، بل ومن جانب أخيه وشريكه فى الحملة السيد الأعلى/ أبى حفص، وأنه علم بذلك «أن النية فى الجهاد قد فسدت، وأن الغزوة قد تنكدت... ودام القتال على انحلال وضعف وملال... وما نفع الجيش الكثير عديده نحو من ١٠٠,٠٠٠ (مائة ألف) بين فارس وراجل»- وانصرف أمير المؤمنين... وانصرف الناس إلى أخبيتهم، قد فهم الحال من فهمها، وسرّ بالتعجيز فيها من دبّرها وعملها.(٢)

والحقيقة أنه إذا كان يفهم من رواية ابن عزون القاضى (فى المن) بأن الرجل أراد أن يتنصل من مسئولية صمود العدو فى جبهته، ويلقى بتبعة الفشل فى جبهة وبذة كلها على فساد نية الجهاد، فإن ما يمكن استنباطه من مقولته هو أن فشل الحملة وتنكدها (كما يقول) إنما يرجع إلى تفتت القيادة ما بين السادة الإخوة، وأشياخ الموحدين، وأشياخ العرب غير المنضبطين، أو بوجه آخر غير المدربين علي حرب الحصون، كما هو معروف. وهذا، لا يمنع بطبيعة الحال من مسئولية الأمير يوسف الذى يشتغل مع ابن رشد (الفيلسوف) وغيره، فى موضوعات العلم والمناظرة فى غير موضعها. ولو أن بطانة يوسف من مثل هؤلاء العلماء كان يمكن أن يكونوا مستشارين نافعين أيضاً فى أمور الحرب والسياسة التى كانت تمارس من قبل الجميع، وكثير من هؤلاء العلماء والفلاسفة كانوا على دراية بأمور السياسة والاقتصاد ونظم الحكم، ومن موضوعاتها قيادة الجند وسياستهم

(١) المن بالإمامة، ص٤٩٧- حيث يقول ابن عزون: «وإنما كنت أرى أن يركب (الأمير) فيراه الناس وجميع العساكر فيدخلون المدينة فى حينهم، فلم يجاوبنى، وإشتغل عنى بما كان فيه».

(٢) المن بالإمامة، ص٤٩٧.

فى الحروب. ولنا المثل فى قصة الإسكندر وفيلسوفه ومعلمه أرسطو طاليس، الذى كان صاحبنا ابن رشد أشهر مفسريه والمعلقين عليه فى كل العصور الوسطى من إسلامية وأوروبية، مما هو معروف.

الحصار بديلا للإقتحام :

والمهم أنه فى ليلة الخميس ١٩ من ذى القعدة/ ١٥ يوليُه قرر الأمير يوسف فرض الحصار الصارم على مدينة وبذة، والتشديد على تعطيش أهل المدينة بمنع اقترابهم من الماء فى الوادى (النهر) القريب، مع الإلحاح عليهم بالقتال المباشر عن طريق الرمى من فوق الأبراج وسلالم الخشب فى جوانب المدينة المختلفة.

وأمام شدة الحصر ودقة الموقف رأي المسئولون من أهل وبذة المساومة على الجلاء عن المدينة نظير الأمان، ولكن طلبهم رُفض على أمل اقتحام المدينة عنوة. وصدرت الأوامر إلى الموحدين بالتشدد فى «ترتيب منع الكفرة من الماء».[(١)]

الإضطرابات الجوية ما بين الرياح العاصفة والسيول الجارفة

فعند صبيحة الجمعة ٢٠ من ذى القعدة ٥٦٧هـ/١٦ يوليُه ١١٧٢م، بدأ الموحدون يعانون من سوء الأحوال الجوية، إلى جانب صعوبة حرب الحصار فى وبذة. فلقد «قاسوا من هبوب الريح العاصف، التى أكفأت القدور وقطعت الأخبية، الأمر الذى كانت نتيجته الطبيعية هو تكدير النفوس بمعنى هبوط المعنويات. فإلى جانب الحذر من العدو كان على الموحدين اتقاء أذى الريح، وذلك بوضع ستارة (زرب) من الأسوار حول قبة الأمير يوسف، كما فعل الناس مثل ذلك حول أخبيتهم. هذا ولو أن الأسعار رخصت إعتباراً من صباح السبت ٢١ذى القعدة، حيث صار سعر مدّ الشعير ٢,٥ مدّ بدرهم، وسعر القمح ١ مدّ (واحد) بدرهم.

وفى ذلك اليوم تمّ القبض على ٦ أعلاج (رجال) من النصارى، وكانت

(١) المن بالإمامة، ص٤٩٨.

نتيجة استنطاقهم (إستجوابهم) عن أخبار طاغيتهم (رئيسهم) أن قتل ٥ (خمسة) منهم بينما أسلم سادسهم.

وصول المجاهدين من أهل الشرق :

وفى ذلك الوقت أتت الأنباء إلى المحلة بوصول الشيخ أبى حفص من مرسية بعسكر الشرق، وفى صحبته الزعيم أبو الحجاج يوسف بن مردنيش مع أهل أشبيلية وأهل الثغر. فكان خروج الأمير وأخيه السيد أبى حفص، وجميع الإخوة، وأشياخ الموحدين، وأشياخ أجناد أهل الأندلس والطلبة أجمع. وكان اللقاء فى الفحص القريب من وبذة، حيث شرّف الأمير يوسف وإخوته القادمين بالنزول عن خيلهم، فلما رآهم الشيخ أبو حفص (اينتى) قد نزلوا نزل إليهم. والتقوا لقاء مباركاً، ودام وقوفهم طويلاً فى سلام وكلام، ثم دعا لهم أمير المؤمنين- على حسب العادة- وركب، وركبوا وانصرفوا إلى مضرب المحلة.(١)

الأحوال الجوية السيئة تضعف معنويات الموحدين :

والمهم بعد ذلك أنه إبتداء من مساء الأحد ٢٢ من ذى القعدة/١٨ يوليُه عادت الرياح عاصفة أشد من قبل، فمزّقت الأخبية ثم «جاءت بمطر وابل ورعد قاصف وبرق خافق»، وذلك فى شهر يونيُه (يوليه ١١٧٢م)، الأمر الذى أفشل خطة تعطيش أهل وبذة- والحملة نفسها بالتالى. فعندما حاول الأمير يوسف شن حملة شاملة على وبذة صبيحة الإثنين ٢٣ من ذى القعدة، «فبدأ المطر والرعد والبرق... ماء كأفواه القرب حتى فزع الناس، ورغبوا فى التوبة، وانقلبوا». وعندما عاود الأمير القتال كرة أخرى، عند تحسن الأحوال الجوية ظهراً، لم يُجد الأمر شيئاً، حتى أنه لم يخرج يوم الثلاثاء من منزله، إذ بقى «مفكراً، شغل البال بما عاينه من عدم الاجتهاد، والعجز عن الجهاد».

---

(١) المن بالإمامة، ص٤٩٨-٤٩٩- حيث: وأمر أبو الحجاج بن مردنيش بالنزول بمحلة أهل الشرق بالجبل المجاور لوبذة... هذا بينما زاد روع النصارى وهلعهم، وهم ينظرون من أعلى مدينتهم، حيث زاد عليهم الحصار، كما لم يجابوا إلى طلبهم الأمان.

والحقيقة أن الحال انقلبت على الموحدين. ففى يوم الأربعاء الثانى «كان خروج النصارى على الموضع الذى كان فيه قبيل هسكورة يحرسونه، ففروا منه، وأدبروا عنه، الأمر الذى اقتضى إنزال عقوبة الضرب بالسياط بهم». وهكذا ساءت أحوال الرجال، فإلى جانب الحذر والترقب من شرور العدو، فشل خروجهم صباح الخميس ٢٦ من ذى القعدة/ ٢١ يوليه تحت إشراف كل من إبن تفراجين وابن همشك، من أجل البحث عن العلف والشعير والزاد، فقد باتوا ليلة واحدة فى خروجهم هذا للبحث عن الزاد، وانصرفوا خائبين دون علف ولا زاد، الأمر الذى أدى إلى إرتفاع السعر.

وهكذا كانت خطبة يوم الجمعة من الشيخ أبى محمد عبد الواحد بن عمر باللسانين العربى والغربى (البربرى) ترمى المرائين من مجاهدى وبذة بالتقصير وخيانة الله عز وجل، وبأنهم ليسوا بمؤمنين ولا بموحدين، هذا، كما عيّرهم بأن أمير المؤمنين ليس يقدر أن يراهم لتفرطيهم فى حق الله تعالى، من الجهاد. ثم إنه «توبّهم، فقالوا تبنا».[1]

أما عن آخر ما يعبر عن فشل حملة وبذة، حسبما يعرضها ابن صاحب الصلاة بكل دقائقها، فهو ما عرضه بعض كبار الأندلسيين، وهو: عبد الرحمن بن أبى مروان بن سعيد الغرناطى، من دعوة صاحب وبذة، وهو العلج «ولد مريق» (أحد أبناء هانريك دى لارا، مربى ملك قشتالة الفونس الثامن) يطلب منه أن ينزل عن الأمان الذى كان يطلبه فى بداية الحملة. ولم تُجْد الإشارة بعد ذلك إلى التى كانت بينه وبين أبيه، حيث كان له الفضل فى إخراجه من سجن يحيى بن غانية، إذ أخبره العلج أنهم يحتشدون لقتال أمير المؤمنين.

والمهم أن ابن صاحب الصلاة يجعل من ذلك الخبر الذى أوصله ابن سعيد الغرناطى إلى الأمير أبى يعقوب يوسف، وكأنه نقطة النهاية بالنسبة لحملة وبذة. فلقد عقد الأمير فى عشية ذلك اليوم مؤتمراً لشيوخ الموحدين

(١) المن بالإمامه، ص٤٩٩-٥٠١، وقارن ابن عذارى، الموحدون، ٩٦-٩٧ .

من كل صنف، لإتخاذ ما يصلح من الرأى لهذا الخبر الطارئ.

وهكذا لم يمض جزء من ليلة الأحد ٢٩ ذى القعدة/ ٢٥يوليُه، إلا وكان الخليفة يصدر الأمر «بحرق البرج المصنوع لقتال الكفرة (النصارى)، ويحرق الآلات كلها، المصنوعة من البرج». هذا، كما صدر الأمر بحمل النواقيس المأخوذة من كنائس وبذة على الدواب، وذلك استعداداً للقلوع عن مدينة وبذة.

ويصف ابن صاحب الصلاة الخروج عن وبذة صباح الأحد ٢٩ من ذى القعدة سنة ٥٦٧هـ/ ٢٥يوليُه١١٧٢م، وكأنه خروج من الجحيم. فعندما دق الطبل الكبير إيذاناً بالرحيل «فكأن القيامة قد قامت، فمن رحل حائر لا يدرى ما يصنع، وآخر حازم قد أخذ بما كان يسمع ويتوقع».

وكان من الطبيعى ألا يترك أهل وبذة الموحدين يخرجون فى سلام، دون انتهاز الفرصة، «فلقد خرجوا فى حينهم بخيلهم ورجالهم، ووصلوا إلى الوادى الذى كانوا قد منعوا الشرب منه من يوم حصارهم، وابتدأوا مع الناس القتال. وأشعلت فى البيوت النيران والزروب، وصار الناس فى حرب وانزعاج إلى الرحيل، ولا أخ يسأل عن أخيه من حال الذهول، ووصل النصارى إلى السوق على قرب من المحلة، وقتلوا الضعفاء والمرضى».

وهكذا لم يتم رفع الأخبية إلا مع التوقف عن القتال. ومن المهم الإشارة هنا إلى أن قبّة الأمير أبى يعقوب يوسف كانت آخر الأخبية المرفوعة، وذلك فى حماية السيد الأعلى/ أبى حفص الذى كان قد لبس درعه، وهو راكب فى قبيل أهل تينملل.

وهكذا كانت الحركة «والناس على ترتيبهم، والنصارى يقربون ثم يهربون»، والرايات تتقدم على طريق قونكة (Cuenca)- لاستعادتها بحول الله[١]. فكأن وبذة لم تكن- رغم كل المصاعب والقتال- إلا محطة أولى على الطريق: طريق الجهاد بهدف الاسترجاع.

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٥٠٢-٥٠٣، وقارن ابن عذارى، الموحدون، ص٩٧.

﴿ ٨ ﴾

الطريق إلى قونكة:

مشت الحملة مسافة ٣ (ثلاثة) أميال، ومن ثم كان النزول فى موضع الماء الجارى المتصل بمدينة وبذة، وذلك فى الوقت الذى كان السادات (إخوة الأمير) فى الساقة مع جمع كبير من العساكر يدفعون الغدو من أُتباع الضعفاء من الناس المجاهدين، وفى صحبتهم يوسف بن مردنيش وإبراهيم بن همشك، وأبو العلاء بن عزون بعسكر الأجناد الأندلسيين. ونجحت قوات المؤخرة فى الاشتباكات مع المطاردين، وفى قتل ٦٠ (ستين) علجاً، وأسر عشرة منهم، عرفوا بذلك عندما وصلوا إلى المحلة عشية اليوم.

وإذا كان العسكر قد باتوا فى موضع النزول على حذر تلك الليلة، فإنهم رحلوا فى صبيحة الإثنين آخر ذى القعدة من موضع الماء المذكور رحيلاً سهلاً، بترتيب العساكر والرجال والرماة فى كل من المقدمة والساقة، ومشوا لمسافة ١٠ (عشرة) أميال، وحلّوا «بقرية كثيرة الزروع، خاوية الربوع، فعاثوا فى قمحها وشعيرها، وعّفوا آثارها».

وفى يوم الثلاثاء أول ذى الحجة/ ٢٥ يوليه١١٧٢م كان المسير نحو مدينة قونكة على ترتيبهم السابق، والطبول تضرب بكل شرف حتى الوصول إلى وادى شوقر، على بعد ميلين من قونكة، بالجبل غربيها. وانطلق الرجال يستبيحون زروع النصارى، كما يسمح ابن مردنيش بأرض المسلمين للنصارى. وبعد صلاة العصر كان الرحيل إلى قونكة لمعاينتها.

وصف قونكة:

ويصف ابن صاحب الصلاة الذى كان فى الصحبة الخلافية، مدينة قونكة، عند معاينة الأمير أبى يعقوب يوسف لها [١]. وإذا كان الإدريسى

---

(١) المن بالإمامة، ص٥٠٤.

لا يعرف بقونكة ولا يذكر منها إلاّ الإسم، كما لا يظهر فيه عن وبذة إلا الإسم وفى شكل وبذى، دون معلومات عنها[١]، فإن ابن صاحب الصلاة الذى كان فى الصحبة فى حملة وبذة، يعرف بقونكة التى شاهدها، فيصف قصبتها «بالشاهقة المنيعة... المتصل علوها بالجو، تدل على آثار من الغبطة بها عند ملوك الإسلام». ويحدق بها من جهة الغرب وادى شوقر (شُقْر) المنيع الحافات، ومن شرقها واد آخر على مثاله فى المنعة: والنهران يصبان فى بحيرة عظيمة لشرب أهل قونكة، وهى لصق السور مباشرة. وهكذا يكون الدخول إلى المدينة على قنطرة عظيمة، قائمة على برجين عظيمين، على الواديين، وفى الشمال (الجوف) من القنطرة حفير فى الحجر الصلد، على عمق قامتين، له أدراج (جمع دَرَج) للنزول للشرب ولطحين القوت (الطعام: القمح) فى الأرض (بالأرحاء). وموقع المدينة على الجملة فى غاية المنعة، لا موضع للقتال فيه إلا من جهة الحفير.

وفى هذه البحيرة (حيث البساتين) توجد «كرومهم، وشجرهم، من: الجوز، وغير ذلك».[٢]

سكان قونكة المسلمون وقتئذ :

أما عن السكان المسلمين، فكانوا فى حالة يرثى لها، وذلك أنه عند وصول أبى يعقوب يوسف، «خرج الضعفاء من أهلها بجميع عيالاتهم، وبنيهم. وهنا يفسر ابن صاحب الصلاة ذلك الضعف الذى ظهر عليهم، بأنه كان نتيجة معاناة الحصار الذى ضربه عليهم العدو الأسبانى طوال ٥ (خمسة) أشهر، ولم يرفع إلا عندما عرف بقدوم أمير المؤمنين يوسف بالمجاهدين الموحدين. وهنا أصدر الأمير أمره بإحضار هؤلاء الضعفاء من أهل قونكة، باعتبارهم بقايا المجاهدين فى الثغر الأعلى المجيد، وعهد بتلك المهمة إلى مستشاره الكاتب أبى موسى عيسى بن مخلوف

---

(١) الإدريسى، نزهة المشتاق، الطبعة المصرية الشاملة، ج٢ ص٥٦٠.

(٢) المن بالإمامة، ص٥٠٤-٥٠٥.

الجدميوى. وبلغ تعداد القونكيين هؤلاء ٧٠٠ (سبعمائة) فرد فأمر لهم بالعطاء بصفتهم حفاظ ذلك الثغر، فكان نصيب الفارس منهم ١٢ (إثنى عشر) ديناراً، والراجل ٨ (ثمانية) والمرأة ٤ (أربعة)، والطفلة ٤ (أربعة) مثاقيل. هذا، كما أعطاهم الأمير معونة عينية مقدارها ٧٠ (سبعين) بقرة، «لم يكن عنده فى المحلة غيرها»، إلى جانب الكثير من أسلحة الرمى الحربية، من: الرماح والقسى والسهام. هذا، كما تصدق عليهم العسكر الموحدى، ووجوه رجاله، بكميات من الطعام، من: القمح والشعير. وانفرد كل من ابن الشيخ أبى إبراهيم، والحافظ أبى يعقوب يوسف بن أبى عبد الله تيجيت بالتصدق بوقر حمل من القمح.

هذا، كما اشترى لهم كل من الوزير: إدريس بن جامع وابنه يحيى زرعاً (قمحاً فى سنبله) بمائة دينار[١]. والمهم هنا هو أن الزرع المذكور كان مأخوذا من عمارة (الأرض المزروعة) النصارى، وأن الأمر صدر لأهل قونكة بالخروج فى يوم الأربعاء، من ذى الحجة لدرس ذلك القمح وحمله إلى بيوتهم[٢].

والمهم هنا هو أن الزرع المذكور كان مأخوذاً من عمارة (الأرض المزروعة) النصارى، وأن الأوامر صدرت لأهل قونكة بالخروج فى يوم الأربعاء، من ذى الحجة/٢٦ يوليُه لدرس ذلك القمح وحمله إلى بيوتهم.[٣]

الخروج من قونكة «قيامة» أشبه بالخروج من وبذة:

والظاهر أن حصد قمح النصارى هذا فى سنابله أعتبر من قبل أصحابه إعتداء على أملاكهم، الأمر الذى أدى إلى تجمع عسكر من النصارى عند «البورت» (الباب) القريب من قونكة، عرف المخبر عنهم أنهم من رجال

---

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٥٠٤-٥٠٦.

(٢) المن بالإمامة ص٥٠٣-٥٠٦.

(٣) المن بالإمامة، ص٥٠٦.

أذفنش الصغير (السليطين) ومعه قمطه نونيه دى لارا. ولما عرف أمير المؤمنين يوسف ذلك رأى أن الاستعداد للحرب يقتضى «القلوع من موضعه، ويجوز وادى شُقْر... فجاز الوادى مع أخيه أبى حفص؛ ونزل فى الجبل المتصل بمدينة قونكة لحصانته. وصدر الأمر للعساكر بالرحيل، فكانت «قيامة أخرى مثل قلوعهم من ويذة».

فالوادى (النهر) لم يكن فيه إلا مخاضة واحدة «وهو عظيم الانحدار بسيل وتيار، فكثر صياح الناس من حمله، وعظيم هوله... وسلب أكثر ثياب الناس الجائزين، ولا أخ يقف على أخيه، ولا أب يصبر على بنيه... هول حتى العصر». واتصل وصول النصارى حتى نزلوا على مقربة من موضع المحلة بجبل يعرف بتونبس (Tumbus)، وتراءت المحلتان والوادى بينهما. وفى ليلة الخميس اجتمع الخليفة بمستشاريه، وتم الاتفاق على لقاء الأعداء غداً الجمعة، لم يشذ عن ذلك إلا العرب الذين رأوا أن الموضع غير مناسب لحربهم التى تتطلب البراح اللازم للكر والفر.

وفى صباح الجمعة تنهض الموحدون ومعهم أهل الأندلس بقيادة أبى العلاء بن عزون، وساروا إلى محلة النصارى، فكانت بين الجمعين مدافعات ومحاملات، وكانت الغلبة فيها للمسلمين، وهكذا، بينما كان الموحدون يتأهبون للحرب فى صباح السبت ٥ من ذى الحجة، خرج ابن عزون يستطلع الأعداء فوجدهم قد «قلعوا من محلتهم منصرفين إلى بلادهم». فكان من الموحدين القلوع أيضاً، فكأن الفريقين كانا على ميعاد رغم ما بينهما من العداوة.

وكان التوقف بعد الخروج من قونكة عند جبل الصومعة على بعد ١٠ (عشرة) أميال. ومع ان الموحدين نزلوا على ماء طيب وسرح خصيب، إلا أن السعر اشتد تلك الليلة، فصار سعر المدّ المراكشى من الشعير (إثنى) درهم، ومثل ذلك القمح، كما بيع رطل الدقيق بدرهم واحد- ومع ذلك بات الناس على خير. وفى الغد: الأحد٦ من ذى الحجة كان الإقلاع والمشى

لمسافة ١٨ (ثمانية عشر) ميلاً إلى وادى تامطة (Tamta)، حيث النزول فى جبل حصين دون حمولات ولا أخبية بسبب ضعف الناس عن المشى، الأمر الذى أدى إلى بيات أكثر الناس دون علف ولا قوت. وكان الرحيل صبحة الإثنين لافتراق الناس والحمولات.[١]

ما بين الجهل بالبلاد واضطراب الطبيعة :

ينفرد ابن صاحب الصلاة بتقديم معلومات تفصيلية مذهلة عن حملة وبذة وقونكة، من حيث كونه شاهد عيان، وبصفته أحد عمّال الديوان الخلافى المقربين من الأمير. وتلك الحملة أخذت شهرتها من حيث اعتبارها أقصى وغول بلغته القوات الموحدية فى بلاد الثغر الأعلى، فى المناطق الواقعة ما بين قشتالة وأراجون. فكأن الموحدين كانوا يدقون إسفينا فى قلب بلاد الريكونكيستا يمكن أن يكرّس الفصل ما بين الشرق والغرب فى شبه الجزيرة الإيبيرية. وهذا ما يفسر شهرة حملة وبذة فى تاريخ الموحدين، إذ حاول الكتاب العرب أن يجعلوا منها قرينة لزلاّقة يوسف الأول ابن تاشفين، سمى خليفتنا يوسف بن عبد المؤمن، والحقيقة أن الذى ساعد على رواج هذه الفكرة هو إفتقاد مؤلف ابن صاحب الصلاة الموسوم بالمن بالإمامة. أما وقد ظهرت رواية المن جزئياً إلى النور، فإنها بفضل ما تلقيه من الأضواء على دقائق تفصيلات تلك الغزوة، زمنيا وموضوعياً، فإنه يمكن إعادة النظر فى تقييم تلك الغزوة أو تقويم مساراتها.

فنجاح الحملة، وإن كان محدوداً، إنما يرجع إلى التضامن بين الجند الأندلسى والجند الموحدى. أما عن مسئولية محدوديته فترجع إلى الظروف الجوية غير المناسبة، مما سبقت الإشارة إليه. هذا، إلى جانب افتقاد الأدلاء الخبراء أيضاً، سواء فى الأعراض الجوية أو الطرق البرية وهذا ما أدى إلى انفصال الرجال عن معداتهم الحربية ولوازمهم المعيشية، وهو الأمر الذى يظهر فيما توقفنا عنده من أجل طريق العودة من قونكة فى إتجاه بلنسية

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٥٠٦-٥٠٩.

وشاطبة، وهو ما نعود إلى مواصلته أيضاً.

إفتقاد الطريق ومعاناة الجوع:

ففي ليلة الإثنين ٧ من ذي الحجة/٣ يوليه١١٧٢م، وفي جبل وادي تامطة- على مسافة ١٨ (ثمانية عشر) ميلاً من قونكة- تأخرت الحملات، ومشت على طريق أخرى، فبات الناس دون علف ولا قوت، فعدم الشعير حتى بيع المدّ المراكشي منه بـ ٣ (ثلاثة) دراهم. وفي المرحلة التالية، عندما مشى الناس ١٢ (إثني عشر) ميلاً، «ونزلوا على وادي برج قبلّة (Caraballa) على طريق بلنسية، فماتت دواب الناس من التعب والنصب، وجاع الناس وكثر فيهم الموت».وزادت الحال سوءاً بعد عبور العقبة الكؤود والمعروفة بعقبة الأباليس، ومن ثم قنطرة أغربالة حيث كان النزول في ٩ من ذي الحجة/٥ يوليه (وقفة الأضحى) وقد «نال الناس الضعف والجوع من عدم القوت والعلف، ومات كثير من الخيل والبغال والجمال في العقبة المذكورة».

وهنا كانت الحملة قد أمضت شهرين، فكان توزيع «البركة» (الرواتب الشهرية) لجميع العساكر على ترتيبهم، فنال الفارس الكامل (وغيره) ٥ (خمسة) دنانير، كما كان للرجالة على أصنافهم ٢ (دراهمان)، ومن الواضح أن المواد الغذائية في المحلة كانت قليلة، إذ بمجرد صرف تلك الرواتب إرتفع السعر في ذلك اليوم، فصار: «٣ (ثلاثة) دراهم للمدّ المراكشي من الشعير، وكذلك القمح».

وكان قضاء عيد الأضحى (١٠ ذي الحجة/٦يوليه في قنطرة غربالة، حيث قسم الخليفة الكباش على كبار الموحدين، والظاهر أن الموقف كان حرجاً، إذ صدر الأمر بالإقلاع والمسير مسافة ١٥ (خمسة عشر) ميلاً، حيث كان النزول في مرج القيداق (Caudete) على مقربة من حصن ركانه (Requena)، من بطن بلنسية، وكان المسير بعد ذلك على عجل في اليوم الثاني للعيد، بسبب المجاعة، نحو حصن ركانه، «فأخطأ الأدلاء الطرق،

فافترقت العساكر فى الجبال والمضايق، حتى بات الأمير فى موضعه، وأخوه أبو حفص، دون حمولة، وزاد الجوع بالناس والعدم». فعندما نزل فى موضع مجمع الأودية، ثالث أيام الأضحى (١٢ من ذى الحجة/٨يوليُه) كان سعر الدقيق ٤ (أربعة) دراهم للرطل، كما بلغ سعر الشعير ٤ (أربعة) دراهم، بينما انعدم القمح.

وفى يوم الأحد (٣ من ذى الحجة/٩يوليُه) كان الطريق صعباً لمسافة ٧ (سبعة) أميال، إلى حصن بنيول (Bunol) من نظر بلنسية. وهنا كان على الأمير أن يسرّح حشود أهل الشرق، وجميع بلاد الأندلس إلى أوطانهم. وفى ذلك اليوم- بعد تسريح الجنود- إنفكّت المجاعة فى المحلة بفضل وصول الكثير من التجار من بلنسية بالدقيق والشعير والفواكه: هدية من قبل أبى الحجاج يوسف بن مردنيش إلى أمير المؤمنين، فكان الفرج فيه للخاصة من الناس والعامة. هذا، كما انصرف غير الرسميين من المجاهدين إلى بلنسية طلباً للرزق- بعد هذه الشدة. وينص ابن صاحب الصلاة على أنه اشترى فى حصن بنيول تينة خضراء- فى أول الموسم- يتقوت بها بدرهم.(١)

ومن حصن بنيول سار الأمير إلى شاطبة، ودخل يوم الخميس١٧ ذى الحجة/١٢ أغسطس، وتجول بين قصابها الشاهقة المانعة، وأبراجها الشاسعة، فأقام فيها الخميس والجمعة. وبعد صلاة الجمعة، إحتشد الناس من أهل شاطبة، ووعظهم أشياخ الموحدين والأندلسيين، وآنسوهم وبشروهم بالخير العميم. ومن ثم رفعت الرايات المنصورة فى أعلى القصاب، وضربت الطبول.

وكان الرحيل من شاطبة يوم السبت ١٩ من ذى الحجة نحو مرسية، مروراً بحصن بليانة (Villena) يوم الأحد ٢٠ (عشرين) من ذى الحجة، ثم النزول بحصن عصف (Aspe) يوم الإثنين، وبحصن إلج (Elche) يوم

(١) المن بالإمامة، ص٥٠٩-٥١٢.

الثلاثاء، وبحصن أوريوله يوم الأربعاء، وبحصن منت أقوطة (Monteaguet) القريب من مرسية حيث خرج إليه (الأمير أبى يعقوب) أهلها «بالتبرك به والابتسام، ودخل قصرها بنصر دائم ومحبة وسلام، والطبول تضرب والرايات بالسعود تخفق وتطرب... وجميع أهل مرسية يستبشرون... ويحمدون الله الذى رفع عنه الظلم والكفر... والنساء يزغردن».

وتبعاً للأوامر العلية كان على هلال بن مردنيش (الإبن) أن يدبر إنزال الموحدين فى الديار، والاجتهاد فى برّهم على أكمل الوجوه، «فوجدوها معدة مملوءة كسى وأرزاقاً عدةّ». هذا، «كما أهدى من الجوارى الكعاب، والسرارى ذوات الحسن والشباب، مما كان عند أبيه معدّة لهذا الباب... وقبل الخليفة هداياه، وحباه بالعطايا الجزيلة أكثر من عطاياه».

وخلال احتفالات مرسية هذه، كانت سنة ٥٦٧هـ/٧٢-١١٧١م تلفظ أيامها الأخيرة. ومع إقبال أول يوم من المحرم ٥٦٨هـ/٢٣ أغسطس ١١٧٢م- وكان وقت توزيع البركة (الأرزاق) على العسكر، على ما نظن- إذ «رغب أكثر الموحدين والعساكر المرتزقين (النظاميين) فى السراح إلى بلادهم وأوطانهم «عند ضيق مرسية بهم، وغلاء السعر فيها بسببهم، فأذن لهم فى ذلك، وارتحل أكثرهم». أما أشياخ (العساكر) وكبراؤهم ومزاورهم (جمع مزوار بمعنى الشيخ أو الكبير باللسان البربرى أو الغربى)، فدامت إقامتهم حتى أهل شهر صفر (٢٢ سبتمبر ١١٧٢م) عندما خرجت البركة (الجماعية على ما نظن) لجميع الموحدين والعساكر المرتزقين حسب خروجها فى تلك الغزوة، أى بمقدار ٥ (خمسة) مثاقيل للفارس، ولغير الكامل ٤ (أربعة) مثاقيل، وللراجل الكامل ٢ (مثقالان)، ولغير الكامل من الرجال ١,٥ (مثقال ونصف مثقال). وكان الدفع جماعياً كما تنص الرواية، إذ «قبض كل شيخ بركة قبيله، وافترق الناس طلباً للرفق والرزق».[1]

(١) المن بالإمامة، ص٥١٣-٥١٥.

البرتغاليون يغدرون بمدينة الغرب «باجة»

وفى نفس ذلك اليوم الأول من (المحرم) من سنة ٥٦٨هـ/٢٣أغسطس١١٧٢م، وقتما كان المجاهدون العائدون من رحلة وبذة الصعبة الشاقة، يطالبون بالرحيل من مرسية، التى ضاقت بهم وغلا السعر فيها بسبب وجودهم، إلى أوطانهم وبلادهم، كانت باجة، عاصمة الغرب، تقع فريسة سهلة بين يدى الغادر جرانده، حسبما كان المسلمون يسمون ذلك المحارب الأسبانى جيرالدو سيمبادور الذى كان يعمل فى خدمة ملك البرتغال ابن الرنك (فرناندو هنريكيز).

ولما كان من غير المقبول أصلاً أن تقع عاصمة الغرب باجة، مدينة سيّد رأىْ بن وزير، زعيم حركة المريدين، والتى رأى الغادرون بها أنها أكثر من أن تبقى فى أيديهم الصغيرة، فلم يكن أمامهم إلا تخريبها والعمل على تهجير أهلها وتفريغها منهم، فى التو والحين، الأمر الذى عزّ على كثير من المؤمنين المسلمين أن يسجلوه فيما تلى من العصور، فكأنه منكر لا يجوز إشهاره. فخراب العاصمة الغربية محل أيدى المفسدين من أهل الركونكيستا، لا ذكر له فى معجب عبد الواحد المراكشى، وليس من الغريب إذن أن يسقط فى كامل ابن الأثير، وبالتالى من عبر ابن خلدون، مثلاً.

أما عن صاحب الفضل فى تسجيله تفصيلياً، فى مَنّه، وهو ابن صاحب الصلاة، كاتب الديوان، فإنه لا يقبل فى روايته المستفيضة عن خراب باجة «الغرب الأندلسى» على عهد عظيم الموحدين، يوسف بن عبد المؤمن، إلا أن يكون للمسألة جذورها الضارية بعيدا فى فساد الإدارة الموحدية فى باجة، وهو الأمر الذى كان خافياً على يوسف خليفة عبد المؤمن. هكذا يرسم صاحب المنّ صورة قاتمة للإدارة الموحدية فى مدينة باجة، التى يمكن إرجاعها إلى عهد عبد المؤمن والموحدين. فإذا كان الغدر بباجة لا يساوى - فى نظره- إلا درهماً أو ما شابهه، وهو أجر السامر أى الحارس الليلى

ببرج القصبة الرئيسى بباجة، والمعروف ببرج الحمام، وهو الأجر الذي طمع فيه كبير الحراس وقتئذ: الطالب عمر بن سحنون، المتهم بالإهمال وقلة الجد على السمّار، بل وأكله «مواستهم المرتبة لهم، على سكناهم فى أبراج القصبة والمدينة» (وهكذا) «ترك البرج مضاعاً دون سامر»، الأمر الذى أدى إلى تسلل الأعداء، وجعلهم السلالم لصق البرج ووصولهم إلى باب القصبة ودخول عسكرهم فى القصبة. وهكذا لم يكن أمام الناس إلا الفرار على وجوههم فقتلوا وأسروا فى الأبواب، وكان بين الأسرى عيال الطالب عمر بن سحنون، وعيال القاضى ابن زرقاج، وهكذا« عاقب الله تعالى كل من بغى فيها وسعى فى شهادة الزور وشهد بها».[1] وهذا ما يدخل فى إطار التفسير الدينى للتاريخ وهو المبنى على مبدأ القضاء والقدر والذى يعتبر القديس أغسطين من أشهر ممثليه القدامى.

والمهم هنا هو أن أخبار الفساد الذى استشرى فى باجة وصل إلى سمع الخليفة أبى يعقوب يوسف، الذى سأل مستشاره أبا بكر بن الجد عن أهل

(١) انظر ابن عذارى (هويثى)، ص. ١٠٠-١٠١- حيث محاولة التنصل من سقوط باجة التى كانت مدينة قديمة البناء أسوارها عالية، وان عبد الرحمن الداخل هو الذى هدمها بعد هزيمة العلاء ابن مغيث، فكأن سبب فساد الأوضاع الآتية ترجع إلى بداية العهد الأموى القديم، وان قررت الرواية ان الفساد الآتى يرجع إلى «خلع سيّد رأى بن وزير عن باجة وجميع بلاد غرب الأندلس، بمعنى سقوط دولة المريدين. فبعد ابن وزير ولى مدينة باجة حفاظ من الموحدين، فنظر كل واحد منهم بحسب اجتهاده. والنموذج لذلك هو الحافظ: عمر بن تيمصليت التينملى الذى آثار غضب أعيان المدينة وسكانها، الأمر الذى أدى إلى عزله وولاية عمر بن سحنون المذكور آنفاً والذى يوصف بأنه «طالب بربرى سخيف العقل... قصير القامة، توسجا، أعزج لا يفهم، إلى غير ذلك من تقريب السفال وإثارة التباغض بين العامة والخاصة. الأمر الذى جعل الشاعر أبا بكر بن حبيش يصف الفرار من باجة وقتئذ بأنه غنيمة وهو التقرير المستغرب حقاً. وفوق هذا تصف الرواية وزير عمر بن سحنون بأنه «دون» سافل، وان قاضيه يعمر بن زرقال رجل طائش كثير الحركة بطانته من الأرزال الظلمة وشهود الزور. وعلى الجملة فقد أخذ عمر بن سحنون رأى الفجار إذ سمح لنفسه بقتل الفقيه أبى جعفر بن الانصارى... بل أراد «أراد القيام وخلع الامام». فكأنه ثائر من ثوار الطوائف، وليس واحداً من عمال الموحدين.

باجة وانتهى البحث والمسألة إلى تكذيب شهود الصدق للقاضى أو شهوده والعفو عن المظلومين. وكانت فرصة انتهزها محمد سيّد رأىْ بن وزير لرفع الناس إلى الخليفة باخراج أصهاره من باجه، وهم: بنو صاحب الصلاة وبنو الأنصارى والإذن لهم بالخروج من باجة إلى أشبيلية، فتم لهم ذلك، وكان دخولهم أشبيلية بما خف من أموالهم وأحوالهم يوم الخميس ٢٥ من جمادى الثانى سنة ٥٦٧هـ/٢٤فبراير١١٧٢م. ويختم مؤرخنا ابن صاحب الصلاة، ورجل الديوان الموحدى المشهور، مسألة الفساد الذى استشرى في باجة بعد إنتقالها من بين يدى ابن وزير إلى إشراف الإدارة الموحدية، قائلاً: «فلم تدم الحال إلا ٦ أشهر و٧ أيام، وعاقب الله (الطالب عمر) ابن سحنون المذكور، والقاضى وشهود الزور. وكان قدرها فى (أول محرم من عام ٥٦٨هـ) بمعنى التفسير الدينى لمؤرخ الديوان الموحدى الشهير، تفسير القبول بقضاء الله خيره وشره، فكأنه لا تفرقة بين الخير والشر، وهو ما أخذ به صوفية الإسلام، حقاً.[١]

والمهم فى مسألة الغدر بباجة أن الملك البرتغالى (ابن الرنك: هينريكيز) لما دخل باجة وعاين كبرها، «وإنها لا يمكن إقتناؤها لاتساعها، فأخلاها، وحرقها، وهدم سورها، وأسر أهلها إلى أن أنقذها الله من الأسر بالفداء، ومشى كثير منهم إلى مراكش وغيرها يطلبون من الناس، فوجدوا عندهم الحنان والعطاء والإيناس، فانجبروا بعد تفرقهم».[٢]

---

(١) انظر ابن عذارى، ص١٠٢-١٠٣- حيث تنسب الرواية إلى أن سيّد رأى بن وزير قال للخليفة أبى يعقوب يوسف: «بيعت باجة بقيراط» بمعنى أجرة الساحة فى البرج التى أخذها ابن سحنون، الذى فرّ فلم يوجد حتى عاقبه الله بالجذام».

(٢) إبن صاحب الصلاة، ص١٠٢-١٠٣.

﴿ ٩ ﴾

الإقامة الجبرية لبنى مرْدنيش

وفى شهر صفر هذا (سنة ٥٦٨هـ/أغسطس-سبتمبر١١٧٢م) كان نظر أبى يعقوب يوسف، وقت استقراره في مرسية، فى ضبط حصون المدينة ومعاقلها، وذلك بتوجيه الموثوق فيه من الولاة والقواد إلى منازلها وقلاعها. وفى هذا المقام كان الاهتمام بضبط بنى مردنيش والاطمئنان إلى دوام طاعتهم. وهكذا كان استدعاء هلال بن مردنيش، وإخوته، وعمهم أبى الحجاج يوسف، إلى مجلس الأمير يوسف الذى «آنسهم ووعدهم من بشره وسره ... وأشار إليهم أنهم سيكونون من جملة الموحدين مع أهل الحظوة والأهل ... وأمرهم بالمسير إلى حضرته: مقره ومجمعه، فأخذوا فى النظر فى تنفيذ ذلك.

العهد بولاية بلنسية إلى إبن مردنيش العم:

أما عن عمهم أبى الحجاج يوسف بن مردنيش، فقد أمّره الخليفة أبو يعقوب فى ولاية بلنسية وأنظارها (توابعها)، وذلك «لما علم من صفاء طاعته وخلوصه».

هذا، كما أبقى أبا عثمان بن عيسى- وهو من مشاهير قواد ابن مردنيش- على ما كان بيده من حصن جنجالة، وتوابعه من قلاع الثغر وحصونه كما أبقى من رآه من القواد بالثغور، وعمّهم بالخير والفضل، حتى نسّاهم ما تقدم لهم مع أميرهم (ابن مردنيش: محمد بن سعد). وهكذا، ومع اطمئنانه إلى استقرار الأمور فى مرسية، إستعد يوسف للعودة إلى حضرته الأندلسية: أشبيلية.

العودة إلى أشبيلية «بعد كمال بغيته فى غزوته»:

وكان تحركه إلى أشبيلية فى أول شهر ربيع الأول من سنة ٥٦٨هـ/ ٢١سبتمبر ١١٧٢م. وكان اجتيازه على غرناطة حيث ترك على ولايتها أخاه السيد الأسنى أبا سعيد (عثمان)، ووصل إلى أشبيلية يوم

الخميس ٨ ربيع الأول (٢٨ سبتمبر)، وبصحبته أخوه السيد الأعلى/ أبو حفص، وجملة من بطانته من أشياخ الموحدين، ووجوه الدولة، وسائر الإخوة.

وخرج أهل أشبيلية إلى لقائه ومعهم الفقيه الحافظ أبو بكر بن الجد، فلقيهم أبو يعقوب مبتسماً ودعا لهم على عادته. ووصل معه هذا اليوم جميع أولاد ابن مردنيش، فأنزلهم في قصر ابن عبّاد، واشترى لهم دوراً لسكناهم بأشبيلية.

الإستفادة من بنى مردنيش فى أشبيلية:

وكان من الطبيعي أن تستفيد الدولة الموحدية من أمراء بنى مردنيش، أصحاب الشرق السابقين فى مهمات متنوعة، من: أمنية حربية، وسياسية استشارية، مما يتعلق بأحوال بلاد الأندلس خاصة. فلقد خصّ أمير المؤمنين يوسف غانم بن محمد بجمع فرقة جديدة من الجند الأندلسيين، ممن كانوا سابقاً من أهل الخبرة من أصحاب أبيه، ومن أهل الثغور والأجناد بأشبيلية وتوابعها. وتكون تلك الفرقة الخاصة تحت إمرته وطلبه، فى الغزو أو الدفاع أو الحملات التأديبية- فى المنطقة وحتى طلبيرة وطليطلة. وهكذا ترتب غانم فى غزو بلاد النصارى شمالاً، متجرداً، ناصحاً للأمر، وهو أقلق القشتاليين بصفة خاصة.

أما عن هلال أخى غانم (ولد ابن مرنديش: محمد بن سعد)، والكبار من إخوته فقد ألحقهم الخليفة بجملة أشياخ الموحدين، وأبناء الجماعة لحضور مجلسه العالى، والتشاور فيما يعرض من الأمور، وما يتخذ بشأنها من الأراء أو القرارات أو الحلول. وذلك تقريباً لهم وتشريفاً، وتأديباً فى نفس الوقت وتأنيساً.

وهكذا كان غانم يخرج بجمعه للغزو مع الموحدين، فى جهات طليطلة وطلبيرة وأنظارهما... «والأموال تدفع إليه وإلى إخوته، فيقسمها على فرسانهم وأتباعهم، فظهرت عليهم النعمة، والتقريب بأكمل الخدمة». وظل

غانم على هذا الحال، مجتهداً في الخدمة، ناصحاً للأمر، متجرداً.

وعلى مثل ترتيب غانم بن مردنيش سار الغزاة من الأجناد العرب حتى أقلق ذلك النصارى بمدينة آبلة (شمال غرب مدريد)، الأمر الذى أدى إلى ردود فعل عدائية من جانب الزعيم الآبلى شان منوس (سانكو شيمينو) ضد ضواحى قرطبة وأشبيلية، مما يأتى ذكره.

الإهتمام بإعمار الحاضرة أشبيلية :

هذا، وكانت مدينة أشبيلية موضع عناية الأمير أبى يعقوب يوسف، بعد عودته من غزوة آبلة وقونكة، حيث كان بناء مسجد أشبيلية الجامع الشهير ببقاياه من جدران الصحن، وفيها منارته المعروفة بالدوارة (الجيرالدا)، وكذلك عنايته ببناء القصور الريفية، المسامة بالبحيرة، خارج باب جهور، وبساتينها المشهورة.(١)

وفود إفريقية تهنئ أمير المؤمنين يوسف على غزوة وبذة :

لم يكن من الغريب أن يكون لغزوة وبذة فى قلب أراضى ممالك الاسترداد، أصداؤها البعيدة المدى، وخاصة فى الأندلس والمغرب الكبير (حسب المصطلح المعاصر)، ما بين طرابلس (الغرب) والقيروان وتونس وحتى المغرب الأقصى ومراكش. والحقيقة أن غزوة وبذة تعتبر عند الكتاب العرب من غزوات الموحدين المعدودة، والتى رفعت من شأن أبى يعقوب يوسف من حيث كانت أولى غزواته الأندلسية التى وضعته على رأس ملوك الموحدين، والتى تذكر بالغزوات المجيدة الكبرى على أيام الناصر الأموى والعامرى المنصور.

والحقيقة أن غزوة وبذة لم تأتى بشئ كبير إن لم نقل بالفشل. فغزوها كان مجرد مشروع لإجهاض إنشاء مدينة حصينة فى منطقة الثغر الأعلى، يمكن أن يُعبرّ عن السيطرة الكاملة لدويلات الاسترداد على كل منطقة ذلك

---

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٥١٦-٥١٧، وقارن ابن عذارى، الموحدون، ص٩٧-٩٨، وانظر ابن أبى زرع، روض القرطاس، ص٢١١.

الثغر البعيد الذى لم يعد لدولة الإسلام الأندلسيةفيه أى نفوذ. فكأن الغارة الموحدية على وبذة محاولة إسلامية جديدة لإثبات الوجود فى المنطقة الثغرية التى كانت لها روابط وثيقة ببلاد الشرق، وبالتالى بمناطق بنى مردنيش.

والمهم إذن فى غارة وبذة الكبرى أنها أعادت الثقة فى قلوب المسلمين فى إمكانية استعادة المنطقة لو حسنت النيات وخلصت الأعمال.

وفى النهاية فالدرس المستفاد من عدم جدوى الغارة البعيدة فى الأرض الحرام النائية شمالاً بشرق، يوضح أن الأهم من ذلك كان العمل على تهدين المناطق الرئيسية فى قلب البلاد الإسلامية الجنوبية، فى ضواحى قرطبة وأشبيلية وأنظارهما، وفى كبريات مدن الشرق والغرب بمعنى ترسيم حدود ثابتة قد تنتهى بهدنة مقبولة لو حسنت النيات.

والحقيقة أن ذكريات وبذة (Huete) وقرينتها المعاصرة آبلة (Avila) لم تلبث أن نسيت حتى أن مؤرخاً كبيراً مثل ابن الأثير الذى ينقل عن ثقات المغاربة، وخاصة فى العصر الموحدى، لا يفرق بين مدينة الثغر الأعلى المحدثة: «وَبْذَة» وبين مدينة الأندلس الجنوبية «رُنْدَة» الشهيرة، والواقعة على مستوى شريش- شرقاً. وعن هذا الطريق توارث الكتاب ذلك الخطأ، وضاعت ذكريات حملة وبذة الموحدية عند الكثير من الكتاب، ولفترة طويلة من عصورنا الوسطى المتأخرة.[١]

صاحب آبلة (الأحدب- أبو البرذعة) يردّ على غارات الموحدين:

إلى جانب هذين الإسمين الساخرين اللذين اشتهر بهما صاحب آبلة عند الموحدين، ينص ابن صاحب الصلاة- المعاصر- على أن اسمه الحقيقى هو شان منوس الذى ربما كان أصلاً سانكو خيمينس حسب رواية ابن

(١) انظر ابن الأثير، ج١١ ص٣٩٠ الذى ينقله إبن خلدون، ج٦ ص٢٤٠ .

أبى زرع.[١]

ويقرر ابن صاحب الصلاة أن الرجل الذى يصفه بـ«المسن الضال» كان «فى أيام فتوته وكهولته وشيخوخته يشن الغارات على المسلمين: غرباً وشرقاً وقبلة وجوفاً، بجموع من الكفرة إخوته، ويصل بهم إلى جزيرة طريف، والجزيرة الخضراء». وهكذا كان يؤذى المسلمين «إلى أن أذن الله بهلاكه، وفناء شرذمته أهل آبله فى هذا التاريخ (سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٠م) بسعد سيدنا ومولانا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين (يوسف)». فقد خرج فى شهر شعبان ٥٦٨هـ/مارس١١٧٣م من آبله يريد نظر أشبيلية، وعبر الوادي الكبير فيما بين حصن بلمة (حاليا Palma del Rio)، وحصن الجرف (Al Jarf)، بين أشبيلية وقرطبة، لكى يشن غاراته على جهات إستجه إلى قبلة قرطبة، إلى القنبانية (La Campina) حيث حصل على غنائم كثيرة، من: آلاف الغنم، ومئات البقر، كما أسر من المسلمين فوق ١٥٠ (مئة وخمسين) رجلاً[٢].

ورداً على غارة الأحدب الجريئة هذه «خرج إليه العسكر (الموحدى) المنصور من أشبيلية يوم الخميس ١٣ من شعبان/ ٣١ مارس، وقدّم عليهم (الخليفة) أخاه السيد الأسنى أبا زكريا يحيى... ومعه أخوه أبو إبراهيم

(١) انظر ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٥١٨- حيث يمكن تفسير إسم شان بمعنى القديس (شنت) فكأن الرجل كان معمّرا، الأمر الذى ترجحه الرسالة الموحدية رقم ٢٢ ص١١٢ من نشر بروفنسال- حيث النص على أن الأحدب كان من ذميمى النصارى من أهل آبله، «ومن انضاف إليهم من الفريريين (الإخوان الرهبان Les fèrers وغيرهم». هذا ولو أن الاستاذ بروفنسال يعرض فى دراسته للرسالة (ص٥٣) لرأى الأب انطونيا (Antuña) الذى يرى أن إسم قمس آبله هو سانكو شيمينيز، الأمر الذى يتفق مع تسمية ابن أبى زرع للأحدب التى ربما كانت المرجع.

(٢) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٥١٨-٥١٩، وقارن ابن عذارى (هويثى) ص٩٨، وقارن رسائل موحدية بروفنسال، الرسالة ٢٢ ص١٢٢-١٢٣- حيث إجتياز الوادى الكبير واكتساح الماشية فى جهة استجه، ثم العطف على موضع الكنبانية فى طريقهم إلى مُنور؛ وانظر الدراسة، ص٥٣.

إسماعيل... وأشياخ الموحدين وأشياخ العرب بنخبة قبائلهم، وأنجاد فرسانهم ورجالهم... » ولما كان الأعداء قد عبروا الوادى الكبير فى طريق العودة، فلم يكن هناك مفر من اتباعهم إلى آخر الشوط. «فلما وصلوا إلى مدينة آبله، وصفت نفوس الناس للغزو... وأولهم الشيخ أبو حفص إينتى...، واستعدوا من الزاد لعلوفتهم وأكلهم ما يكفيهم فى سفرتهم المنصورة، فمشوا على استعدادهم حتى وصلوا حصن بطروج (Pedroche: بطروش) حيث استراح من ناله الضعف من الناس، بينما قدموا الأدلاء، وعلي رأسهم الحافظ أبا عمران موسى بن أحمد الصنهاجى، يعرفونهم بمراحل مسير النصارى كل ساعة وبأخبارهم.

وفى صبيحة ١٩ من شعبان/ ١٥ أبريل ١١٧٣م تأخر النصارى وشيخهم عن الرحيل بموضعهم كركوى (Caracuel) بقرب قلعة رباح. وعندما علم بذلك الموحدون اعتقدوا أن النصارى يريدون اللقاء فى هذا الموضع، «فتأهبوا بأجمعهم، ولبسوا غلايل الدروع، والبيض فى رؤوسهم كالشمس فى الشروق واللموع، وأخذوا أسلحتهم فى أيديهم».

وهنا تقول الرواية أنه بينما كان الموحدون يأخذون أهبتهم للقاء، «كان العدو يظن أن لا مقارع له، ولا من يقف قبله على ما تعوّد قديماً». وعندما عرف الموحدون حالة استرخائه عزموا على البروز إليه، «فاستعجل الكافر الرحيل... فسلّ الله عليهم سيفه. وعندما انحازوا إلى جبل شاهق فى شعراء ملتفة ظنوا أن فيه منجاتهم، ولم يعلموا أن فيه مصارعهم ومماتهم... » ولم ينجح تحريض الأحدب فى تقويم موقفهم، «فبعد نصف نهار فى طعن وضرب، ومصارعة وحرب، هزم الله المشركين... ووصل الموحدون إلى اللعين الأحدب... وهو على سريره فى خبائه، فقتل عليه، واحتز رأسه من جسده لديه، وقتل جميع من كان معه... ولم ينج من النصارى إلا قليل يقدروا بـ ٢٠٠ (مائتى) فارس اختفوا فى الشعارى... ولم يكن لهم بعد هذه الهزيمة رأس يخرجون معه، ولا قام لهم علم أبداً إلى

هذا التاريخ».(١)

(١) ولا بأس ان كان ذلك في العقد الأخير من القرن السادس الهجري انظر ص٤٠-٤١ من دراسة المحقق (عبد الهادى التازى) حيث النص على أن «تبيض الكتاب من قبيل مؤلفه لم يتم إلا بعد سنة ٥٧١هـ/١١٧٥م، وانه في سنة ٥٩٤هـ/١١٩٨م تم الجمع النهائى بعد أن تفرغ (ابن صاحب الصلاة) للإمامة والخطبة بالجامع الكبير...»- أما عن حرب الأحدب، فانظر المن بالإمامة، ص٥١٩-٥٢٢- حيث النص على امتلاء أيدى الموحدين من الدروع والبيض والخيل والبغال والحمر...، وجمعت رؤوس النصارى... وميّزت وعين رأس الأحدب، وأمر بحمله إلى أشبيلية... حيث ضربت الطبول، واجتمع الناس لتهنئة الخليفة وإنتسب هذا الفتح العظيم إلى الشيخ أبى حفص عمر اينتى، والسيدين: أبى زكريا وأبى إبراهيم إسماعيل. وكان وصول نبأ هذه المسرة العظمى (إلى أشبيلية) يوم الجمعة ٢١ شعبان/١٧إبريل١١٧٣م، على ٣(ثلاثة) أيام من تاريخ الوقيعة». وكان الاحتفال بذلك النصر في اليوم التالى (السبت ٢٢شعبان)، حيث «جلس الخليفة وأخوه السيد أبو حفص في مجلس التهنئة، وقد ترتب الموحدون والأشياخ من طلبة الحضر والفقهاء والكتاب والخطباء». هذا كما أذن لمن حضر بالباب من المهنئين بالدخول «على مراتبهم: من: الأدباء والشعراء فأدخلهم الوزير أبو العلاء ادريس ابن جامع، والفقيه أبو محمد المالقى شيخ الطلبة معه».

هذا، كما خطب الشيخ الزاهد أبو محمد عبد الواحد بن عمر باللسانين: «الغربى فأعرب فيه للموحدين فى لسانهم... ثم شرع ذلك باللسان العربى لأهل شأنهم. وبعد خطب الفقيه أبو بكر بن الجد، والقاضى أبو موسى عيسى بن عمران، والفقيه أبو محمد المالقى، وأنشد الشعراء أشعارهم (التى لم يسجلها ابن صاحب الصلاة)، وهم: أبو الحسن على الأشيرى وغيره من شعراء أهل العدوة وأشبيلية، ولما طال الانشاد قام أبو محمد المالقى«فقبض من سائر الشعراء بطائقهم بما صاغوه، ووضعها بين يدى أمير المؤمنين الذى أمر بتعجيل جوائزهم». فكان للطبقة الأولى: ٥٠ (خمسون) ديناراً، والثانية: ٤٠ (أربعون) ديناراً، والثالثة: ٣٠ (ثلاثون) ديناراً. ثم بويع أمير المؤمنين، وقبل جميع الحاضرين يده المباركة، وقارن ابن عذارى (هويثى)، ص٩٨-٩٩، حيث إنتهى الأمر بحمل رأس الأحدب إلى أشبيلية «فضربت الطبول على ذلك»، مع الإشارة، إلى وصف مقتل الأحدب فى كتب الخليفة إلى أخيه السيد أبى عمران مع الإشارة إلى كونه من «أولاد الخلفاء النجباء الطلبة الأدباء والخطباء والشعراء، والى بعض المخاطبات الشعرية بينه وبين القاضى حجاج بن يوسف، وهى المخاطبات التى كلف بها جميع أهل العصر، ومنها ما كتبه القاضى يتشوق إليه عندما تغيب ٣ أيام بسبب المرض، ومنه:

يغيب البدر يوماً ثم يبدو   وأنت تغيب عن عينى ثلاثا

وهكذا كانت غزوة وبذة بشيراً بما تلاها من الفتح، إذ سرى خبر الوقعة (وقعة صاحب آبله ومن معه من الإخوان الفرير أو «الأفرريين»: الرهبان)، ومقتل الأحدب، مسرى الشمس، وتحدثوا في كنائسهم... بما عاينوه من قبل أحزابهم فخامرهم الروع والجزع... ثم توالت عليهم في أثر ذلك البعوث في العساكر. وبذلك كان الموحدون يستطيعون إرسال البعوث بعيداً في الشمال إلى أنظار طليطلة بعد التخطيط الجيد، والمستفاد من تجربة وَبْذة.

إمداد بطليوس خطوة أولى للإنطلاق إلى أحواز طليطلة:

وهكذا صدرت أوامر الخليفة أبي يعقوب يوسف بحمل الميرة إلى بطليوس لتأمينها. وبناء على ذلك تطلب الأمر حملة من: ٤٠٠٠ (أربعة آلاف) فارس من الموحدين والأجناد الأندلسيين والعرب بقيادة كل من يوسف بن تيجيت وعبد الله بن إسحق بن جامع، وهي تحرس ٣٠٠٠ (ثلاثة آلاف) دابة محملة بالقمح والشعير والدقيق والزيت والملح والآلات والمرافق، وذلك لتأمين الأرزاق لأهلها وقت الضيق، وخاصة أثناء الغزوة المدبر القيام بها في أقاليم الشمال من أحواز العاصمة القشتالية: طليطلة- بهدف استئصالها، بفضل الله.

وعند الوصول إلى بطليوس دفعت الميرة إلى شيخ بطليوس، القائد: أبي غالب بن الموصلي، على أن يختزنها حسب الأوامر الأميرية الصادرة من أشبيلية.

ومن ثم حولت الحملة العسكرية وجهتها نحو طلبيرة، «فأغاروا عليها وعلى بسائطها، فغنموا من سائمة البقر والغنم أكثر من ٣٠,٠٠٠

فجاوبه السيد أبو عمران في الحين «وماروى ولا بيض قرطاسا ولا سوى»:

أتتنا منكم درر فحلت محلاً أوجبت منا انبعاثا

هذا مع الإشارة إلى أن السيد أبا الربيع بن أبي عبد الله بن عبد المؤمن كان من الشعراء المجيدين (ص١٠٠).

(ثلاثين ألفا)، مع ما وجدوه من سبى. والمهم أن الحملة نجحت على المستوى الإقتصادى والعسكرى، إذ «امتلأت أيدى المسلمين (بالسبى والغنيمة)، وقتلوا من حاربهم، وأسروا من طاوعهم».

وأمام هذا النجاح الباهر رأت القيادة العليا فى أشبيلية أن تستمر الغارة فى وجهتها نحو الشمال لاجتياح «أنظار طليطلة وما يليها». ونجحت الحملة فعلاً فى الحصول على الكثير من المغانم، كما نشرت الدمار فى المنطقة حتى أرغموا أهلها على طلب السلم والصلح والهدنة [١].

خضوع صاحبى قشتالة (طليطلة) والبرتغال (قلمرية):

وهكذا طالب بالصلح والهدنة صاحب طليطلة الكونت نونيُه دى لارا، حليف أذفونش الصغير (السليطين: الثامن) ووصيه، ومن ثم تابعه أذفونش بن الرنك (الريق: Alfenso Enriquez) ملك البرتغال، وذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٥٦٨هـ/يوليُه-أغسطس١١٧٢م- حيث وصل رسُلهم إلى أشبيلية [٢] حيث عقدت الهدنة والصلح لمدة ٧ (سبع) سنوات. هذا، وينص ابن صاحب الصلاة على أن الموحدين كانوا بدورهم، فى حاجة ماسة للصلح، إذ يقول: «فأسعفهم الأمر العزيز فى رغباتهم وطلباتهم، لما كان فى نفس أمير المؤمنين (يوسف) من إسكان البلاد القفرة فى هذه الجزيرة، وما كان من غدر جرانده العلج اللعين لها» [٣].

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٥٢٦ .

(٢) ابن خلكان ج٥ ص١٣٣، ١٣٥- حيث النقل عن مجموع بخط ابن العمال بن جبريل «أخى العلم المصرى»، ناظر بيت المال بالديار المصرية... وفيه فوائد من أخبار المغاربة وغيرهم.

(٣) المن بالإمامة، ص٥٢٦، وهـ-٤ حيث الإشارة إلى غدر قائد ابن الرنك بمدينة باجة، ووصوله الى أشبيلية مستسلما، وانظر ابن عذارى (الموحدون، ص٩٤)، والبيدق، ص٢١٦- حيث النص على جوازه إلى مراكش حيث ظهرت خيانته وقتله فى سنة ٣٦٥هـ ربما (٥٦٥). والمهم هنا أن رواية ابن صاحب الصلاة تنتهى بإقامة الرسل بأشبيلية مدة شهرين تقريباً، حتى كمل السلم... وأعطوا الكفرة صفقة الذل بأيديهم وذلك مع نهاية السفر الثانى من كتاب تاريخ المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، (ص٥٢٧)، ومن حيث يصبح بيان ابن عذارى المصدر الرئيسى لتاريخ الموحدين، وفى سنة ٥٦٨هـ- وصل الترك من مصر إلى جبل نفوسة، ابن الأثير، ج١ ص٣٨٩.

والواضح من نص بيان ابن عذارى أن وصول «العلج الطاغى جرانده (جيرالدو سيمبافور) الذى غدر مدينة باجه، وغدر الحصون والمدن، وأقفر المعمور والمسكون، وكان قائد إبن الرنك (ملك البرتغال) وصاحب جيوشه»، وكان وصوله إلى أشبيلية فى سنة ٥٦٩هـ (١٢ أغسطس١١٧٣م-أغسطس١١٧٤م)، ومن الواضح فوق ذلك، أنه كان فى نفس الوقت مخالفاً لملك البرتغال (الفونسو هنريكيز). فهذا ما يفهم من نص البيان الذى يقول: «فوصل مع أصحابه الأدلاء إلى أشبيلية، حضرة الخليفة: سامعاً طائعاً ليكون عبداً خديماً، ولينكى إخوته النصارى، بما يكون تصديقاً له عند الخليفة وتقديماً، بمعنى أنه دخل فى خدمة الموحدين الذين سيدفعون له الثمن، كما كانت عادة أمثاله من أهل الحرابة، الذين يقدمون خدماتهم لمن يدفع لهم الثمن- حسب مقتضى الحال. فهكذا قبل منه القول، وأنزله (الخليفة) وأمر له بالإحسان والكرامات.[1]

وتسترسل الرواية قائلة أن دخول جرانده فى كنف خليفة الموحدين أساء ابن الرنك ملك البرتغال، «فلم يزل يرسل إليه سرّاً فى أن يتحيل الإرتداد والغدر والمكر». وبطبيعة الحال لم يكن ليخفى على حكومة أشبيلية التى وضعته تحت المراقبة حقيقية، حيث ظهرت ردته بعد أشهر، وانتهى الأمر بالقبض عليه، ومن ثم تقييده «هو وأصحابه فى الحديد»، وإرسال الجميع بعيداً إلى سجلماسة فى صحراء درعة حيث كان سجنهم بعيداً عن العمران. ولم يكن مثل هذا المغامر الخطير ليركن إلى الهدوء والسلم، إذ اكتشفت حيلته فى محاولة للفرار إلى بعض المراسى المغربية من أجل العودة إلى الأندلس، فكان جزاؤه القتل. وبذلك «انكفّ عن الإسلام بأسه».[2]

---

(١) ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١٠٣.

(٢) ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١٠٣.

الهيمنة الموحدية على الأندلس:

أشبيلية حاضرة للأمبراطورية الموحدية لمدة ٥ سنوات (٥٦٦هـ/ ١١٧٠م-١١٧١/١١٧٥م)

لا شك أن إقامة أبى يعقوب يوسف بالأندلس لمدة ٥ (خمس) سنوات متوالية، إعتباراً من ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م حتى سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٥م، كانت فرصة تحوّل نوعية بالنسبة للدولة الموحدية، جعلت من يوسف بن عبد المؤمن، وهو المثقف الأندلسى، أعظم ملوك الدولة الموحدية بحق، وذلك على جميع الأصعدة: السياسية والعسكرية والمدنية، وهو الأمر المقبول حقيقة.

فعلى المستوى التاريخى كانت ولاية يوسف سنة ٥٥٨هـ/١١٦٢م تعنى أن الدولة الموحدية قد تجاوزت سن الأربعين، وهو سن الرشد، بمعنى رسوخ قواعدها وثبات أركانها تمهيداً للدخول فى مرحلة النضج والعطاء. ومن العلامات المبشرة فى هذا المقام: بداية استقرار الأمور فى بلاد الأندلس، بفضل السياسة التى اتبعتها حكومة يوسف، والتى رأت أن تركز عملية الإصلاح الموحدية المتطورة فى العناية ببلاد الأندلس، القاعدة الحقيقية لعملية الإحياء المغربية- الاسبانية- بعد توحد المغربين: المراكشى والأسبانى الأندلسى.

«الاسترجاع» الموحدى فى مقابل «الاسترداد» الفرنجى

دفع خطر الإسترداد بعيداً عن الحدود الإسلامية على وادى آنه:

من المتعارف عليه فى السياسة العسكرية والحرب، أن خير وسيلة للدفاع هى الهجوم. ومع بساطة هذه النظرية وجاذبيتها، فإن للهجوم متطلباته، كما هو متعارف عليه، وأهمها توافر المال، بمعنى الاستقرار الإقتصادى، عصب الحرب وضمان استمرارها. ولما كانت منطقتا قرطبة وأشبيلية وتوابعها (من النواحي والأحواز والأنظار)، كما هو الحال أيضاً بالنسبة لبطليوس التى كانت مهددة بالسقوط لموقعها الإستراتيچى الحرج

فيما بين الثغور والتحصينات القشتالية واليونية والبرتغالية التى كانت تحصد أسباب ميرتها من الطعام، مما سبقت الإشارة إليه. ومثل هذا الأمر هو الذى دعا أبا يعقوب يوسف إلى الانتقال إلى أشبيلية والإقامة فيها حوالى ٥ (خمس) سنوات (٥٦٦-٥٧١هـ/ ١١٧٠-١١٧٥م)، الأمر الذى كان يعنى اتخاذ حاضرة الأندلس: أشبيلية للأمبراطورية (الموحدية)، وبالتالى تصبح قرطبة فى مواجهة خط الدفاع الأول أمام أشبيلية التى احتلت مركز الحاضرة، وبطبيعة الحال كان ينبغى تأمين عاصمتى الوادى الكبير، فتكونا ممتنعتين على الأعداء، خارجتين عن حدود الأرض الحرام (no man's land)- الأمر الذى سمح بالجولة العسكرية فى أحواز كل من وبذة وقونكة، فى جيش مشترك: مغربى- أندلسى وأفريقى- عربى فى نفس الوقت- الأمر الذى يعنى إمداد قوات «الاسترجاع» الموحدية المغربية بدماء شرقية عربية، وهو ما يعنى أيضاً تحولاً نوعياً فى تصنيف القوات الموحدية على عهد يوسف. وهذا ما يشير إليه ابن الأثير والنويرى، قائلين: وأقام بها (الأندلس، أبو يعقوب إلى سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٥م»وهو يجهز العساكر فى كل وقت، ويرسلها إلى بلاد الأفرنج. وكان فى تلك المدة عدة وقائع وغزوات، ظهر فيها من شجاعة العرب ما لا يوصف، حتى كان الفارس من العرب يبرز بين الصفين، ويطلب مبارزة الفارس المشهور من الفرنج، فلا يبرز إليه أحد.(١)

والمهم أن أسوأ الجبهات الحربية مع العدو كانت جبهة الثغر الأدنى فى الغرب الأندلسى، والتى كادت تغلب على الساحل الأطلنطى الجنوبى بأسره فى أقصى الغرب، فكأنها كانت تهدد عدوة المجاز فى طريفة، كما كانت تتمدد شمالاً بشرق إلى بطليوس، وموضع الزلاقة: الأمر الذى كان

(١)(ابن الأثير، ج١١ (سنة ٥٦٨هـ)، ص٣٩٠، وقارن النويرى، نهاية الأرب (أبو ضيف)، ص٤٣٢، وانظر عبد الواحد المراكشى، المعجب، ص٥١، حيث الإقامة فى الأندلس من ٣ سنين (إعتباراً من سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧١م إلى آخر سنة ٥٦٩هـ/يوليه١١٧٤م)، وقد ملك الجزيرة بأسرها.

يثير اهتمام أبي يعقوب يوسف، فيتخذ الإجراءات المناسبة، لمواجهة تلك المخاطر، كما حدث في سنة ٥٦٥هـ/١١٧١م بالنسبة لرُندة والجزيرة الخضراء، وسنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م بالنسبة لبطليوس، مما سبقت الإشارة إليه. وهذا ما يعني أن السبب الرئيسي لقيام الخليفة يوسف بحملته الكبرى إلى الأندلس في تلك السنة، والتي استقر فيها بأشبيلية لمدة خمس سنوات قادمة، حيث «شرع في استرجاع بلاد المسلمين من أيدي الفرنج»، فكأن حرب الموحدين في الأندلس كانت حركة «استرجاع» في مقابل حركة «الاسترداد».[1]

والمهم أنه بعد جولة وبذة وقونكة كان خروج أبي يعقوب يوسف من أشبيلية في أول صفر ٥٦٩هـ/١١سبتمبر١١٧٣م، بجيشه الكبير ليهدّن منطقة الحاضرة الأندلسية وعاصمة الأمبراطورية وقتئذ، ومركزها الذي تدور عليه دائرتها- وليّمنعها من أي خطر يُهدّدها. ووقع اختياره على نظر حصن القلعة: قلعة جواد يارا (Guadiara).

والظاهر أن الحصن المهدم من قديم الزمان، منذ أيام إمارة قرطبة، على عهد عبد الله بن محمد الأموي، والذي كان قد هدمه بسبب ثورة ابن حجاج فيه عليه، وملك منه أشبيلية وقرمونة، كما تقول الرواية، ربما كان موضعاً لأهل الحرابة (المفسدين) من النصارى أو من المسلمين، رغم أن الرواية تكتفي بالقول: «فأمر الخليفة أبو يعقوب ببنائه، وعمارته نظراً وصلاحاً لفحص أشبيلية»[2] بمعنى أنه أصبح محرساً يؤمن المنطقة، بل

(١) ابن خلكان، ج٧ -١٣١- حيث النص على دخول يوسف الأندلس بجيش ضخم مكون من ١٠٠٫٠٠٠ (مائة ألف)، وان حركة الإسترجاع الموحدية أدت إلى أن «إتسعت مملكة الأندلس»، حيث كانت «سراياه تصل إلى باب طليطلة: كرسي بلادهم»، بل وإنه «حاصر طليطلة، فاجتمع كافة الإفرنج عليه... فرجع عنها. هذا ولابأس إن كان إتساع «مملكة الأندلس» الموحدية يرجع أصلاً إلى ضم أراضي الشرق التي كانت تابعة لبني مردنيش، والتي أدت إلى حملة كبرى، وهي حملة وبذة قونكة- بصرف النظر عن نهايتها المزعجة.

(٢) ابن عذاري، الموحدون (هويثي)، ص١٠٣ .

ويعيد إليها الحياة، فلا تصبح أرضاً حراماً.

هذا، ولما كانت تلك الرواية الأندلسية تردف ذلك بواقعة وصول «إبن مثنى مشرف تونس والقيروان، بأموال خراجهما»، فإن ذلك يعنى ما يؤكد فكرة أن أشبيلية كانت- فى تلك الأوقات- حاضرة الأمبراطورية الموحدية، حقيقة لا مجازاً- الأمر الذى يضفى على حكومة أبى يعقوب يوسف، إسم الدولة الأندلسية- المغربية، حقيقة أيضاً لا مجازاً.

وهكذا، كانت صبغة الدولة الموحدية الأندلسية تزداد شفافية مع أعمال يوسف الجهادية عن طريق «الإسترجاع»، كما كانت تزداد بريقاً بأعماله الحضارية، وخاصة فى أشبيلية. فبفضل تحضير أشبيلية، وتمدينها بالمسجد الجامع. وبالأسوار والأبراج، والتى ستكتمل سنة ٥٨٠هـ/ ١١٩٥م بالصومعة العظمى المعروفة حالياً بالجيرالدا (الدوارة)، والتى تتجمل بالمزاغل الحربية المخصصة لإطلاق السهام والنبال، لتضفى على المدينة والجامع هيبة حربية فوق هيبتها المدنية، وخاصة بعد بناء القصبة، التى اعتبرت من رمز الدولة الموحدية، من حيث كونها معسكراً للحامية، ومركزاً للحكومة- خلافية كانت أم محلية.

خضوع ليون:

وهكذا كان أبو يعقوب يوسف، وهو مستقر فى محلته بأشبيلية، يصدر الأوامر سنة ٥٧٠هـ (٢ أغسطس١١٧٤- ٢١ يوليُه١١٧٥م) بغزو البيبوج (El-Baboso): إبن الفونسو الـ(٧) ملك ليون، الذى بادر بالصلح، بل وطلب الاستعانة بعسكر موحدي على القمط نونه (دى لارا El-conde Nuño de lara) صاحب طليطلة والمستبد بها. وفعلاً قدم الموحدون المعونة العسكرية للبيبوج الذى حافظ على العهد، الأمر الذى ظهر فى حمايته لمدينة بطليوس، وإنقاذها من براثن ملك البرتغال: ابن الرنك الغادر لها (مما سبق).

ولما كان قد أنفق فى حماية بطليوس هذه مالاً كثيراً، فإن الخليفة أبا



خريطة رقم -٢-

خريطـــة ليـــون

يعقوب يوسف وجه إليه «هدية فيها منت منظوم بالجوهر، وحملها له أبو محمد بن جامع (الوزير): وابن عزون (القاضى) وأبو زكريا الكومى، فقبل الهدية بأوفى السرور». ورد ملك البرتغال الهدية بمثلها، كما أرسل بصحبتها «شهوداً عليه باستمرار الصلح. وتمادى على ذلك حاله إلى آخر سنة ٥٦٩هـ/٣يوليه ١١٧٤م».(١)

ولم يتردد الخليفة يوسف فى إتخاذ الإجراءات اللازمة لمعاقبة البيبوج الناكث بالعهد، فقد اتخذ فى التو واللحظة الإجراءات اللازمة لعقابه، من: الكتابة إلى العرب المجاهدين بالأندلس والأجناد يطلب منهم الوصول إلى أشبيلية لعقابه، متأهبين للغزو، «فوصلوا بجمعهم». ولما كانت الحملة عملية تأديبية عابرة، فقد قام السيد أبو حفص بقيادتها نيابة عن أخيه الخليفة.

وهكذا خرج السيد أبو حفص من أشبيلية فى يوم٣ من صفر سنة٥٧٠هـ/٣سبتمبر١١٧٤م، متوجهاً إلى الغادر البيبوج بمدينة السبطاط قاعدته- بينما كان الكونت نونيه دى لارا غالباً على طليطلة. ودخلت الحملة الموحدية إلى بلاد الغادر، وافتتحت موضعى: قنطرة وناضوحى (غير المعروف). وإذا كانت الرواية تقول إن ذلك حدث «فى خبر طويل»، فالظاهر أن ما دعا إلى ذلك هو اهتمام الشعراء بالإشادة بالحملة، وإطنابهم فى الإشادة بالخليفة يوسف الذى يوصف بأنه «خليفة الله». وهذا ما يظهر فى شعر أبى العباس الجراوى، حيث يقول فى قصيدة أولها:

عن أمركم يتصرف الثقلان ... وبنصركم يتعاقب الملوان

وبما يسوء عدوكم ويسركم ... تتحرك الأفلاك فى الدوران

من يعرف الرحمن حقاً يعترف ... بحقوق خليفة الرحمن(٢)

---

(١) ابن عذارى، الموحدون (هويشى)، ص١٠٣-١٠٤ .

(٢) ابن عذارى، الموحدون (هويشى)، ص١٠٤ .

إحياء مدينة باجة:

وكانت من نتائج هذه الحملة أن ارتدع ملك البرتغال عن معاداة دولة أبي يعقوب يوسف، فطلب الصلح الذى يفهم من سكوت النص عن حقيقته، إن الخليفة يوسف عندما قبل بتجديده مع البرتغال، كان يتخذ الإجراءات المناسبة لحماية إقليم الغرب من غدر جديد يقوم به ابن الرنك (الفونسو هنريكيز). وكان هدفه من ذلك هو إحياء مدينة باجة «قاعدة الغرب».

وهكذا صدرت الكتب الرسمية الى جميع البلاد فى استدعاء أهل باجة إلى الحضرة العلية بأشبيلية. وعندما تمّ وصولهم إلى الحضرة الأندلسية، أدخلوا إلى المجلس الأميرى فى يوم السبت ٧ من ربيع الثانى سنة ٥٧٠هـ/٦نوفمبر١١٧٤م. وكان احتفالاً كبيراً حضره الإخوة السادات، وأشياخ الموحدين، وملوك الأندلس، من: بنى عزّون، وبنى مردنيش، وبنى همشك، ووجوه طلبة الحضرة (من رجال الحاشية)، ومنهم: أبو محمد المالقى، وأبو بكر بن الجد، وأبو موسى عمران.

ودخل وجوه أهل باجة على الأمير يوسف، والوزير أبي العلاء إدريس بن جامع يعرف بهم واحداً بعد الآخر. وبعد تشريفهم باللقاء والسلام أمرهم بالمشى إلى بلدهم باجة وسكناها: «بعد ونظرنا لكم فى زوال روعكم والتئام صدعكم». وكان من أوامر الأمير يوسف في هذا الشأن: رجوع جند أهل البلد ورعيتها، وإعمار الحصون المجاورة لباجة والاستطيان بها. هذا، وكما كانت سياسة الإعمار الموحدية فى الأندلس، صدرت الأوامر بسكنى إحدى القبائل الموحدية فى مدينة باجة، حتى يكتمل التضامن بين المجاهدين من الأندلسيين والموحدين المغاربة، فيشد كل منهما أزر الآخر، دون انتظار وفود المجاهدين الموحدين من المغرب، والذى يمكن استحضارهم حسبما تقضى الضرورة.

وعهد بولاية باجة الجديدة إلى واحد من أسرها العريقة، وهو الحافظ:

أبو بكر بن وزير.(١)

العودة إلى باجة:

يفهم من نص ابن عذارى أن أول الداخلين إلى باجة كانت الحامية المخصصة للدفاع عن المدينة، وهو الأمر المنطقى. وهكذا سار الحافظ (المشرف) أبو على ابن تيمصليت، فى ٥ ربيع الثانى سنة ٥٧٠هـ/٤نوفمبر١١٧٤م، على رأس قوة عسكرية من أشبيلية إلى شلب. ومن ثم سار فى جولة تفتيشية على جميع بلاد الغرب: الهدف منها التحضير لما يلزم من أجل إعمار باجة. وخرج إثره فى اليوم التالى (٦ربيع الثانى/٤ نوفمبر١١٧٤م) والى باجة المعين، وهو: أبو بكر بن وزير، على رأس الحامية المخصصة لضبط باجة، من: الجند والفرسان.

أما عن أهل باجة فكان خروجهم من أشبيلية بعد أسبوعين، وذلك فى يوم ٢١ من ربيع الثانى، وكان وصولهم إلى باجة فى يوم الخميس١ جمادى الأولى/٢٨نوفمبر١١٧٤م، حيث عاينوا ما كانت عليه «من الدمار وأنكروا الأوطان». وعندما «مشى كل واحد منهم إلى داره، وموضع قراره، فأبصروا ما يشيب له الوليد، من: حرق وتمزيق».(٢)

وهكذا لم يكن أمام الباقين من أهل باجة، والذين يقدر عددهم بنحو ٢٠٠ (مائتى) رجل «من شيوخ وشبان ورجال وفرسان»، سوى النزول فى القصبة (حصن المدينة): «على ما كانت عليه من هدم سورها وخرابها». ورغم كثرة ما ألم بهم من الروع، فإنهم بدأوا إعداد القلعة الخربة لسكناهم، إنتظاراً لما كانت تعدّه الدولة لهم فى مدينتهم «الشهيدة».

---

(١) ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١٠٥-١٠٦ .

(٢) ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١٠٦، حيث الإشارة إلى بيتى الشاعر العربى القديم لبيد:

ذهبت عامر فلم يبق منها — برباض الحرير إلا الديار

وكذلك الزمان يذهب بالناس — وتبقى الطول والآثار

وبدأوا فعلاً فى التو واللحظة ببناء بابين للقصبة، أحدهما من جهة المدينة، والآخر من جهة الفحص أى الضاحية. وهكذا بدأوا السكنى فى القصبة، مع حرص كل واحد منهم على نقل خشب داره وجعله معه بالقصبة، لعله ينفعه فيما بعد. وعندما «خاطبوا الخليفة بدخولهم (البلد) جاوبهم بما أرضاهم».(١)

وفى يوم الأربعاء ٧ جمادى الأولى من ٥٧٠هـ/ ٥ ديسمبر ١١٧٤م، وصل عمر بن تيمصليت من جولته فى شلب وغيرها من البلدان، وبصحبته ٥٠٠ (خمسمائة) رجل من الحشد (العسكرى) والبنائين الذين جلبوا معهم ما يكفى من القوت لمدة شهر كامل، إلى جانب ما يحتاج إليه من آلة البناء.

وهكذا اتصل العمل والإجتهاد فى بناء السور إلى آخر الشهر (جمادى الأولى)، لكى يعود الحافظ ابن تيمصليت من جديد إلى شلب وبلاد العرب «برسم حشد (فريق) آخر للبناء. وتمادى العمل فى البناء المذكور إلى شهر رمضان المعظم (مارس- إبريل)، وقد كمل سور القصبة، وشرع فى بناء سور المدينة على كبره وخرابه». وهنا كان على الحافظ ابن تيمصليت أن يذهب إلى الحضرة العلية بأشبيلية ليقدم تقريره عما أنجز من العمل. وكان وصوله إلى أشبيلية فى أول ليلة من شوال/ ٢٥ أبريل ١١٧٥م، فكان دخوله إلى الخليفة وإعلامه بما صنع، وهو ما شكره له.

وأنه لم تمض فترة من الوقت إلا وقد قام الخلاف بين أهل باجة وبين عاملهم أبى بكر ابن وزير، الأمر الذى حدثت فيه المطالبات والشهوات، وانغمس فيه أعيانها بشهادة أهل الزور، الأمر الذى أنكره القاضى عليهم. وأمام شكايات أعيان باجة من ابن وزير وسوء سياسته، أمر الخليفة «بعزله عنهم، وولى بدلاً منه أبا على عمر بن تيمصليت». وبذلك اتصلت الغبطة بباجة، وتمكن الناس بقصبتها، وفى ديارهم الحديثة البنيان، وتبايع

(١) ابن عذارى، الموحدون (هويثى) ص١٠٦ .

الناس أرضها بينهم فى خارجها وداخلها، وحرثوا الأرض، وعمروها، وبنوا الحوانيت والرباع».(١)

هذا، ورفعت إلى دار الإشراف (الجباية) بأشبيلية ما هو مفروض عليها من الضرائب العشرية، وكراء الرباع (الوكالات التجارية)، الأمر الذى سُرّبه أمير المؤمنين يوسف.

وهكذا عادت الحياة إلى باجة التى ظلت عامرة بأهلها طالما بقى أبو يعقوب يوسف فى أشبيلية. ولكنه ما إن رحل عن الأندلس، وجعل أخاه أبا على الحسن والياً على أشبيلية حتى تعثرت الأحوال. فمن الواضح أنه طالما بقى أبو يعقوب يوسف فى أشبيلية الحاضرة، كان ملك البرتغال ابن الرنك (هنريكيز) ملتزماً بالطاعة والأدب.

الغدر من جديد بباجة:

وهكذا لم يمض على خروج يوسف من أشبيلية إلى مراكش سنة وبعض سنة، حتى عاد ابن الرنك إلى الغدر بباجة. فقد خرج بجمعه فى أواخر سنة ٥٧٣هـ/ربيع سنة ١١٧٨م، ونزل على باجة، وبقى عليها أياماً وهو يفسد زروعها حتى كاد يتغلب عليها. «ثم إنه أقلع عنها ووصل إلى أشبيلية، ونجح فى الدخول إلى قرية طريانه (Triana)، حيث مرسى الأسطول، بل ونجح فى التغلب على بعض قطع الأسطول البحرية فى الوادى الكبير، ثم انصرف فوجد باجة البائسة قد أقفرها أهلها، وخرجوا منها بأولادهم وعيالهم، وتفرّقت جميع أموالهم، وفروا إلى ميرتله (Mértola) وذلك فى المحرم من سنة ٥٧٤هـ/يونيه-يوليُه ١١٧٨م.

أما كيف حدث ذلك، فكان يوم نحس أو سوء بخت بالنسبة لأهل باجة. فالمدينة البائسة لم تكن لتحى من أجل الدفاع فقط، بل كانت قاعدة للهجوم أيضاً- حسب تكتيك حرب الحصون فى تلك الأراضى التى كانت متنازعة بين الطرفين المتحاربين، والتى لم يكن الموحدون قد حسموا

(١) ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١٠٧ .

مواقعها لصالحهم بعد.

والحقيقة أن الحافظ (المحافظ) عمر بن تيمصليت والى باجة كان قد خرج منها بجندها وفرسانها، وفى صحبته حامية حصن شَقْرية (Serpa) تحت قيادة على بن وزير، وذلك للإغارة على فحص قصر أبى دانس القريب. والمهم أنه خرج إليهم جمع عسكر أبى دانس، فتقاتلوا معهم، وأثناء القتال، خرج عليهم جملة من نصارى أهل شنترين فى فحص القصر على غير ميعاد، الأمر الذى جعل كلا من ابن تيمصليت وابن وزير وجماعتهم من حامية باجة ينهزمون هزيمة شنعاء، إنتهت بأسر كل من: ابن تيمصليت، وابن وزير، وبعض من كان معهما من الرجال والفرسان، بل وقتل الباقين. وكان من الطبيعى عندما وصل الخبر إلى باجة أن يفرّ العُزّل من أهل باجة أجمعين.(١)

نهاية سعيدة لإقامة يوسف الطويلة فى أشبيلية:

التحالف العائلى بين بنى مردنيش وبنى عبد المؤمن يؤكد الوحدة بين المغرب والأندلس:

وفى السنة قبل الأخيرة لإقامة الخليفة يوسف الطويلة فى أشبيلية، وهى سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤-١١٧٥م تمّ التحالف العائلى الكبير بين أسرتى بنى مردنيش وأسرة بنى عبد المؤمن الخلافية، حيث «تعرّس أمير المؤمنين (يوسف) بـ«صفية» إبنة ابن مردنيش (محمد بن سعد)، وكان ابتناؤه بها ليلة السبت ٥ربيع الأول/٤من نوفمبر١١٧٤م. فكان فرح وحدة التكامل

---

(١) ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١٠٧-١٠٨- حيث يختم ابن صاحب الصلاة، مصدر ابن عذارى الرئيسى، ناسباً القول إلى الحسن بن وزير، الذى يقول: إنه بعد أسره ومعه ابن تيمصليت حملهما ابن الرنك إلى عاصمته قلمرية (Coimbra)، فعمل لهما عرض تشهير (وتجريس) عظيم؛ سار فيه القائدان الموحدان وهما مكبلان بالحديد. وهكذا انتهى الأمر بأن توفى ابن تيمصليت نتيجة لثقل السلسلة الحديدية فى عنقه، وقسوة التعذيب. أما ابن وزير ففداه أمير المؤمنين يوسف بـ ٤٠٠٠ (أربعة آلاف) دينار حشمية (مرابطية).

بين المغرب والأندلس، بقيام دولة التوحيد الأسبانية المورسكية (المغربية).

وفى ذلك العرس الكبير تقول رواية إبن صاحب الصلاة أصلاً، ان الخليفة أبا يعقوب يوسف، وجه إلى العروس المردنيشية الزرقاء العينين، والذهبية الشعر، ١٠٠٠ (ألف) دينارعيناً، وهو يقول: «إنما وجهت بهذا العدد تأنيساً، وإنما الصداق الذى أمرنا به ٥٠ (خمسون) ديناراً.[١] فكأنما الموحدى العابد يوائم ما بين الترف الأندلسى والتقشف المغربى. وهذا لم يمنع أبا يعقوب يوسف من أن يهب لعروسه المردنيشية جميع ما أهدى إليه إخوتها عند فتحه لمرسية، من: الكسى والحلى والخدم، وزادها من عنده ما بهتها. وهنا تقول الرواية إنه عندما «هم من وصل معها من النساء بالدخول معها، قال الخليفة: تدخل المباركة منفردة، فدخلت، وقبلت يده، فدعا لها بخير وجامعها». والظاهر أن ذلك يعنى أن أمير المؤمنين الموحدى المتبتل لم يقبل وساطة الماشطات فى تقديم عروسه إليه بالطريقة المتعارف عليها، والتى تعنى إثبات العذرية بشكل علنى وبمعرفة المحيطات بها، وسط ضجيج آلات اللهو والموسيقى، كما كان متعارفاً عليه قديماً، وهو الأمر الذى ربما كان مستمراً حديثاً من تقاليد الزفاف فى نواحينا المصرية. وربما يكون مثل هذا ما يفهمه مثلى، من مقولة الزوج الخلافى الموحدى- رجل الدين والفلسفة- لصويحبات عروسه المردنيشية: «تدخل (ومنها الدُخْلة كما نرى) المباركة منفردة».[٢]

والمهم فى نهاية الأمر (أو العُرْس) أنه: «اتفق لبنى مردنيش أسعد ما اتفق لأحد من ثوار الأندلس، فإنهم أخرجوا ما كان بين أيديهم ثم صاروا حماء (حماية) لأمير المؤمنين، وهذا غريب وشئ عجيب».[٣]

---

(١) ابن عذارى، ص١٠٨، وقارن ابن أبى زرع، روض القرطاس، ص٢١٢- حيث النص على إسم صاحبه.

(٢) ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١٠٨.

(٣) نفس المصدر.

ومن المهم أيضاً فى رواية ابن عذارى أن سنة ٥٧١هـ/٧٥-١١٧٦م ، وهى آخر سنوات الاقامة الخمسة للأمير يوسف بن عبد المؤمن فى أشبيلية، انها تنتهى على عكس عُرْس سنة ٥٧٠ هـ/١١٧٤م، بحدث مأساوى يتمثل فى نكبة مشرف (جابى) أشبيلية محمد بن عيسى. ففى شهر جمادى الثانى (١٧ديسمبر١١٧٥م-١٤ يناير١١٨٦م) خضعت حسابات ابن عيسى (التى كانت موضع شك) للتدقيق، «وتولى تثقيف حاله وماله للمخزن (للحكومة أو بيت المال) رجل الدولة المعروف يلول بن جلداسن، واستصفى ماله بأنواع العذاب حتى الموت».[١]

والمهم فى قصة استصفاء مال مشرف أشبيلية فى نهاية إقامة الأمير يوسف أنها تظهر وجهاً آخر لشخصية يوسف، وهو التدقيق فى مراقبة شئون الحكم والإدارة، وعدم التساهل فى الشئون العامة، وخاصة ما يتعلق منها بالمال: عصب الحرب ونظام الملك، تماماً كما هو العدل- وهى الصفة التى ورثها من غير شك من والده الكبير: عبد المؤمن، وهى الصفة التى جعلت منه عظيم بنى عبد المؤمن، مما سبقت الإشارة إليه.

إضطراب الغز المصريين فى طرابلس :

وهنا لابأس من الإشارة إلى ما وقع فى طرابلس (الغرب) سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م من وصول جماعة من الغزّ المصريين إلى طرابلس، حيث بدأوا أعمالاً عسكرية وشغب ستكون تمهيداً لما يصيب بلاد إفريقية من إضطرابات خطيرة كان لها أثرها فى عدم استقرار المنطقة على عهد يعقوب المنصور بن يوسف.

---

(١) ابن عذارى (هويثى)، ص١٠٨- حيث تكملة النص: «حتى ضرب نفسه بسكين كان فى يده فلم يمت من ذلك، ثم عذب وضرب حتى مات، فلفّ فى حصيرة وربط فى وسطه بحبل ورمى به فى وادى أشبيلية، وقذفه الوادى بعد أيام فى باب أشبيلية، فأصبح عبرة... نعوذ بالله.

العودة من أشبيلية إلى مراكش

كشف حساب السنوات الخمس من الكسب والخسارة فى العدوتين

لاشك أن استقرار الحكومة الموحدية المركزية لمدة ٥ (خمس) سنوات متتالية فى بلاد الأندلس (٥٦٦-٥٧١هـ/١١٧١-١١٧٦م) كانت له مبرراته السياسية والأمنية بالنسبة لكل من العدوتين، مما يتعلق بعملية الإنقاذ الموحدية فى الأندلس، والتى بدأها المرابطون من قبل، ومن الواضح أن عملية الإنقاذ المرابطية كانت عسكرية بحتة إذا ما قورنت بعملية الإنقاذ الموحدية التى كان لها مساران متوازيان فى مجالات الحرب والسياسة من ناحية، وفى مجالات الإنشاء والإعمار فى المناطق التى كان قد أصابها الخراب نتيجة للصراع الطويل بين «حرب الاسترداد المسيحية»، «وحرب الاسترجاع الإسلامية»، والتى كانت ميادينها قد أصبحت مناطق محرّمة ليس لها صاحب، والتى صارت مجالات للنزهات العسكرية التخريبية من جانب كل من الطرفين المتصارعين، وذلك فى تلك الحرب الدائمة، والتى بدأت من مطلع القرن الثانى الهجرى/٨م، فى شكل حرب عربية إسبانية يمكن توصيفها بالمسيحية الإسلامية، فكأنها بعض حلقات الحروب الصليبية، كما يقال.

والمهم أن تلك الحرب تحولت إلى صراع شبه أهلى فى فترة ملوك الطوائف، ليس فى الجانب الإسلامى فقط، بل وفى الجانب الاسبانى المسيحى أيضاً، حيث ظهور العديد من الدويلات المسيحية إلى جانب قشتالة واشتوريش وليون، مثل: نافارا وأراجون وكونتية برشلونة، ومن ثم البرتغال، وهى الدويلات التى كانت تتحالف فيما بينها وبين ملوك الطوائف الأندلسيين، والتى كان يتحالف بعضها مع المسلمين ضد البعض فى عصرنا الموحدى هذا، كما حدث مع قشتالة وليون، بل ومع البرتغال- حسب مقتضى الحال.

هكذا،كانت أحوال الحدود المسيحية الإسلامية فى شبه الجزيرة الإيبيرية

مستقرة ما بين وادي تاجُه في الجانب المسيحي شمالاً، ونهر وادي آنه (جواديانا) جنوبا بشكل عام، فكأن مناطق ما بين النهرين (تاجه وآنه) قد صارت أرضاً حراماً. هذا مع الأخذ في الحسبان أن انحراف جواديانا يساراً نحو مصبه في الساحل الأندلسي الجنوبي جعل منطقة الغرب الجنوبية وكأنها منفصلة عن كتلة الأندلس الأسبانية، الأمر الذي سمح بتوغل دولة البرتغال الناشئة جنوباً بغرب، على حساب الأراضي الإسلامية، الأمر الذي كان يبشر بضياع «الغرب» (Algarve) تماماً مع انحسار الحدود الإسلامية نحو غرناطة والجنوب الشرقي لشبه الجزيرة الإيبرية- رغم جهود المريدين قبل تمدد الموحدين إلى الأندلس.

وهكذا، فبفضل مواصلة يوسف أعمال والده عبد المؤمن، من اتخاذ مواطئ قدم لتأمين النزول إلى الأندلس في الرباط المعروف بجبل الفتح (جبل طارق)، وقع على عاتق يوسف تأمين منطقة العاصمة الأندلسية أشبيلية بإعمار ما كان قد تهدم من حصون منطقتها، وفتح ما كان يهددها من حصون الأعداء، كما أكد ذلك العديد من الغارات البعيدة حتى طلبيرة وطليطلة، بعد ويذة وقونقة وبذلك يكون قد أمن أرضها بعد أن كانت لا صاحب لها (no man's land). أما ما ترتب على الإقامة شبه الدائمة في أشبيلية، فكان من الطبيعي أن يترتب عليه بعض السلبيات التي تدخل فيما كان يهدد بعض مواطني المغرب مثل مجئ الترك إلي طرابلس سنة ٥٦٨هـ/٣-١١٧٢م، أو اضطراب صنهاجة في المغرب، مما تأتي الإشارة إليه.

﴿ ١٠ ﴾

الطريق إلى مراكش:

كان تحرك الخليفة يوسف من أشبيلية صوب العدوة في يوم الخميس (وهو من أيام السعد الإسلامية، كما نرى) الموافق ١٤ شعبان من سنة ٥٧١هـ/٢٨ من مارس سنة ١١٧٦م، في قلب الربيع: موسم الخير وعيد الطبيعة.[١]

والذي يلفت النظر هنا، هو أنه على غير المعتاد عند الموحدين من الإحتفال بالمناسبة العامة التي كان يخرج فيها الخليفة باصطفاف العساكر على أنواعهم، من: فرسان: رجالة، والسير على ضرب الطبول، ورفع الرايات والعلامات، كان خروج الخليفة يوسف من أشبيلية، هذه المرة في السرّ دون العلانية. فقد «دخل في غراب (من قطع الأسطول السريعة) في الوادي، من مرسى طلُيطة (Tejada) ولم يسلم عليه أحد من أشياخ أشبيلية، ولا رأوه لاستعجاله»[٢]- دون تفسير سبب تلك العجلة. والمهم أن مقتضيات تلك العجلة أملت ترك الطريق المعتاد لعبور المجاز من طريفة إلى قصر المجاز (قصر مصمودة)، واتخاذ طريق طنجة الموازي لساحل الأطلنطي (بدلاً من طريق سلا- مكناس- فاس). ويمكن تفسير ذلك بإقبال طلائع فصل الصيف وتحسن الأحوال الجوية المواتية.

وهكذا،خرج جميع الموحدين من أتباعه إلى طنجة بعيالهم وأبنائهم،

---

(١) ابن عذاري، الموحدون (هويثي) ص١٠٩- حيث الإشارة أولاً إلى شهر رمضان ثم من بعد إلى إحتمال أن يكون في شعبان، وهو ما أخذنا به ليتفق مع موعد الوصول إلى مراكش في رمضان،هذا ما يأخذ به ابن أبي زرع في قرطاسه، ص٢١١- حيث يعد بناء جامع أشبيلية قد تم قبل قفوله إلى مراكش في شعبان سنة ٥٧١هـ/فبراير- مارس١١٧٥م، وقارن هويثي، الموحدون، ج١ ص٢٧٤.

(٢) ابن عذاري (هويثي) ص١٠٩.

وكذلك الخلفاء من الأمراء الأندلسيين، من بني مردنيش وبني همشك، إلى جانب رجال الدولة من العمال والكتاب، ومن في معيتهم. وانتظر أبو يعقوب في طنجة وصول الرجال حتى استوفوا عليه، ومن ثم مواصلة الطريق إلى مراكش، حيث كان دخولها في ١٥ رمضان (٥٧١هـ)/ ٢٩مارس ١١٧١م، فكأن الرحلة استغرقت شهراً بأكمله- ربما بسبب الاحتياطات الأمنية التي كانت سبباً في استعجال الخليفة في الخروج من أشبيلية.(١)

والمهم أن أبا يعقوب واجه بعد وصوله بحوالي شهر ونصف أي في أول ذي القعدة (٥٧١هـ)/ ١٢ مايه ١١٧٦م نزول الوباء والطاعون معه في الحاضرة مراكش، بشكل لم تعرفه المدينة من قبل- كما حدث على سبيل المثال قبل سفره إلى مراكش سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠-١١٧١م، والذي عاني منه يوسف كثيراً، مما سبقت الإشارة إليه. وذلك بسبب استشراء المرض الذي كان يحصد في اليوم الواحد الـ ٢٠٠ (مئتي) شخص وأكثر. هذا، وكان للعائلة المالكة نصيبها الكبير من الخسائر في «الأشراف السادات»، حيث مات من أبناء عبد المؤمن، إخوة الخليفة، كل من: السيد أبو عمران، وإخوته السادة: أبو سعيد (عثمان)، وأبو عبد الله (محمد) ثم أبو زكريا (يحيى) صاحب بجاية. أما عن ضحايا أشياخ الموحدين في الوباء، فيذكر منهم: أبو سعيد بن الحسن. وأما عن الشيخ أبي حفص بن يحيى الهنتاتي فمات بعد خروجه من قرطبة في الطريق إلى الحضرة مراكش، وكان دفنه برباط الفتح من سلا.

ومن المهم أيضاً أن إجراءات الحجر الصحي التي كانت تقضي بعدم الدخول إلى المدينة الموبوءة أو الخروج منها، فرضت على العاصمة مراكش- بعد أن تبين أن «كل من خرج منها، فاراً بنفسه مرض في الطريق».(٢)

---

(١) ابن عذاري (هويثي)، ص١٠٩.

(٢) ابن عذاري، الموحدون (هويثي)، ص١٠٩- حيث النص على أن الناس كانوا لا يستطيعون حمل موتاهم إلى الجامع للصلاة عليهم، فأمر الخليفة بالصلاة عليهم في سائر المساجد.

وأخطر من كل ذلك أن المرض أصاب الخليفة نفسه- فكانت المرة الثانية التى يضربه فيها المرض- ومما زاد الطين بلة أن أخاه أبا حفص (الوزير الخطير، والحاجب المشرف على شئون القصر) مرض هو الآخر، وكان مرضهما «طويلاً حتى كاد أن يذهب بهما»- ثم إستقلا بعد ذلك. هذا، ولقد أصاب المرض أيضاً كل العاملين فى القصور الأميرية ودور العائلة حتى كان يموت فى دورهم كل يوم الـ ٣٠ (الثلاثون) شخصاً. ودام ذلك الطاعون الخطير بقية سنة ٥٧١هـ (٦- ١١٧٥م).[١]

غزو صنهاجة القبلة: سنة ٥٧٢هـ (٧٦-١١٧٧م):

ومع إقبال سنة ٥٧٢هـ/٧٦-١١٧٧م، وارتفاع الوباء والطاعون كان مسير الخليفة يوسف- الذى كان قد خرج لتوه من مرحلة النقاهة، كما نرى- على رأس حملة عسكرية لغزو قبائل صنهاجة القبلة (أى صنهاجة الصحراء، خلفاء المرابطين الأول). الأمر الذى يعنى أن استقرار الحكومة المركزية الموحدية فى حاضرة الأندلس أشبيلية، إذا كان مفيداً بالنسبة لثبات أقدام أهل العدوة الأندلسية، فإنه كان عكس ذلك خطيراً بالنسبة للعدوة المغربية، ليس فى المشرق الإفريقى حيث كانت العناصر التركية الغزية قد بدأت تتسرب خلف قبائل العرب الهلالية، بل وبالتعاون مع عرب طرابلس منهم، فكأن الخطر لم يكن يهدد الولايات الشرقية للأمبراطورية الموحدية فى طرابلس وجبل نفوسة فقط، بل وكان يهدد أيضاً المناطق الغربية نفسها: جنوب الصحراء المراكشية، وهو الأمر الذى لم يمكن

---

(١) ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١٠٩-١١٠- حيث الرجوع إلى ابن صاحب الصلاة وروايات شهود العيان من كبار رجال الدولة الموحدية، مثل: أبى بكر بن الجد، والسيد أبى على الحسين بن عبد المؤمن، وحيث كان ضحايا سنة ٥٧١هـ من كبار رجال الدولة، مثل: القاضى أبى يوسف حجاج بن يوسف المراكشى (فريد زمانه، وله باع واسع فى الأدب، والكاتب أبى الحكم بن هارون المالقى، وأخيه المشرف أبى الحسن (من جلة الطلبة)، والكاتب أبى الحسن على بن زيد الأشبيلى، ومشرف غرناطة: أبى عمرو بن أفلح، إلى جانب جملة من الطلبة والموحدين.

السكوت عنه، بل والذى يفسر كيف أن الخليفة يوسف خرج من أشبيلية وحده إعلاناً عن ضرورة الإسراع فى العودة إلى البلاد المراكشية، وإن وقف القدر ممثلاً فى الوباء والطاعون، أمام سرعة اتخاذ الإجراءات المناسبة لإقرار الأمور فى الجنوب المراكشى، فى بلاد القبلة الصحراوية. هذا، فضلاً عما كان يبشر باضطراب المشرق البعيد فى طرابلس الغرب- وبطبيعة الحال كان إقرار الأمور فى المغرب المراكشى له الأولوية من إهتمامات الخليفة، على المشرق المغربى.

وهكذا خرج يوسف فى ٤ من ذى القعدة سنة ٥٧٢هـ/١مايُه سنة ١١٧٧م «برسم الغزو لصنهاجة القبلة»، وهو يستخلف «أخاه أبا حفص، والياً وأميراً علي الناس»[1]. وهنا يتضح لنا أن المقصود بصنهاجة القبلة، هى مواطن قبيلة هسكورة الصنهاجية المقيمة فى وادى درعة، شرق بلاد المصامدة فى صحراء درعة، بين منابع وادى تنسيفت ووادى السوس: قلب بلاد المصامدة الموحدين.

والمهم أن أبا يعقوب يوسف عندما وصل إلى رباط هسكورة، حاضرة المنطقة، «أمر الناس ببناء بيوت ودور للسكنى» للقوات الموحدية التى كان يقودها، وهى المسألة التى تعنى انتهاج سياسة توطين الموحدين، التى يخشى أن يتجدد فيها عدم الاستقرار بسبب الفتنة، وهى تقريباً نفس سياسة الاستيطان الموحدية التى بدأ تنفيذها فى الأندلس- خاصة فى المناطق العامرة بالحواضر، مثل: أشبيلية، وهو الأمر الذى كان يمكن أن يحقق الاستقرار، لو نجحت سياسة التوطين الصعبة هذه- إذ الحقيقة أن تيار الهجرة يكون عادة من الصحراء إلى بلاد الحضر الشمالية، والأكثر خصوبة، وهى السياسة التى لم يقدر لها النجاح فى حالة أمبراطورية الموحدين.

(١) ابن عذارى، الموحدون (هويثى) ص١١٠.

والحقيقة أنه إذا كانت العودة من أشبيلية بالشكل السابق غير منطقية، حيث كانت الأندلس أكثر استقراراً من المغرب، فإن توطين أهل مراكش فى صحراء القبلة كانت هى الأخرى غير منطقية. فالخليفة يوسف عندما قرر العودة إلى مراكش قدم على عسكره المقيم فى أرض هسكورة ابنه، وخليفته السيد أبا يوسف يعقوب (المنصور) كنوع من تدريب ولى العهد، بينما رحل معه فى طريق العودة: الشيخ القائد أبو عبد الله بن يوسف بن وانودين. وتبع ذلك بقية العسكر والأجناد عندما أذعن جبل صنهاجة بالطاعة. فكأن منطقة صنهاجة الجبل أصبحت منطقة فراغ أمنى، كما يمكن القول مثل ذلك عن الأندلس بعد رحيل الحكومة المركزية إلي المغرب، والإستقرار فى العاصمة مراكش.

أحوال الأندلس بعد العودة إلى مراكش

الكونت نونيه يهاجم قونكه

رحل الخليفة يوسف عن أشبيلية، وقد ترك والياً عليها أخاه أبا على الحسين، كما ترك على قرطبة أخاه أبا الحسن (على). وإذا كان ابن عذارى يعلق على ذلك بالرواية الديوانية الأصل، قائلاً: «فألزما الجدّ والنظر فى الثغور»، فإنه يتبع ذلك بما يناقضه من القول: إنه «عندما تحقق العلج الغادر نونه: صاحب طليطلة (نونيه دى لارا المتغلب على طليطلة)، ظهر لأذفونش (صاحب السبطاط)- أخزاه الله- رحلة الخليفة أبى يعقوب من الأندلس نقض العهد، ورفض السلم والعقد، فخرج بجمعه الذميم ونازل مدينة كونكة (قونكة: Cuenca) من جديد (مثلما فعل سنة وبذة)، فاستغاث أهلها بأمير المؤمنين».

وهنا يأتى تفسير إلزام السيدين الأخوين: واليا قرطبة وأشبيلية بالتزام الجد وضبط الثغور، بما وقع على عاتقهما من الإلتزام بمواجهة العدو بما كان فى إمكانهما. فلقد رأى الخليفة يوسف إنه لما كان الناس فى مراكش مازالوا بعد يعانون من توابع المرض والطاعون، وأنهم: «لا يقدرون على

الحركة» بمعنى عدم إمكانية وصول إمدادات للأندلس من مراكش «المطعونة»، فإنه اعتمد على إمكانات الأندلس المحلية فى دفع خطر العدو القشتالى. وهنا لم يكن أمام الخليفة إلا أن يأمر أخويه فى قرطبة وأشبيلية بالتعاون معاً فى القيام بغارات على كل من طلبيرة وطليطلة، فلعل ذلك يرغم العدو علي التخفيف من حصار كونكة، على أساس مبدأ أن الهجوم خير وسيلة للدفاع- وإن كان بإمكانات الأندلس المحلية فقط، حسبما كانت تقضى الأحوال الصعبة فى مراكش.(١)

الحملة على طلبيرة وطليطلة
(شوال ٥٧٢هـ/إبريل١١٧٧م)

هكذاخرج عسكر قرطبة مع السيد أبى الحسن عند تحسن الأحوال الجوية فى فصل الربيع، وذلك يوم الأثنين ٦شوال٥٧٢هـ/ ١٨أبريل١١٧٧م، وأغار على طليطلة وانصرف سالماً غانماً. ومن الناحية الأخرى خرج السيد أبو على الحسن بعسكر أشبيلية، وذلك فى ٤ (أربعة) آلاف فارس، و٤(آلاف) راجل إلى جهة طلبيرة، حيث نجح فى فتح حصن على ضفة وادى تاجه، حسبما يفهم من النص، وحيث «سبى جميع من وجد فيه من النساء والصبيان، وقتل الرجال». وهنا تقول الرواية بطرافة إن السيد أبا الحسن والى أشبيلية، لما كان قد أقسم- فى موجة حماسه عند الخروج للغزو- على أنه سوف يجوز وادى تاجه، بمعنى التوغل شمال طليطلة، فإن الرجل الطيب رأى أن يبرر قسمه الجرئ هذا، فصحب معه قارباً صغيراً يسمح بجوازه وحده لوادى تاجه (نهر طليطلة)، ثم أنه هاجم ضفة وادى تاجه- حيث الحصن السابق الذكر، كما نرى. وبذلك تحقق ما كان فى الإمكان من مهاجمة ضفة وادى تاجه الجنوبية، ثم انصرف إلى

---

(١) ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١١٠-١١١ حيث النص أيضاً: «فوصل الأمر إلى السيدين المذكورين يؤكد عليهما أن يتحركا لغزو وجهات طليطلة وطلبيرة (Ta-lavera) لعل العدو يقلع من كونكة».

أشبيلية بالغنائم والأسرى، سالماً غانماً.[١]

ثأر البيبوج صاحب السبطاط حليف نونيه :

والظاهر أن توغل قوات قرطبة وأشبيلية شمالاً فيما وراء وادى آنه، كانت فرصة انتهزها الأمير القشتالى أصلاً، وصاحب ليون، وهو المعروف بالبيبوج صاحب السبطاط، للقيام بحملة بعيدة فى الغرب، مما يذكرّ بحملات الفونس المحارب صاحب أراجون، والفونسو السابع القيصر القشتالى. فلقد جاز البيبوج بجمعه الذميم فى غارته هذه وادى أشبيلية، ووصل إلى نظر أركش (Arcos) وشريش (Jerez) فى أقصى الجنوب.

وكان ردّ الموحدين سريعاً فقد خرج عسكرهم من أشبيلية فلحق بجملة أهل طبيرة يسوقون المغانم أمامهم، فأحدقوا بهم، فقتلوهم أجمعين، وأنقذ ما كان بين أيديهم من الغنم، كما أسروا ٨٠ رجلاً من أدلائهم.

واستقبل العائدون من تلك الحملة مظفرين إستقبالاً حافلاً، فقد خرج إليهم من أشبيلية موكب كبير «بالعلامات والطبول والنظارة من العامة». هذا، كما صفّت الأعلاج من الأدلاء بين يدى السيد أبى على الحسين، والى أشبيلية، الذى «أمر بضرب رقابهم فقتلوا أجمعين بمحضر الموحدين».

هذا، ويقول ابن عذاري أن السيدين أميرى قرطبة وأشبيلية بقيا فى بلديهما ظافرين فى حملاتهما على الأعداء، إلى أن كان استدعاؤهما إلى الحضرة مراكش فى النصف الثانى من سنة٥٧٣هـ/٧٧-١١٧٨م[٢]

إستدعاء السيدين واليى قرطبة وأشبيلية إلى الحضرة للتشاور فى أمور الأندلس الداخلية والخارجية

ومن الملاحظ فى عهد الخليفة يوسف بن عبدالمؤمن أنه كان حريصاً على تتبع أعمال الولاة فى الأقاليم، سواء كانوا من السادة أفراد الأسرة المالكة، أو من كبار مشايخ الدولة أو من أصحاب الوظائف العامة، من:

(١) ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، قسم٣، ص١١١.

(٢) ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١١١.

الطلبة والحفاظ، بل ومحاسبة المتهمين منهم، محاسبة شديدة سواء فيما يتعلق بالتهاون فى أمن البلاد، أو الخيانة فى الأموال، أو الانحراف عن قواعد العدالة والاستقامة.

وفى ضوء هذه الاعتبارات كان يتم استدعاء كبار المسئولين إلى الحضرة، وخاصة من يمثلون السلطة فى بلاد الأندلس. وهكذا لبى الأخوان: حاكم أشبيلية أبو على الحسين، وحاكم قرطبة أبو الحسن على، إستدعاء أخيهما الأكبر الخليفة يوسف إلى العاصمة مراكش. وكان خروجهما سويًا من أشبيلية يوم الثلاثاء ٨رمضان٥٧٣هـ/٢٨فبراير١١٧٨م، ومشى فى صحبتهما القائد ورجل الدولة: أبو داود يلول بن جلداسن، كما صحبهما أبو على بن عزون وجملة من أشياخ الموحدين الأشبيليين. وكان من المعروف سلفاً أن موضوع المدارسة أو المساءلة، هو: «المفاوضة فى مصالح المسلمين، ومحاربة أعداء الله الكافرين».

ولا شك أنه كان من نتيجة المدارسة والمفاوضة بين الخليفة وأخويه صاحبا أشبيلية وقرطبة، حسبما تشير إليه الرواية فيما كان قد تبقى من سنة ٥٧٣هـ/النصف الأول من سنة ١١٧٨م، فلقد نزلت العقوبة بعدد من «الوزراء والعمال والخدماء» مثل: (أبو العلاء إدريس) ابن جامع، وبنيه، «وكان لهم فى الوزارة ١٥ (خمس عشرة) سنة». فلقد أقيلوا من مناصبهم، بل وحدّدت إقامتهم بمدينة ماردة (Merida)، «مغربين مهجرين٦ (ستة) أعوام إلى أن مات أبو يعقوب فى غزوة شنترين (سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م). ولما استخلف أبو يوسف يعقوب (المنصور) عفا عنهم، كما عفى عن سواهم».(١)

هذا، وكان ممن انتقم منهم أيضاً الخليفة يوسف: مشرف أشبيلية (وجابى خراجها): أبو عبد الله محمد بن المعلم، الذى «انتقدت عليه أخبار شنيعة، وأحوال فظيعة»، فأمر بسجنه، ومصادرة أمواله عن آخرها،

(١) ابن عذارى، الموحدون (هويثى) ص١١١-١١٢.

فتفرقت أحواله، بل «وضربت بعد محنة طويلة عنقه- رحمه الله». وكذلك كان الأمر بالنسبة لمشرف سجلماسة ابن فاخر، وكذلك أبو الحسن على بن جَنون.(١)

وفى إطار توحيد حكومة الأندلس وإدارتها بين أفراد العائلة الملكية، صدرت الأوامر الخلافية سنة ٥٧٤هـ/١١٧٧م بتولية ابنى أخى الخليفة: أبى الحسن، والى أشبيلية الذى توفى فى نفس العام (٥٧٤هـ)، وهما: أبو زيد، وأبو محمد عبد الله، بولاية كل من غرناطة ومالقة. هذا، كما شغر منصب والي سجلماسة بوفاة أبى العباس بن عبد المؤمن، أخى الخليفة. وكان من بين وفيات أعيان سنة (٥٧٤هـ)، وفاة: موت أبى على بن عزون، والقاضى أبو القاسم بن فضيل، وكذلك وفاة: شيخ طلبة الحضرة المراكشية: أبو محمد المالقى، أحد رجال عبد المؤمن المقربين، ومن بعده إبنه يوسف (خليفتنا).(٢)

كَلَبُ العدو البرتغالى فى الأندلس واشتداد فتنته فى البر والبحر

واعتباراً من أواخر سنة ٥٧٤هـ/أوائل ١١٧٩م، ومن ثم سنة ٥٧٥هـ/منتصف ١١٧٩م، وهي سنة وفاة السيد الأعلى أبى حفص عمر (الوزير الخطير، وصاحب الإشراف على القصر، معاون الخليفة أبى يعقوب يوسف) تبدأ مسيرة الأحوال فى الأندلس من سئ إلى أسوأ. ففى أواخر سنة ٥٧٤هـ أوائل ١١٧٩م، فى الوقت الذى كان سيل وادى أشبيلية يخرج على جهات طريانة، كانت المنطقة تعانى الأمرين، بسبب نشاط العدو البرتغالى: ابن الرنك (الفونس هنريكيز) فى البر والبحر. فقد كان يثير الفزع فى قرى الشرف (El-Ajarafe) بغرب أشبيلية، وغيرها من المناطق

---

(١) ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١١٢.

(٢) ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١١٢- حيث كان المالقى من أهل العلم والدين، ترفع له المسائل وأشعار الشعراء، كما تقدم للخطابة والصلاة بأمير المؤمنين.

المجاورة. وكان رَدّ الخليفة يوسف على ذلك هو إرسال ابنه أبى اسحق كوال (أو نائب له) لأشبيلية وسيرّ معه عسكراً ضخماً.

ولمواجهة اعتداءات العدو البحرية رأى الخليفة يوسف أن يعهد بقيادة أسطول سبتة إلى غانم بن مردنيش، وبدأ غانم نشاطه الجهادى بمهاجمة العدو البرتغالى فى قاعدته البحرية أشبونة (لشبونة)، حيث هاجم الميناء والمرسى، وتغلب هناك على قطعتين من قطع العدو، رجع بهما إلى قاعدته فى سبتة.(١)

وهكذا اشتعلت نيران الحرب مع العدو البرتغالى، الذى كان يحسن حرب «الغدر» أو الغارات الفجائية السريعة، الأمر الذى كان يتفوق فيه علي الموحدين، كما حدث فى باجة وغيرها (مما سبق). فرداً على مفاجآت ابن مردنيش للأشبونة، «عبرت (بعد ذلك) جملة ذميمة من الشياطين إلى سلطيش، فتغلبوا عليها، وأسروا فيها من المسلمين خلقاً كثيراً، وفك الله أميرهم بالفداء منهم».

والأخطر من ذلك هو ما حدث فى سنة ٥٧٥ هـ/ يونيُه ١١٧٩- مايُه ١١٨٠ م، من ارتحال السيد أبى على الحسن (بن عبد المؤمن) عن قرطبة بجميع أهله وولده ورجاله، ثم ما تبعه من ارتحال أبناء أخيه المتوفى أبى حفص (السيد الأعلى: صاحب القصر)، الذين ساروا بأُجمعهم إلى مدينة مراكش- مما نعتبره من علامات النحس سنة ٥٧٥هـ هذه. ويظهر ذلك مما تقوله تلك الرواية من أنه عندما «سألهم الخليفة عن أحوال الأندلس، فأخبروه أن صاحب طليطلة (هو الآخر) أظهر بعض الصلح، وبالغ فى الغارة والفتح».

وبطبيعة الحال لم يكن الخليفة أبو يعقوب يوسف (بجلالة قدره) ليستطيع السكوت عن مثل هذا التهديد (المرفوض). إذ تقول الرواية إنه: «غار... لذلك، وجمع أشياخ الموحدين، فغارو لغيرته... وأخذوا فى

(١) ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١١٣، ابن خلدون، ج٦ ص٢٤٠.

الاستعداد للجهاد. ونظر الخليفة أبو يعقوب فى استجلاب العرب من أفريقية، وعزم على الغزو إلى مدينة قفصة لأن يحسم علتها. فكأن حكومة مراكش الموحدية المركزية، كانت قد وقعت بين شقى الرحا، كما يقال: بفتنة الأعداء فى الأندلس، من: برتغال وقشتاليين، وفتنة العرب بأفريقية، ومن حام حومهم من الوافدين الجدد من الترك والغز أو الأغزاز. فكأن الجبهة الإفريقية الشرقية التى أطفأ عبد المؤمن نارتها، قد عادت إلى الاشتعال من جديد، ممثلة فى فتنة أمراء الطوائف المسلمين.

المسألة الإفريقية تطفو على السطح من جديد
حركة يوسف إلى إفريقية وغزوة قفصة

سبب الغزوة أن صاحب قفصة وهو علي بن المعتز، المعروف بالطويل، وهو من سلالة ملوك قفصة من بني الرند، ثار في سنة ٥٧٥هـ/٧٩-١١٨٠م، وذلك عندما رأى دخول الترك إلى إفريقية واستيلاءهم على بعضها، وانقياد العرب إليهم، طمع في الاستقلال والاستبداد، فخالف يوسف، ووافقه أهل قفصة، فقتلوا كل من كان عندهم من الموحدين وذلك، في سنة ٥٧٥هـ/٧٩-١١٨٠م، وعندئذ أرسل والي بجاية إلى يوسف يخبره باضطراب الولاية.(١)

وكان خروج أبي يعقوب يوسف إلى إفريقية وقفصة في الأشهر الأخيرة من سنة ٥٧٥هـ/ ١١٨٠م، وبالدقة حسب رواية الثقة عند ابن عذاري في يوم الخميس ١٥شوال٥٧٥هـ/ ١٥مارس١١٨٠م. أما ما لفت إنتباه ابن عذاري في رواية ابن صاحب الصلاة، فهي البركة بمعنى الراتب أو العطاء التي كان يعطيها لعساكره (أي لقواد العسكر كما نرى) وكانت تصل إلى ألف دينار (لكل واحد منهم في كل مرة؟)، وأن ذلك تمادى مدة غزوته هذه، إلى أن انصرف عنها، وذلك بالإضافة إلى ما كان يصرف لهم من العلوفات والمواساة (الإكراميات والهبات) والمرافق (النفقات الجارية) في كل منزل (٢).

وعند خروج يوسف في تلك الغزوة كان عليه أن يتصل بالطلبة الذين بجزيرة الأندلس معرفا إياهم بجهاده هذا، حتى يكون مثلاً يقتدون به في أرض الرباط والجهاد بالأندلس.(٣)

---

(١) انظر ابن الأثير ج١١ ص٢٦٧، ابن خلدون ج٦ ص٢٤٠.

(٢) ابن عذاري، الموحدون (هويثي)، ص١١٣-١١٤ - حيث نقرأ النص: إلى أنه كان يعطي البركة لعساكره في غزوة قفصة: ألفاً ألفاً وليس ألف ألف بمعنى ١,٠٠٠,٠٠٠ (مليون) كما ظن هويثي ص ٢٨١. تفسيراً لابن عذاري.

(٣) ابن عذاري، ص١١٤. واشتغل (يوسف) في سدّ الثغور التي يخافها بعد (ابن الأثير ج١١، ص٤٦٧).

ومما يؤسف له أن أخبار الحملة الإفريقية تنقطع من ١٥شوال٥٧٥هـ. فلا نعرف عنها شيئاً حتى عيد الأضحى (١٠ من ذى الحجة) من نفس السنة[١]، حيث التوقف على مسافة يمكن تقديرها نسبياً بعشرة مراحل من تلمسان.[٢]

وهكذا تنتهى سنة ٥٧٥هـ/ ١١٨٠م دون أن نعرف شيئاً مهما عن الحملة سوى أنها كانت تتوجه بقيادة ولى العهد (المنصور) نحو تلمسان.

وتبدأ سنة ٥٧٦هـ (٢٨مايه١١٨٠م-١٦مايه ١١٨١م)، ونعرف أنه فى أولها: إستكملت العساكر الموحدية بتلمسان. فكأن طلائع الحملة الإفريقية وصلت إلى تلمسان بقيادة ولى العهد (المنصور) فى آخر سنة ٥٧٥هـ/آخر مايه١١٨٠م، وأن بقية القوات وصلت صحبة الخليفة يوسف فى أوائل سنة ٥٧٦هـ/أول يونيه١١٨١م. (ما بين ذى الحجة والمحرم).

وبعد أخذ قسط من الراحة، بدأت التعبئة من أجل المسير إلى غزو قفصة وبلاد القيروان، وذلك فى ١٢ من صفر/ ١٠ يوليه. كان المسير إلى بجاية، حيث تحقق عنده أن إبن المعتز (المنتصر) يحرض العرب على الفتنة، وأنه يواصل (يراسل) الممتنع بقفصة ويواليه على الشقاق فتقبض عليه، ودخلت داره فوجد فيها مخاطبات العرب إليه بجوابه بما يشهد عليه. فأخذ ما كان بيده من الأموال والذخائر.[٣]

---

(١) انظر الهامش السابق.

(٢) على أساس متوسط المسافة من نهاية عيد الأضحى سنة ٥٧٥هـ-٥٧٦هـ دون تحديد الزيادة. فهذا ما نفهمه من النص المبتصر الخاص بتلك الحملة. ابن عذارى، والذى يقول: «فلما عيّد عيد الأضحى من السنة (٥٧٥هـ) حضّ على البدار إلى ماعزم عليه من الجهاد والسلوك فى الآكام والجهاد (بمعنى أنه عيّد فى منطقة جبلية صعبة)، وقدم ابنه المنصور أبا يوسف، فوصل تلمسان فى هذه السنة المؤرخة (٥٧٥ هـ)- والتى رأينا إختصارها إلى النصف بسبب خشونة الأرض وصعوبة السير بالتالى. ولو قدرت المرحلة بحوالى ٢٥ ك م، يكون التعييد بالأضحى على مسافة ٢٥ ك م تقريباً.

(٣) ابن عذارى، الموحدون، ص١١٤، وقارن ابن خلدون، ج٦ ص٢٤٠-٢٤١.

وسار يوسف من بجاية حتى كان بقرب قفصة، حيث وصل إليه جميع أشياخ العرب من قبيل رياح بالطاعة، وطلب الأمان فى دورهم وأنفسهم، فأسعفوا فيما طلبوا.(١)

والمهم أن أمير المؤمنين يوسف نازل قفصة فضرب عليها الحصار، وقاتل أهلها رمياً بالمنجنيق، وغيره من آلات الحصار، وذلك لمدة ٣ أشهر كما يقول ابن الأثير، حيث النص على أن قفصة «بلدة حصينة، وأهلها أنجاد»، وأن يوسف «قطع شجرها» نكاية فيهم، وينفرد ابن الأثير برواية طريفة تنسب إلى صاحب قفصة (على الطويل: إبن المعتز) الفضل فى تحقيق الأمان لأهل بلدة: قفصة، وذلك أنه عندما اشتد عليه الأمر وعلى أهل بلده، خرج مستخفياً إلى خيمة يوسف، وعرّف حاجبه أنه قد حضر للقاء أمير المؤمنين الأمر الذى أثار عجب يوسف: «وكيف أقدم على الحضور عنده بغير عهد». ويفهم من الرواية أن «الطويل» كان لديه الردّ، إذ: دخل وقبّل اليد واعتذر وطلب العفو له ولأهل بلده، «فرّق له يوسف، فعفا عنه وعن أهل البلد، وتسلم المدينة فى رمضان فى (سنة٥٧٦هـ/يناير-فبراير١١٨١م) وسيّر صاحب قفصه العاقل الشجاع إلى بلاد المغرب». «فكان فيها مكرماً عزيزاً، وأقطعه ولاية كبيرة».(٢)

إستمالة العرب الرياحية
وعقد الصلح مع ملك صقلية

وفيما يتعلق بترتيب قفصة تظل رواية بن الأثير هى الأوفى والأقرب إلى الحقيقة. فلقد «رتب الخليفة يوسف لقفصة طائفة من أصحابه الموحدين، وحضر مسعود بن زمام أمير العرب عند يوسف أيضاً، فعفا عنه وسيّره إلى مراكش. وسار يوسف إلى المهدية، فأتاه بها رسول ملك الفرنج،

---

(١) ابن عذارى، الموحدون، ١١٤، ابن خلدون، ج٦ ص٢٤١.

(٢) ابن الأثير، ج١١ص٤٦٧-٤٦٨- حيث دخول المدينة فى أول سنة ٥٧٦هـ، وهو التاريخ الذى فضلنا عليه تاريخ ابن عذارى، الموحدون، ص١١٤.

(غليوم) صاحب صقلية، يلتمس منه الصلح، فهادنه ١٠ (عشر) سنين».

هذا، ولما «كانت بلاد أفريقية وقتئذ مجدبة فتعذر على العسكر القوت وعلف الدواب، فسار (يوسف) إلى المغرب مسرعاً والله أعلم».(١)

وهكذا إفتتحت قفصة في شهر رمضان سنة ٥٧٦هـ/يناير-فبراير١١٨١م، ونزل عنها على بن المعتز المعروف بالطويل، ومن ثم رحل الخليفة يوسف إلى تونس، وأنفذ عساكر العرب (إلى المغرب)، وعقد على إفريقية والزاب لأخيه السيد أبى على، كما عقد على بجاية للسيد أبى موسى.(٢)

وفى تونس خاطب يوسف أهل حضرة مراكش، وأهل الأندلس، وبعث مع الرسالة بقصيدة- من نظم الكاتب الخطيب أبى بكر بن طفيل الوادى آشى أولها:

ولما انقض الفتح الذى كان يرتجى أصبح حزب الله أغلب غالب

أما عن عظيم الروم (صاحب صقلية)، فقد خصه الشاعر بعدد من الأبيات، منها:

ومدّ على رغم الصفار لصفنا يديه عظيم الروم فى حال راغب(٣)

---

(١) ابن الأثير، ج١١ ص٤٦٨، وقارن عبد الواحد المراكشى، المعجب،ص٢٥٢... حيث مصالحة ملك صقلية فى هذه السفرة، بعد أن خافه خوفاً شديداً، فقبل منه وهادنه على أن يحمل له كل سنة مالاً إتفقا عليه. وينص صاحب المعجب على أنه كان من بين هدايا ملك صقلية للخليفة يوسف حجر الياقوت المسمى بالحافر الذى كان يزين مصحف عثمان عند الموحدين.

(٢) ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١١٤، ابن خلدون، ج٦ ص٢٤١.

(٣) انظر ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١١٤-١١٥. وحيث النص على استبشار الناس بأشبيلية بتلك الأخبار وهنأوا السيد أبا إسحق، كما أنشد أبو مروان عبد الملك بن محمد، فى ذلك قصيدة أولها:

فتح يفوت مدارك الأوهام ويعجز عن الإحصاء الكلام

وقارن عبد الواحد المراكشى الذى يقول فى المعجب (ص٢٥٣- ورجع أمير المؤمنين أبو يعقوب إلى مراكش من إفريقية، بعد أن لم يبق بجميع المغرب مختلف عليهم (الموحدون)، ولا معاند لهم، ودانت له جزيرة الأندلس بأكملها.

ومن الوثائق الهامة التى وصلتنا عن أحداث إفريقية وقفصة مما يتعلق بالعرب والسياسة التي اتبعتها الدولة الموحدية منذ أيام عبد المؤمن بالنسبة لإشراك هؤلاء العرب فى الجهاد فى الأندلس، بل وتوطينهم فيها- كما كان الحال فى بداية الفتوح الإسلامية، على أن يكون ذلك قاعدة لعملية الإنقاذ الموحدية والتجدد الإسلامية فى الأندلس. وهنا نشير إلى تلك الرسالة التى أنشأها الكاتب أبو الفضل بن طاهر بن حمزة والموجهة من أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين (يوسف)، والموجهة إلي الطلبة والموحدين والشيوخ والأعيان والكافة بقرطبة[١].

ويخاطب الكتاب الصادر من تونس (بعد نهاية حملة قفصة) المسئولين فى قرطبة، مذكراً إياهم بعهد المهدى المعصوم وخليفته عبد المؤمن: المنصور الناصر لدين الله، ومشيراً إلى ما تحقق فى قفصة وإفريقية من «الفتوح الجليلة التى جاوزت مدى الأفهام...» وشاهداًعلى أن «هذه الدعوة العزيزة التى هى نظام الإسلام».

وأنه خلال تلك الغزوة المباركة تمّ جمع أشياخ العرب وأعيانهم... من جميع قبائل رياح... فذكروا بحقوق هذا الأمر العظيم (ص١٥٠-١٥٢)، ونبهوا على ما كان لسلفهم من العرب من كريم السوابق فى أول الإسلام، وإن الله قد وعد هذه الطائفة المنصورة أن تملك العرب، كما بشر به المصطفى. وعرفوا أن الغرض منهم إنما هو غزو الروم الذين بجزيرة الأندلس...، والذى ينتقلون إليه من الرباط فى سبيل الله يجمع لهم الخيرة من الدين والدنيا (ص١٥٢).

وبُيّن لهم أنهم إذا إستقبلوا هذا الغزو السعيد بنيات متجردة... ونفروا إليه بحملتهم... واستصحبوا معهم من تتعلق به الخواطر من أهل وأبناء ونعم وشاء، وجعلوا كل ذلك وراءهم حيث ما يرسم لهم من بلاد

---

(١) انظر رسائل موحدية (نشر بروفنسال)، الرباط ١٩٤١، الرسالة رقم٢٦، ص١٤٩ ومابعدها.

الأندلس... ثم صمدوا لعدوهم... كانت خواطرهم لغزو أعدائهم أفرغ.

فتحركت إلى ذلك حفائظهم، وثارت لنصر دين الله عزائمهم...، ولم يبق من جموع رياح كلها... إلا من حضر ذلك من أعيانهم، وذوى حلومهم وأسنانهم، وكلٌ أظهر جميل البدار. وودع جميعهم على الأخذ فى الحركة على هذه الصفة المباركة من التفويض بالرحيل، والتسليم لهذا الأمر العظيم... وأن يكون رباطهم عوضاً عن عشواء فى الفتنة خبطوها... (ص١٥٣-١٥٤).

وقد أخذوا فى الحركة بعون الله على طرق شتى، بعضها بالصحارى وبعضها بالسواحل: كل قبيل قد اختار أقرب الطريق إلى الموضع الذى سَنّه مبدأ انتقاله، وأرفقها بنفسه وأهله وماله... ورأينا أن ذلك لهم أوفق وبهم أرفق، حتى لا يزدحموا فى المسير.

وقد أصحبوا من الطلبة والحُفّاظ... من يقيم منآدهم، ويحفظ أعدادهم... وإن جموعهم كتكاثر الحصى وعداد الربّى.

وكان ممن حضر لهذا الجمع السعيد... الشيخ أبو سرحان مسعود بن سلطان ابن زمّام... فظهر منه من جميل الأقوال والفعال التى تنبى عنه أنه صادق فى جميع الأحوال... ثم أخذ فى الرحيل بنفسه وأهله وولده وجملة من تعلق به. وسار فى الرعيل الأول... والجهاد فى سبيل الله شغل خواطره وأفكاره.

وكل من كان قد أساء الظن من هؤلاء العرب قد بادر الآن بالامتثال... ورجا أن يختم عمله بالرباط فى تلك الجزيرة محتسباً على الله نفسه... فقد وعبوا فى التخلى من هذه، الأوطان، وتركوها لمن كان فيها من القطان، سوى من سكن فى قبائل سُليم بجهات أطرابلس، وما وراءها مشرقاً، مصحِّحا إلى برقة الاسكندرية.

وبعد الإشارة إلى من سبق فى مخاطبتهم وإنذارهم مع رجاء إجابتهم للجهاد، يذكر بأن مجرد «كف أيديهم عن هذه البلاد، وصرفهم إليها

لدليل على أن هذا الأمر العزيز لا ترقى إلى فهمه العقول...، وأنه مؤيد من الله».

فقد كان العرب أولاً وآخراً لا تنقاد لقائد... فلانت قلوبهم من الآن لهذا الأمر العظيم... كتب ١٥ شوال سنة ٥٧٦هـ/ ١٤ مارس ١١٨١م.[١]

وهكذا فإلى جانب إخضاع بجاية وقفصة فى حملة إفريقية لسنة ٥٧٥-٥٧٦هـ/ ٨٠-١١٨١م فإن تلك الحملة كانت لها أهميتها الكبرى بالنسبة لاستنفار عرب إفريقية (باستثناء عرب طرابلس وبرقة) للجهاد فى الأندلس، فى شكل جهاد إستيطانى كأن الهدف منه تعريب الأندلس من جديد إلى جانب نشر الإسلام على مذهب التوحيد التومرتى. وهكذا تتكامل جهود أبى يعقوب يوسف فى عملية الإنقاذ الموحدية للأندلس، ويحق لكاتب الرسالة الجهادية أن يستوحى تاريخ الأندلس فى عصر الذروة، عصر الخلافة، فيطلق على يوسف فى رسالته الديوانية الموجهة من الأندلس إلى قرطبة لقبى المنصور (بالله) والناصر (لدين الله).

وبهذه الأنباء التى أكدت هيمنة الخليفة يوسف على مجرى الأمور فى إفريقية وطاعة الطوائف الإسلامية فيها، وكذلك قوة النورمنديين فى صقلية، واستبشر الناس بأشبيلية، وعبر أعيانها عن عظيم التهنئة لواليها السيد أبى إسحق. وفى حفل الاستقبال هذا، وقف ابن الجد خطيباً، تماماً كما قام مؤرخنا ابن صاحب الصلاة: أبو مروان عبد الملك بن محمد، بإنشاد قصيدة أولها:

فتح يفوت مدارك الأوهام ويعجز عن الإحصاء بالأقلام

والمهم أن الخليفة أبا يعقوب يوسف بعد أن أنفذ أخبار حملته الناجحة فى أفريقية من تونس، أخذ عائداً من أفريقية بعد أن استناب على أفريقية أخاه أبا الحسين ومقره مدينة تونس التى صارت قاعدة إفريقية وعاصمتها.

---

(١) بروفنسال، رسائل موحدية، الرسالة ٢٦، ص١٥٢-١٥٧.

بينما ولى أخاه أبا موسى بالقيروان. أما عن رحلة العودة فالمعروف منها هو تاريخ الوصول إلى فاس في شهر صفر من سنة ٥٧٦هـ/يونيه-يولية ١١٨٠م.

﴿ ١١ ﴾

مرحلة جديدة فى ولاية أبى يعقوب يوسف

يعتبر إقرار الأمور فى الأندلس خلال اتخاذ أشبيلية حاضرة للدولة الموحدية ما بين سنة ٥٦٦هـ/١١٧١م و٥٧١هـ/١١٧٦م مرحلة هامة فى إقرار أحوال العدوة الأندلسية، وفرض ما يمكن أن يشبه نوعاً من الهيمنة الموحدية على الأراضى (التى لا صاحب لها) والتى كانت بمثابة حراج فاصلة بين الأراضى المسيحية فى الشمال والأراضى الإسلامية فى الجنوب، والتى كان يمكن للطرف الآخر من الجانبين، فرض نوعاً من الهيمنة عليها نظير دفع الثمن من المال أو الحصون- علامة الخضوع أو التبعية (Vassalité) ومثل هذا ما تحقق بعد سنة ٥٧٥هـ/ ١١٨٠م- سنة وفاة السيد الأعلى أبى حفص عمر، شقيق الخليفة يوسف وصاحب قصره، والذى يمكن اعتبار وفاته كنوع من الإستقلال، بمعنى التحرر أو الإنعتاق من التبعية، كما هو الاستقلال بمعنى البُرء من المرض. وهكذا يمكن اعتبار نجاح يوسف فى تهدين إفريقية التونسية، وفرض التبعية على عربها الهلالية، ومن ثم فرض الهيمنة على الملكية النورمندية فى صقلية، إنجازاً كبيراً يؤكد ما يتفق عليه بعض الكتّاب، مثل: عبد الواحد المراكشى، من إضفاء صفة كبير بنى عبد المؤمن على يوسف.[١]

---

(١) أنظر المعجب، ص٢٥٢- وما بعدها- حيث يقول عن سنة ٥٧٥هـ/ ١١٨٠م التى تم فيها غزو إفريقية ومصالحة ملك صقلية، «ورجع أمير المؤمنين يعقوب إلى مراكش من إفريقية بعد أن لم يبق بجميع المغرب مختلف عليهم ولا معاند لهم»، «ودانت له جزيرة الأندلس بأسرها- كما ذكرنا- وكثرت فى أيامه الأموال واتسع الخراج، انظر ص٢٥٥- عن اتساع الدولة وزيادة الخراج، ص٢٥٦- حيث»... فلم يرتفع لملك من ملوك المغرب مثل أبى يعقوب هذا، وبعده ما ارتفع إليه من الأموال.

ردود فعل سلبية فى الأندلس
نتيجة الانشغال بتهدين إفريقية

والمهم أن انشغال أبو يعقوب يوسف فى غزو بجاية وقفصة وتهدين بلاد إفريقية كانت فرصة انتهزها العدو البرتغالى فأوقع غدراً بأسطول سبتة. وانتهى الأمر بما يشبه الكارثة بالنسبة لغزاة البحر الموحدين. فلقد أسر غانم بن مردنيش قائد الأسطول بسبتة كما أسر أخوة أبو العلاء (إدريس) وجماعة من أصحابه، بل واستشهد بقية إخوانه، مع جماعة من المسلمين وانتهت الوقيعة بإحتواء العدو البرتغالى على كثير من القطائع- أخذاً بثأر السنوات السابقة، كما نرى- وحمل رجالها من المسلمين أسرى إلى لشبونة (الأشبونة) وذلك فى ١٤ من المحرم من سنة ٥٧٦هـ/١٣ يونيه ١١٨١م.

ومن مكان أسْرِه فى لشبونة أرسل غانم بن مردنيش خطاباً للخليفة يوسف، «يشكو سوء حاله». وكان وصول كتابه إلى تلمسان، فى طريق العودة من الغزوة الموفقة، فى أول صفر ٥٧٦هـ/٢٧ يونيه ١١٨١م. وكان أن صدر أمر الخليفة إلى هلال بن مردنيش، أخى غانم أن ينصرف إلى حضرة مراكش. لتدبير أمر فداء أخيه. وفعلاً سار هلال إلى مراكش حيث دبر المال اللازم لأخيه غانم، وأرسل به إلى أشبيلية.

وفى أشبيلية تمّ تدبير إرسال المال إلى المختصين بتدبير فك الأسرى لدى العدو، وهم الفُكّاك. والذى يفهم من بقية الرواية أن الأمر لم يكن يتعلق بفك أسر غانم بن مردنيش، بل بفك أسر جميع البحارة المسلمين الذين غدر بهم، كما يفهم فى نهاية الأمر. وهكذا إنطلق غانم من الأسر وأخوه أبو العلا (إدريس)، ومن كان قد بقى من الأسرى من أصحابه.

والظاهر أن الانشغال بأمر إفريقية حيث كان وفود أتراك الغُزّ مع قراقوش يثير المزيد من اضطراب العرب هناك، الأمر الذى هيأ الفرصة للعدو البرتغالى الذى «كلب فى البحر» فى سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨١م بمنطقة

شنترين، كما كان الحال كذلك بالنسبة للقشتاليين من «أهل طليطلة فى الإلحاح على بلاد الأندلس بالنكاية وشن الغارات على القرب والبعد من بلاد الإسلام».(١)

(١) ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١١.

عودة الروح الجهادية بعد النجاح فى تهدين إفريقية

وهكذا، وبمجرد تحقيق الظفر فى إفريقية، كان من الطبيعى أن نشطت النفوس لجهاد أعداء الله الكفار،«فأبلوا فيهم بلاء من أخذ الثأر». ومع مطلع سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م، وصلت البشارة إلى أشبيلية بوصول الخليفة يوسف إلى الحاضرة مراكش، فكان على السيد الوالى: أبى إسحاق أن يسير للقاء أبيه هناك وتهنئته بسلامة الوصول، كما سار بصحبته ابن وانودين مع عدة من أشياخ أشبيلية.

وحذا حذو أعيان أشبيلية أشياخ كل من قرطبة وغرناطة ومُرسية فكان عليهم البدار إلى المشى إلى أشبيلية، لأداء واجب السلام والولاء، وكان وصولهم مع السيد أبى عبد الرحمن يعقوب بن عبد المؤمن، والى مرسية وبقى الوفد مقيماً بمراكش إلى أول شهر ذى القعدة ٨ مارس ١١٨٢م.(١)

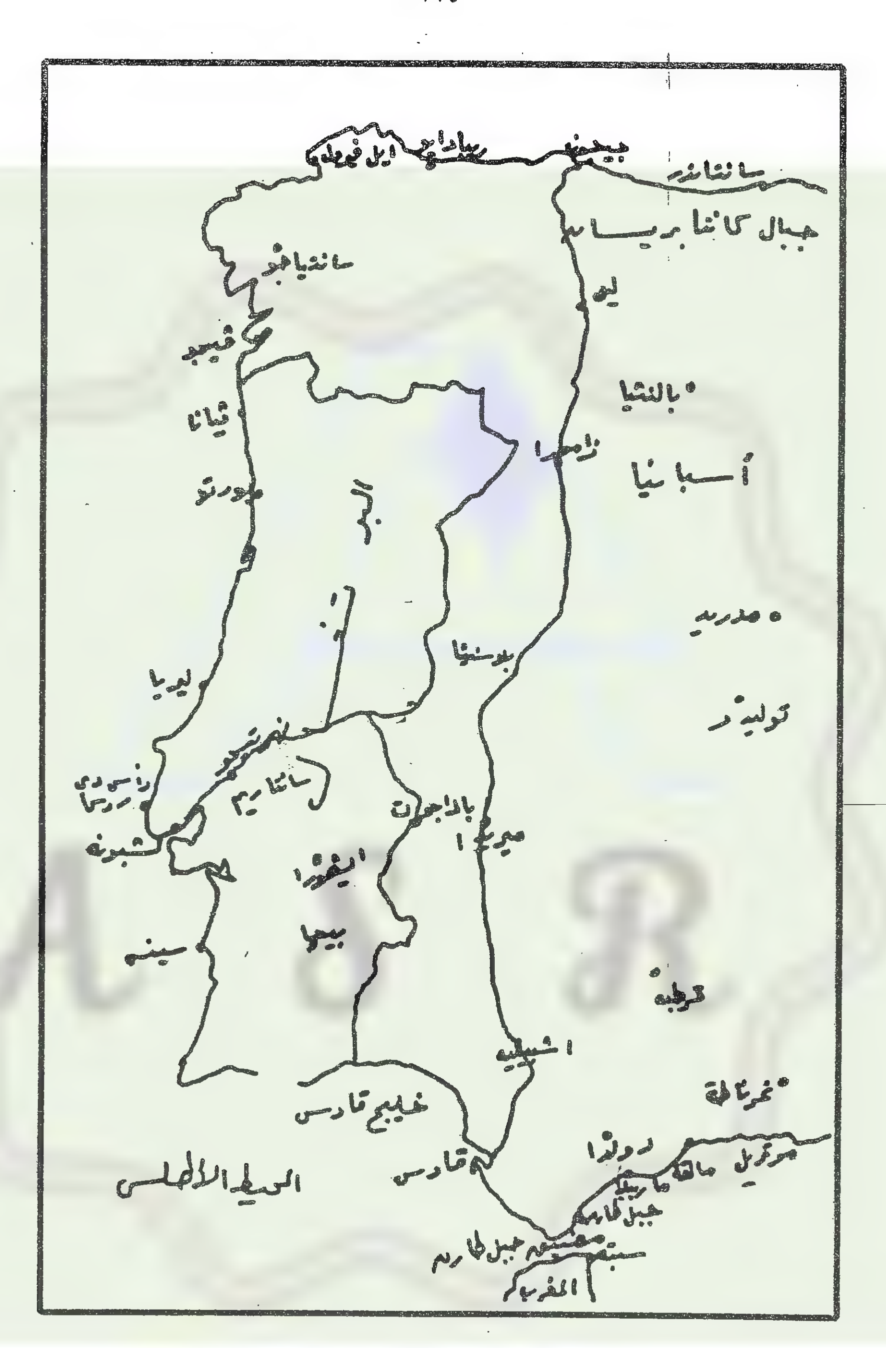
الثأر من البرتغاليين:

وهكذا كانت سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م سنة ثارات الموحدين من غدر البرتغاليين لأسطول سبتة. وصدرت الأوامر فعلاً للقائد أبو عبيد محمد بن وانودين الهنتاتى، بأن يعسكر بجميع الموحدين من أهل أشبيلية، إلى جانب جميع من كان بها من الأجناد النظاميين. كما حشد أهل الحصون من الفرسان والرماة، وخرج من أشبيلية «فى غاية من الإستعداد». وكان هدف الحملة أطراف يابرة حيث غنم المسلمون جميع ما وجدوه بخارج يابره (Evo-ra) من الغنم والبقر.

والأمر المستغرب، أن كانت منازلة يابرة فى يوم عاشوراء ٥٧٧هـ/٢٧مايه١١٨١م، وكان الثأر منها على مستوى ذكرى اليوم العظيم، فأمر ابن وانودين، «وهو يقوم بالمسلمين كالليث الضارى» بقطع ثمارها وأشجارها وكرومها وعلى الجملة «إعفاء رسومها». كل ذلك

---

(١) ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١١٦، وقارن ابن خلدون، ج٦ ص٢٤١.



خريطة رقم -٣

خريطـة البرتـغـال

«والكفرة قد انحجروا خلف سورهم إنحجار الثعالب العاوية إذا سمعت زئير الأسود العادية». [1]

وبعد إقامة يومين على يابرة انصرف ابن وانودين عنها بالعسكر لكى يصبّحوا حصنا آخر للنصارى هو حصن قنج، فتغلبوا عليه فكانت حصيلة الغارة سباء ٤٠٠ (أربعمائة) من النساء بين كبيرة وصغيرة، ومن الرجال ١٢٠ (مائة وعشرين) غير الكثيرين الذين قتلوا منهم.

والمهم أن حملة يابرة هذه إستغرقت ما يقارب العشرين يوماً، إذ دخل ابن وانودين أشبيلية فى آخر محرم «فى تبريز، وحفل عظيم» وهناك «باع السبى بها، وكثر عند الناس الخدم». [2]

وفى نفس سنة ٥٧٧هـ/٨٢-١١٨١م، وبعد أسر غانم بن مردنيش (تمّ التنسيق بين القوات البحرية فى كل من سبتة وأشبيلية) فخرج قائد أسطول سبتة: عبد الله بن جامع من قاعدته بالأسطول، بينما خرج للقائه قائد أساطيل أشبيلية بجزيرة قادس: أبو العباس الصقلى بمراكبه الحربية. وبذلك التنسيق تم استكمال ٤٠ (أربعين) قطعة بحرية، فنهضوا من قادس بجمعهم إلى جهة شلب، حيث تم اللقاء بالأسطول البرتغالى الخاص بأهل أشبونة، فى نفس الموضع الذى تمّ فيه أسر غانم بن مَرْدنيش فى البحر (١٥ محرم٥٧٦هـ).

---

(١) وفى ذلك يروى (ابن عذارى، ص١١٧) أعمال البطولة الرائعة لابن وانودين، مثل استيقاظه من النوم وقت القائلة ومواجهة مهاجمى خبائه من نصارى يابرة، وركوبه من فوره وهزيمة الأعداء المهاجمين أجمعين «حتى تساقطوا فى حفير السور رجالاً دون دواب، فأخذت دوابهم وأسلابهم، وقتل منهم خلق كثير، ولم يخرج منهم بعد ذلك قليل ولا كثير.

(٢) ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١١٧، وقارن ابن خلدون، ج٦ ص٢٤١- حيث الاختصار المركز والمفيد فى نفس الوقت: واتصل به ابن محمد بن يوسف بن وانودين يجدً بالموحدين من أشبيلية إلى أرض العدو، فنازل مدينة يابرة، وغنم ما حولها، وافتتح بعض حصونها، ورجع إلى أشبيلية.

والأمر المثير هنا هو أن اللقاء تم فى يوم الذكرى السنوية الأولى لأسر غانم إبـن مردنـيـش، إذ كـان اللـقـاء الجـديـد فـى يـوم ١٥ مـن مـحـرم ٥٧٧هـ/ ٢يونيه١١٨١م. وإذا كان ذلك من الأمور المستغربة حقاً، كما يقول نص ابن عذارى، فإنه من ناحية أخرى يدل على أن حرب الطوائف كانت تدور، سواء فى البر أو البحر، بشكل رتيب. والحقيقة أن وقوع تلك المعركة فى مثل نفس اليوم من العام الهجرى، تعنى أنه كان هناك فارق بمقدار ١١(أحد عشر) يوماً بالنسبة للتقويم الشمسى الدارج حالياً.

والواضح من تفصيلات المعركة البحرية الثأرية أنه ما كان للأسطول البرتغالى القرصانى الناشئ أن يواجه الأسطول الإمبراطورى الموحدى: المغربى الأندلسى، فى معركة نظامية مبرمجة. فلقد أسر الأسطول الموحدى نحو الـ٢٠ (عشرين) من القطائع مع أسلابهم وأسلحتهم. وهكذا، وصف ذلك النصر بأنه مبرور حيث قتل فيه من النصارى كثير، وأسر منهم نحو الـ١٨٠٠ (الألف وثمانمائة). هذا ولاندرى إن كان من الصحيح أنه «لم يمت (فى ذلك النصر) إلا رجل (مسلم) واحد». وأغلب الظن أن خسارة البحرية الموحدية كانت فعلاً رمزية هينة.

وبعد ذلك النصر الكبير إقتسم قائدا الأسطولين السبتى والأشبيلى الغنيمة والأسرى وغيرها، وانصرفوا عائدين إلى قواعدهما. والظاهر أنه، بناء على قاعدة تقسيم الغنيمة، كان على القائدين إرسال الخُمس الخاص بالخليفة إلى مراكش، فهذا ما يفهم من مبادرة القائدين: إبن جامع والصقلى بغنيمتيهما من الأسرى إلى أمير المؤمنين الذى أعطى منهم البعض فى فداء غانم ابن مردنيش، بينما ضرب أعناق الباقين.(١)

---

(١) ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١١٧-١١٨، وقارن ابن خلدون، ج٦ ص٢٤١- حيث: «والتقوا بأسطول أهل أشبونة فى البحر فهزموهم، وأخذوا ٢٠ (عشرين) من قطائعهم مع السبى والغنائم».

والحرب سجال مع البرتغال:

والمهم أن خيل أهل شنترين التابعين لملك البرتغال ظلوا يلحون بالضرب على بلاد المسلمين، كما حدث فى الشرف بغرب أشبيلية وغيره من أنظار أشبيلية. والمهم أن الحرب بين الفريقين كانت سجالاً، وذلك أنه عندما خرج عسكر أشبيلية للدفاع عن البلاد، إنتهى القتال الشديد بين الجانبين بتفوق العسكر الموحدى الذى قتل من «رجال العدو المهاجمين، نحو ١٧٠ (مائة وسبعين) رجلاً». ولكنه عندما تكشف غدر العدو بخروج حليفهم، إنهزم المسلمون أمام المفاجأة واستشهد منهم جماعة. والظاهر أن ذلك النجاح الطارئ من جانب البرتغاليين، شجع صاحب طليطلة، القشتالى على أن يكون شريكاً هو الآخر فى الضغط على الأراضى الاسلامية المتاخمة. وهكذا تولت خيل طليطلة، كما تقول الرواية، الضرب على استجه (Ecija) وجهة قرطبة فى شرقيها، الأمر الذى أدى إلى مخالفة الخليفة يوسف بالحضرة المراكشية، طلباً للنجدة بطبيعة الحال.

تدهور الموقف فى الأندلس مع قدوم سنة ٥٧٨هـ/٨٢-١١٨٣م
محاولة اكتساح الأندلس من قبل ملكى البرتغال وقشتالة

وهكذا وقعت بالأندلس فى سنة ٥٧٨هـ أحداث قبيحة. فقد وصلت خيل البرتغاليين من جهة شنترين والأشبونة إلى قرية شلوقة (Sanlucar) من أنظار الشرف، فى حملة من ١٠٠٠ (ألف) فارس و١٠٠٠ (ألف) راجل وضربوا عليها، وقتلوا من وجدوا من المسلمين، كما أسروا وغنموا. هذا، كما أغاروا على حصن القصر (Aznal cásar) وغيره. «وانصرف العدو على طريق لبلة (Nle bla) موقورون، والمسلمون بين أيديهم مأسورون»- الأمر الذي يعني هيمنة وغلبة تامة على منطقة الغرب.

والظاهر أن صاحب قشتالة الفونس المعروف بـ «أذفونس الصغير» وأيضاً «بالسليطين» رآى أن الفرصة مواتية للمشاركة فى اقتطاع أراضى المسلمين، فخرج إليها بجمعه الذميم- وهو طامع فى الاستيلاء على بلاد

الأندلس- التى ظهرت وقتئذ وكأنها «أضحية» الأيتام فى مأدبة اللئام- كما نرى. وفعلاً وصل وفد قرطبة- المهددة فى الصميم- إلى أشبيلية يعرفون أن الفونش بن شانجة، ملك قشتالة وطليطلة، قد وصل بجموعه لحصار قرطبة، فارتفع السعر بها إرتفاعاً عظيماً.

ومن بعد ذلك أتت الأخبار تترى بنزوله عليها، وهو ما حدث فعلاً فى ٤ من صفر ٥٧٨هـ/ ١٠يونيه١١٨٢م، حيث نزل بالقرب منها. وحوز قرطبة حيث استقر السليطين، أخذ يشن غاراته إلى جهات كل من مالقة ورُندة وغرناطة. «ففلا السعر لذلك وعظمت الضيقة»[١].

وأمام هذا الخطر الداهم على مركز القلب من الأندلس، اتخذ ابن وانودين الإجراءات المناسبة لضبط العاصمة أشبيلية والبلاد المجاورة لها، «وشدها بالرجال»، ومثل هذا حدث بفحص قرمونة (Carmona) حيث أمكن دفع بعض ضرر النصارى هناك. ومع الإشادة بعزم أبى عبد الله بن وانودين وحزمه، كما يقول ابن عذارى: «كانت خيل العدو تجول يميناً وشمالاً فى اكتساح وتدمير».[٢]- الأمر الذى كان ينبئ عن سوء المصير.

ومن ثم نازل العدو استجه ولازمها حتى نقب سورها، وكاد أن يتغلب عليها، لولا حافظها (محافظها): أبو محمد ابن طاع الله «الذى ثبت الله قلبه، وثبت أقدام المسلمين». وهكذا،كان على العدو أن يقلع عن حصار استجه فى يوم الخميس١٣ من صفر سنة ٥٧٨هـ/١٩يونيه١١٨٢م.ومع ذلك بقى العدو فى المنطقة يلح عليها بالإفساد والتدمير. وفى خلال ذلك نجح فى الدخول إلى بعض حصون روندة (Ronda) بغدر يهودى دلهم على عورتها، كما تقول الرواية. ومن ذلك الحصن أخذوا ١٤٠٠ (ألفاً وأربعمائة نسمة) من: رجل إلى امرأة. هذا، كما أحرقوا الزروع بنظر

---

(١) ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١١٨، وانظر ابن خلدون، ج٦ ص٤١.

(٢) ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١١٨.

الجزيرة الخضراء ورندة.[١]

وفى نفس هذه الجولة، تغلب العدو فى ١٧ صفر/٢٣ يونيه على حصن سنتفيلة والمنار (Santafila y Ilmanar) على ما كان عليه من الامتناع والارتفاع، الأمر الذى زاد من طمع العدو فى الاستيلاء على غيره من الحصون. حتى أن الفونسو المعروف بالصغير أو السليطين قال لأقماطه (كونتاته) حين أخذ سنتفيلة، التى أسر فيها ٧٠٠ (سبعمائة) من الرجال والنساء: «الأن آخذ قرطبة وأشبيلية»[٢]- هذا، ونحن فى قلب العصر الموحدى، عصر العظمة الإمبراطورية: ابن عبد المؤمن. والحقيقة أنه كان هناك نظام لفداء أسرى تلك الحروب على المستوى العام والفردي، سواء علي المستوى الرسمى حيث تقوم الدولة بدفع الفدية عن طريق التفاوض أو على المستوى الشعبى حيث كانت للفداء مؤسساته الخيرية وهكذا، وقع فداء أسري سنتفيلة على أهل أشبيلية الذين دفعوا ٢٢٧٥ (ألفين وسبعمائة وسبعين وخمسة) دينار، دفع منها ابن زهر (الفيلسوف الطبيب) ١٠٠ (مائة) دينار والباقى جمعه الناس بالمسجد (الكبير).

والمهم أن العدو القشتالى الذى كان يطمع فى الاستيلاء علي كل من قرطبة وأشبيلية، أراد أن يجعل من سنتفيلة أسفينا يدقّه فى منطقة القلب هذه من الأندلس- فبدأ بتحصين المدينة، وجلب إليها السكان النصارى والأقوات، وقواها بالعدد والآلات. ثم أنه أسكن فيها ٥٠٠ فارس و١٠٠٠ راجل عاهدهم على حمايتهم وإعانته، وأقلع إلى بلاده فى ١٣ ربيع الأول ٥٧٨هـ/١٨ يوليه ١١٨٢م، بعد أن دوخ أقطار الأندلس مدة ٤٥ (خمسة وأربعون) يوماً.[٣]

---

(١) ابن عذاري، الموحدون (هويثى)، ص١١٩ وانظر ابن خلدون ج٦ ص١١٩.

(٢) ابن عذاري، ص١١٩.

(٣) ابن عذاري، الموحدون (هويثى)، ص١١٩، وانظر ابن خلدون ج٦ ص٢٤١.

ردّ فعل مناسب للتحدى القشتالى
إسترجـاع سنتفيلـة

لما تحقق المسئولون فى أشبيلية من انصراف العدو القشتالى إلى بلاده اتفق الرأى بين الموحدين على منازلة سنتفيلة والتخلص من خطرها الداهم فى التو والحين.

وهكذا استنفر السيد أبو إسحق ابن الخليفة أبى يعقوب والى أشبيلية، الأجناد (المرتزقة) والحشود (المتطوعة) من بلاد الأندلس برسم الجهاد. وعندما اكتمل الاستنفار خرج بهم من أشبيلية فى أول ربيع الثانى سنة ٥٧٨هـ/ ٤أغسطس١١٨٢م. والظاهر أن والى أشبيلية ومجلس حربه، كانوا يرصدون تحركات حامية سنتفيلة القشتالى خارج المدينة، فدبروا مفاجأة عسكرية وهم يغيرون على بعض جهات قرمونة وغيرها، فاتبعوهم والتقوا بهم، وهزموهم، وقتلوا منهم ٧٠ (سبعين) فارساً، وأسروا آخرين، إستاقوهم مكبولين إلى السيد أبى إسحق الذى ضرب رقابهم فى الطريق.

ثم ان الموحدين عادوا ليضربوا الحصار على سنتفيلة، ومع تشديد الحصر وطول الوقت، ضاقت حال المحاصرين خلالها، فعدموا الشعير لعلف دوابهم فقدموا لها القمح بدل الشعير، فمات أكثرها. وظل الحال على هذا المنوال إلى ٦ جمادى الأولى/٨ سبتمبر١١٨٢م عندما وصل الخبر (عن طريق الجواسيس) بخروج إذفنش من طيطلة نجدة لأهل سنتفيلة. وهنا أقلع السيد أبو إسحق مع رجاله من الموحدين عائداً إلى أشبيلية، بعد حصار ناهز الأربعين يوماً [(١)].

والمهم أنه بعد أن وصل ألفونس الثامن بعد ٤ (أربعة) أيام، خرج إليه إخوته من سنتفيلة فى مشهد حزين.

(١) ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١١٩-١٢٠ (حيث دام حصار سنتفيلة ٤٦ يوما)، وقارن ابن خلدون، العبر، ج٦ ص٢٤١ (حيث نازل الحصن نحوا من ٤٠ يوما.

وذلك أن الـ ٥٠٠ (خمسمائة) لم يبق منهم إلا ٥٠ (خمسون) حيث مات الباقون بالقتال والوباء. أما (الألف) رجل من السكان فلم يبق منهم إلا ٦٠٠ (ستمائة). وهنا لم يكن أمام الملك القشتالى إلا الأمر لهم بالرحيل عن سنتفيلة، فكان إخلاؤها فى ١٥جمادى الأولى/١٧سبتمبر.(١) فكأن التوازن قد عاد بين القوتين القشتالية والموحدية بعدما أصابه من الإختلال سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م.

(١) ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١٢٠.

قلق فى منطقة معدن النحاس الأبيض بمدينة داى قرب السوس
الخليفة أبو يعقوب يوسف يقود حملة لقطع المنافقين عن المعدن

المعروف عند الادريسى، وريث بطليموس فى علم الجغرافيا، وكبير الجغرافيين المسلمين، وغير المسلمين فى أوج العصور الوسطى وحتى مطلع العصر الحديث، كما هو معروف، أن جبال أطلس فى منطقة داى، على بعد مسيرة (الأربعة) أيام من عاصمة السوس العريقة أغمات، مشهورة «بمعدن النحاس الخالص الذى لا يعدله غيره من النحاس بمشارق الأرض ومغاربها». ومن المهم التركيز هنا على أن الادريسى يصف هذا النحاس قائلاً: «وهو نحاس حُلوْ، لونه إلى البياض، يتحمل التزويج (التطعيم)، ويدخل فى لحام الفضة. وهو (أيضا) إذا طرق جاد (تحسّن) ولم يتشرح، كما يتشرح غيره من أنواع النحاس»[(١)].

ومن المهم الإشارة كذلك إلى أن الادريسى ينص على أن «هذا المعدن (المنجم: فى مدينة داى على مرحلة من تادلة) ينسبه القوام إلى (بلاد) السوس (الأقصى)، وليست مدينة داى من بلاد السوس لأن بينهما مسافات أيام كثيرة»[(٢)].

والحقيقة أن نص بيان بن عذارى؛ والذى يرجع إلى ابن صاحب الصلاة، الذى ترجع معلوماته إلى شهود العيان، يؤكد حقيقة أن ذلك المعدن المذكور أنه «فى جبل السوس» ويقع «على مقربة من بلاد هرغة»[(٣)]، بلاد المصامدة بالامتياز، قبيلة محمد بن تومرت المعروف بالفقيه السوسى(ج٥). وتؤكد رواية الإدريسى، أن نحاس ذلك المعدن (المنجم: الأبيض) كان نافقا، «يحمل إلى سائر البلاد، ويتصرف به فى كثير من

---

(١) الادريسى، نزهة المشتاق، النسخة الكاملة (٢ مجلد ص٢٤١) .

(٢) الادريسى، نزهة المشتاق (النسخة الكاملة، ص٢٤١- حيث تحديد المسافة بين أغمات وبين داى وتادلة ٤ (أربعة أيام).

(٣) ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١٢٠.

الأعمال»، على عهد الادريسى، قبل سنوات عديدة، من الفترة التى تناولها الآن من سبعينات القرن السادس الهجرى/١٢م. يفهم ذلك من نص ابن عذارى فى بيانه، حيث القول: «لما صح عند أمير المؤمنين (يوسف) ان المعدن (المنجم) الذى بجبل السوس، على مقربة من بلاد هرغة (قبيلة محمد بن تومرت المصمودية)، «قد أخرج منه شئ كثير لم يعهد من قديم الزمان»، بمعنى الوفرة فى الإنتاج منه، تبعاً لحاجة السوق، حسب مصطلحنا الحديث.

ولما كان ما يستخرج من باطن الأرض، سواء كان من المعادن أو من اللقايا من كنوز الذهب أو الفضة وما شابهها هو من حق ولى الأمر (أو الحكومة)، كان ينبغى على المستغلين للمناجم أن يدفعوا للدولة مستحقاتها ممثلة فى نسبة، ربما بلغت النصف من قيمة المستخرج.

والذى يفهم من النص أن المستخرج على عهدنا هذا، «يعهد (مثله) من قديم الزمان» يعنى أنه لم يكن له قيمة ذات بال. فالواضح من النص أن الدولة لم تكن تهتم به، ولم تكن تطالب المستغلين بما عليهم من حق الدولة، أى حق الأمير ولى الأمر، حسبما يقول النص: «وظهر أهل هذا الجبل بما تحصل فى أيديهم منه واغتصبوه لأنفسهم بغير حق منه للخليفة»، الأمر الذى ترتب عليه تجهيز العساكر، لاستخلاص ما للأمير غصباً إن لم يكن طاعة ورضى من جانب المستفيدين وحدهم، أو المستغلين.

وتم حشد العساكر الذين ربما كانوا من جند الخليفة الخاص أو «الحرس الملكى» فى مراكش العاصمة، وفى يوم أول صفر سنة ٥٧٨هـ/٦يونيوسنة ١١٨٢م.[(١)] كان الخروج فى اتجاه مدينة داى حيث منجم النحاس الأبيض، مما سبقت الإشارة إليه.

وواضح من رواية ابن عذارى أن الحملة تأديبية عسكرية، بقدر ما كانت

---

(١) ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١٢٠.

تنظيمية إدارية. وذلك أن أول ما فعله الخليفة يوسف، هو «النظر فى بناء حصن عليه، وأسكنه بالأجناد واستعد لتحصينه غاية الاستعداد»، بمعنى تنظيم الجباية وفرض دفع المستحقات من قبل المستغلين. ولما كانت جباية الأموال هى عصب تراتيب الدولة، وإقرار نظمها على كل المستويات، وخاصة الجهادية منها، لم يكن من المستغرب، أن يقوم أبو يعقوب يوسف بالزيارة الروحية لتينملل، مقر وفود كل من الإمام ابن تومرت: شهاب الدين، وخليفته عبد المؤمن: سراج الموحدين[1]، وأظهر يوسف الإيحاش إليهما، وأسكب عبراه عليهما. وعندما عاد إلى مراكش أمر وفود الأندلس أن يسيروا من هناك إلى زيارتهما.[2] حيث نقل نص ابن صاحب الصلاة الذى يقول: وكنت فى وفد أشبيلية، فزرت القبرين الملازمين بتينمل مع أبى بكر بن زهر، وأبى الوليد بن رشد، وأمر طلبة الحضر أن يرثوهما، بذكر وافر فضائلهما ومآثرهما، فكان من قول أبى مروان بن خالد:

فيا روضة المهدى حل بك الهدى ... وسر مع الأيام ليس يحول

أحقا أمير المؤمنين إمامنا ... محا القمر الدني منه أفول

فطوبى لأرض حل فيها إمامه ... وللمهدى بها وخليل

وإلى جانب القبرين اللذين كانت تزهو بهما تينمل، واللذين سيلحق بهما قبر أبى يعقوب يوسف، كانت تينمل تتطور إلى ما يمكن أن يجعلها نظيرة للمدينة المنورة، بالنسبة لجماعة الموحدين، وعلى وجه الخصوص لمصامدة السوس. وإلى جانب القبرين كانت تينمل تزهو وقتئذ برابطتيها العريقتين فى جبل إيجْليز غير بعيد من الغار، فكانت إحداهما تسمى «رابطة وانسرى»، والأخرى «رابطة الغار».

وترسخت قداسة الرابطتين «منذ كان الناس يأخذون التراب منهما

---

(١) ابن عذارى، الموحدون، ص١٢٠.

(٢) ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١٢١.

فيتبركون به ويجعلونه على المرضى»، فكأنه ماء زمزم، في الحرم المكي.(١)

(١) ابن عذاري، الموحدون، ص١٢١-١٢٢ .

كفة الصراع فى الأندلس تميل إلى صالح الموحدين

لاشك أن استرجاع سنتفيلة بعد أزمة سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م، الممثلة فى غارات قشتالة والبرتغال على مراكز القلب فى الأندلس، فى قرطبة وأشبيلية، بل وتمددها فى الغرب إلى أقصى الجنوب حتى نظر الجزيرة الخضراء ورُنده، كان انجلاء العدو عن سنتفيلة علامة مبشرة لاستعادة الأنفاس، ومواصلة الصراع واستمرار عملية الإنقاذ الموحدى فى الأندلس، التى تمثلت فى نظر الخليفة يوسف للموحدين بالأندلس، بتقوية عزمهم، وإعمال جدهم وحزمهم، وأمرهم بالصبر.[1]. وزاد العزم فعلاً بعد إقرار الأمور فى قلب الوطن، فى داى والسوس، ومن ثم المزار الكريم فى تينملل حيث الروضة المكرمة وقبر الإمام شهاب الدين وصاحبه الخليفة سراج الموحدين.

وهكذا، فى هذا الجو الموحدى، المفعم بالثقة فى الله وفى أهل التوحيد، نظر رجل الدولة الكبير (أبو عبد الله) ابن وانودين، فى استئناف الغزو بعيداً فى قلب أراضى العدو تأديباً وترهيباً الأمر الذى كان يؤدى مع صدق النيات، إلى أحواز «طليطلة» كان أمنية الاسترجاع. وكان النظر فى الجهاد يعنى إعداد العدة للحرب والقتال، من: حشد الأجناد وما يلزمهم من أدوات الحرب والمؤن والعتاد. ومن ثم كان التحرك من أشبيلية الحاضرة بالعسكر فى ٨جمادى الثانى سنة٥٧٨هـ/ ١٠أكتوبر١١٨٢م، فى نهاية الصيف وفترة إقبال الخريف قبل الشتاء، وبصحبة ابن وانودين: الموحدون وأشياخ الأندلس. والظاهر أن يكون خروجه مفاجأة العدو، فسلك غير الطريق المعتادة، والمؤدى إلى حصن بثة (المنسوب لابن سعيد الخير). وهناك تم عرض العساكر «فوجد فيهم عدداً وافراً، فسره ذلك»، وأسعده. وبعد إنعقاد مجلس الحرب الاستشارى، تمت الموافقة على أن تكون طلبيرة هدفاً لغاراتهم وثاراتهم.

---

(١) ابن عذارى، ص١٢٢ .

واستمرت المسيرة مدة ٣ (ثلاثة) أيام، وقد ستر الله البعث بالضباب والغيم حتي خفي على النصارى وصوله، وهو الأمر الذى يفسر كيف بدأت المسيرة فى أعقاب الصيف مع إقبال فصل الخريف. وبمقربة طلبيرة إلتقوا بسرية مكونة من ٢٠ فارساً من النصارى، فقام قوامهم وأخذوهم، باستثناء دليلهم الذى فرّ عائداً إلى قواعده، وهكذا، فعندما اقترب المسلمون من ضفاف وادى تاجُه لم يجدوا شيئاً مما كانوا يقصدونه من المغانم والأنعام، وعندئذ عرفوا أن ذلك الفار (الدليل) قد أعلمهم بخبرهم، وكشف عن أثرهم.

فأزعجوا (أسرعوا) فى السير إلى قرب طلبيرة: هدفهم. وهناك «أغاروا على ما وجدوا من المغنم فى فحصها، وساروا على تعبية، وترتيب... حتى وصلوا طلبيرة المذكورة، فى منتصف جمادى الآخرة/١٦ أكتوبر١١٨٢م. وفى الغد كانت الغزوة فى الأعداء، إذ نزل المسلمون فى ربوة مرتفعة، على بعد ميل من المدينة. ودهش الأسبان (النصارى) وتعجبوا لما عاينوه من الإقدام عليهم... «وكانوا منذ سبعين سنة لم يروا مسلما فى تلك الأرض، إلا إن كان مأسوراً».[(١)]

وعندئذ اجتمعوا كلهم: من البلد والحصون المجاورة، وخرجوا إلى الربوة المذكورة. وهنا تنتهى المغامرة الموحدية فى قلب بلاد قشتالة سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م، إذ: أقلع المسلمون منصرفين بما كان بين أيديهم من المغانم والأسلاب، والأعداء القشتاليون فى إتباعهم لمسافة تقدر بحوالى ٨ (ثمانية) أميال. وكانت مسيرة غريبة أشبه بحفل كرنفال تنكرى، كما نرى. فلمّ خرج جميع أهل طيرة، ولم يبق فى المدينة شيخ ولا صبى إلا خرج، ومعهم القسيس يحرضهم على القتال، وليضمن لهم النصر والظفر. وابن وانودين (أمامهم) يقدم أصحابه ويعظهم بما لهم عند الله من الأجر والثواب على الجهاد. «وهو مع ذلك يطاول مع النصارى المقابلة، ويقطع

---

(١) ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١٢٢ -١٢٣ .

الأرض ليخرج من قرب بلادهم»، إلى أن نزل قرب جبل يسترهم، وقال :«هذا موضع الحرب إنشاء الله».

والأمر المستغرب هو النهاية الغريبة لتلك المسيرة العجيبة. فلقد توادع الناس وعزموا على الجهاد... وحمل ابن وانودين والمسلمون على الكفرة حملة أصابهم الله فيها، فانهزموا وولوا أدبارهم... ومات منهم في الموضع المذكور أزيد من عشرة آلاف بين فارس وراجل (دون ذكر للصبيان والشيوخ)، وقتل فيها من اليهود نحو الألف... وامتلأت أيدى المسلمين من أسلابهم ودوابهم .(١)

والمهم أن أمير المؤمنين يوسف بعد ما علم بذلك النجاح الذى حققه ابن وانودين ورجاله فى أرض العدو البعيدة سُرَّ بهذا الفتح غاية السرور. وإن كان قد تغير على ابنه السيد أبى إسحق «فى كونه لا يحضر تلك الغزوة التى نسبت لابن وانودين، وهو من جملة قوّاده». هذا، كما «عاقب كل من تخلف من الأجناد، وهجره وحُرِم من العطاء حتى تاب واستغفر».(٢)

(١) ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١٢٣.

(٢) ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١٢٣-١٢٤ .

أمجاد ابني وانودين
وما قدموه من المفاخر لساداتهم الموحدين

وهكذا، حق لابن عذاري أو لمن نقل عنه، أن يختم ذلك النصر اللامع فى طلبيرة، بالحديث عن مآثر ابنى وانودين، وهما: أبو يعقوب يوسف بن وانودين وولده محمد.(١)

وهكذا فرغم وجود الخليفة أبى يعقوب يوسف، بالعاصمة مراكش- بعيداً عن أشبيلية فإن بلاد الأندلس كانت قد بدأت تفيق من الضربات الموجعة التى كانت توجهها لها كل من البرتغال وقشتالة لمدنها العريقة، وحواضرها، مما كان يُعتبر من مواضع القلب الحساسة، والتى كانت تتجاوز قرطبة وأشبيلية أحياناً حتى أقصى الغرب والجنوب. هذا ولو أنه يمكن إعتبارها كردود فعل للحملات الموحدية البعيدة المدى والتى كانت تطال بلاداً لم ير أهلها عسكر المسلمين منذ ٧٠ (سبعين) عاماً وأكثر، مما سبقت الإشارة إليه .

هذا، وإذا كانت الأمور فى مراكش التى غلت فيها الأسعار فى النصف الثاني سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م، كما انتشر المرض حتى اعتل الخليفة. فإنه

(١) بيان ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١٢٤- حيث إنه: لم يتقدم أحد بالدخول فى دولة التوحيد وهو أمير على قبيلته إلا يوسف هذا، وبه ضخم التوحيد وعظم فالفضل يرجع له إذ ساد قبيلته بخروجه لهذا الأمر العالى، وبذلك صار واحداً من كبار أهل خمسين، مع صغر سنه. هذا، كما عرف يوسف بنشأته الدينية الطاهرة وتضلعه فى علوم الدين حتى إنه كان يعرض مصوباً مالك فى مجلس عبد المؤمن. هذا كما عرف بأنه بطل شجاع، صحبه عبد المؤمن فى غزواته وفتوحه (حركاته)، كما فى فتح بجاية والمهدية وغيرها، كما كانت له إنتصاراته المشهورة، مع أهل شرق الأندلس سنة ٥٧٠هـ/ ٧٥-١١٧٤م، وهزيمته للنصارى فى شنترين وفى حصن، ينج وحصن برجانة وقرمونة وتوصيله المسيرة لبطليوس، وانقاذ الأسرى والغنم من بين يدى ألفونس فى حصن الغلال، إلى غير ذلك من مناقبه. هذا، ولو انه لم يسلم من السقوط من علاه «اذ طولب وأدب لسكناه حصن غافق من ثغور الأندلس، ومن ثم حدثت إقامته فى تونس، مما يأتى: هذا، كما سار وأن أبا عبد الله محمد فكان من كبار قواد الدولة ورجالاتها مثل والده العظيم.

يرجع الفضل لأطباء الأندلس الذين وفدوا عليه للعلاج، «إلى أن وجد الراحة»، فلاشك أن فترة الإبلال من المرض التى انتهزها الشعراء فى مدح الخليفة، كانت مناسبة لتحريضه على جهاد العدو أينما كان، بل تحريضه على المزيد من الفتوح التى تطمئن بها البلاد وتبشر بالمزيد من الرخاء. وهنا لابأس من الإشارة إلى القصيدة التى أنشأها أبو العباس بن عبد السلام، إذ قال يمدح الخليفة ويُهنيه ويحرض على المزيد من الانتصارات على الأعداء، قائلاً:

ستملك أرض مصر والعراقا ... وتجرى نحوك الأمم إشتياقا

ولولا عطفة الإبلال كنا ... بنار الوجد نحترق إحتراقا

هذا، ولا بأس أن كان التبشير بفتح مصر فى مناسبة الإبلال هذه فى أواخر سنة ٥٧٨هـ/١١٨٣م، تعنى أن خلافة مراكش الموحدية كانت تنظر بعين الإشفاق إلى ما يجرى فى بلاد أفريقية البعيدة، وخاصة ما كان يجرى فى طرابلس من دخول الغز المصريين بقيادة قراقوش، قائد إبن أخ صلاح الدين، وتحالفه مع عرب المنطقة الهلالية، من بنى سعد، الذين كانوا يقلقون الخلافة الموحدية بمراكش، وهى التى كانت تعمل كل ما فى طاقتها فى اكتساب ودهم، بل وتهجيرهم إلى الأندلس، حيث كان يرى أبو يعقوب يوسف فى استقرار عرب إفريقية فى الأندلس، ليس بأولادهم ونسائهم فقط، بل وبأنعامهم أيضاً، هو الحل الناجح فى عملية الإنقاذ المغربية، التى كانت قد بدأت منذ أيام المرابطين، والتى كان يمكن أن تنتهى بالنجاح على عهد ورثتهم الموحدين، الذين لم يكونوا يطمحون فى إنقاذ الأندلس فقط من أصحاب الريكونكيستا (الاسترداد)، بل ومن المخاطر الوافدة من الترك فى أعقاب العرب الهلالية، الأمر الذى كان يؤدى إلى الطموح ليس فى فتح مصر بوابة المشرق، بل والطموح فى فتح بغداد قاعدة العراق والمشرق الإيرانى التركى أيضاً.

وفى مقابل الأفكار التى يمكن أن تعبر عن فكرة الاتجاه إلى الدنيا

والتكالب على حطامها بهذه المناسبة، يشير ابن عذارى إلى الأفكار المضادة مما يتمثل فى الزهد فى الدنيا والعمل من أجل الآخرة، حيث يسجل وفاة قاضى الجماعة بمراكش، وهو «أبو موسى بن عمران، والذى كان فريد زمانه دينا وعلما وأدبا» والذى كان من إنشاده وقتئذ: قبل وفاته:

دع ذكر دار قصدها أن تخربا وأعمل لدار ملكها لن يذهبا.[1]

من شواهد الاستقرار فى أطراف الدولة الموحدية من أقصى المغرب الأندلسى إلى أقصى المشرق الطرابلسى، والذى يؤكد استقرار قواعدها الإمبراطورية، هو التوسعة التى تمت فى مدينة مراكش العتيدة وذلك فى سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م، لتكون جديرة بحاضرة الإمبراطورية الموحدية على الأيام الأخيرة التى تمثل قمة الذروة أو بداية تلك الذروة على عهد خليفة عبد المؤمن المؤسس الحقيقى للإمبراطورية، بل ابن تومرت المنظر لقيام تلك الدولة، وواضع قواعدها الأولى فى إيجليز هرغه وتينملل.

---

(١) ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١٢٥- حيث النص أيضاً على أنه فى اليوم الذى توفى فيه القاضى أبو موسى بن عمران، ولى مكانه القضاء: أبو العباس بن مضاء.

﴿ ١٢ ﴾

توسعة مراكش سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م
الأسباب: ما بين الرجاء والخوف

واضح من الروايات التاريخية الخاصة بتوسيع مراكش هذا، فى سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م [1] وكما هو الحال بالنسبة للعواصم العريقة للدول الكبرى عبر العصور، أن نمو العاصمة هو تبع لنمو وتعاظم الدولة، حيث أن العاصمة أو الحاضرة هى قصر السلطان وبالتالى مركز الإدارة العامة، من: مدنية يمثلها القصر الأميرى مركز السلطنة، ودينية يمثلها المسجد الجامع حيث مقصورة الإمام (ولى الأمر: صاحب القصر)، وعسكرية تمثلها المحلة (مقر الحامية أو الحرس الأميرى- نواة القوات المسلحة، والتى ستتحول على عهد الموحدين إلى القصبة أو المدينة الأميرية التى تعسكر بها الحامية أو الحرس). ومن أهم مؤسساتها: ديوان الإنشاء (أو الرسائل)، وديوان الجباية أو المال، وديوان الجند أو العسكر ومن ثم ديوان العطاء، وما نشأ من دواوين أخرى مثل: دواوين القضاء والأشغال والحسبة والحبوس (أو الأوقاف).

والحقيقة أن مراكش عندما بنيت على عهد المرابطين فى سفح الجبل كانت مدينة بدوية من حيث الموقع ما بين الجبل والصحراء، وكانت بدوية مرة أخرى لكون بنائيها المرابطين كانوا من الجمالّة أصحاب قطعان الإبل. فمراكش من هذا الوجه كانت أقرب إلى الواحة الصحراوية منها إلى البلدة الحضرية، رغم ما كان قد بدأ إقامته فيها من قصر الحجر (أو دار) وهو منزل الأمير الذى يدل اسمه على أنه متميز فى مراكش حينئذ، عن غيره من أبنية الطين أو الطابية، التى كانت تتميز هى الأخرى عن مضارب

(١) الإدريسى مراكش ص، ٢٣٣-٢٣٤-٢٣٥-٢٣٦.

قبائل المنطقة من الأخبية والخيام أو حتى القباب.

ومن المهم هنا الإشارة إلى أنه لا ذكر لمراكش فى مسالك البكرى، وذلك فى منتصف القرن الخامس الهجرى/١١م. أما عن نزهة الإدريسى فى منتصف القرن السادس الهجرى/١٢م، فهو يذكر أن مراكش بناها يوسف بن تاشفين سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م فى وطاء من الأرض ليس حولها شئ من الجبال الا جبل إيجليز الصغير، ومنه أخذ الحجر الذى بنى به قصر أمير المسلمين على بن يوسف، وهو المعروف بدار الحجر، وتمّ البناء بالطين والطوب والطوابى المقامة من التراب. أما على أيامه فيذكر الإدريسى: «ومدينة مراكش فى هذا الوقت من أكبر مدن المغرب الأقصى، لأنها كانت دار إمارة لمتونة ومدار ملكهم وسلك جميعهم. وكان بها أعداد قصور لكثير من الأمراء والقواد وخدام الدولة. أما عن أزقتها فواسعة ورحابها فسيحة ومبانيها سامية، وأسواقها مختلفة وسلعها نافقة».

ولما تغلب عليها المصامدة تركوا جامعها (جامع) يوسف بن تاشفين عطلاً مغلق الأبواب... وصنعوا لأنفسهم مسجداً جامعاً يصلون فيه (هو جامع الكتبية). ولما تغلب المصامدة على الملك تمموا الماء الجارى إليها، وصنعوا سقايات بقرب دار الحجر، وهى الحظيرة (القصبة) التى فيها القصر منفرداً متحيزاً بذاته، والمدينة خارج هذا القصر.

- ويقدر الإدريسى طول مراكش على عهده، بأنه أشف من ميل، وعرضها قرب ذلك. وعلى ٣ (ثلاثة) أميال منها نهر تانسيفت وليس بالكبير لكنه دائم الجرى، وإذا كان فصل الشتاء حمل بسيل كبير لا يبقى ولا يذر.[1]

وفى توسعة مراكش كنتيجة طبيعية لتوسع الإمبراطورية الموحدية، يقول ابن عذارى: «لما دانت لأمير المؤمنين (يوسف) المغرب والأندلس وإفريقية، وملك ملوكها... إلى أحواز طرابلس براً وبحراً، إنجلى الناس إلى مراكش

(١) الإدريسى، نزهة المشتاق، ص٢٣٤-٢٣٥، وقارن الاستبصار، ص٢٠٨-٢٠٩ .

من كل مكان، وتفاخروا في سكناها... فصارت أوسع البلاد معاشاً وأكثرها خلقاً، وأربحها تجارة، فضاقت بالناس، فلم يجدوا موضعاً للبناء ولا محلاً للسكنى».

هذا إلى جانب أن الخليفة يوسف «كان قد أعد عدداً من القبائل، من: هسكورة وصنهاجة أن يرتحلوا من بلادهم إلى سكناها بأهليهم وبنيهم فامتثلوا ذلك.[1] وهو إذا كان يوسف قد حقق بتهجير بعض قبائل صنهاجة إلى مراكش هدفين دفعة واحدة، أولهما تهدين بلاد صنهاجة (القبلة) وثانيهما تأكيد عمليات التهدين في إفريقية والدفاع في الأندلس، فإنه في مقابل ذلك كان عليه اعداد السكنى المناسبة للمهاجرين الجدد، من صنهاجة وغيرهم.[2]

الشروع في التوسعة

هكذا كان وصول قبائل صنهاجة إلى مراكش سنة ٥٧٩هـ وشكواهم من عدم وجود مكان ينزلون به، هو نذير تحول الحاضرة المغربية إلى مدينة «كوزموبوليت ثانية» أي عالمية، كما يقال الآن. وهكذا نظر أمير المؤمنين يوسف في ذلك، وأمر ابنه وولي عهده وخليفته/ السيد يعقوب (المنصور)، بالخروج في أول ربيع الثاني/٢٤يوليه١١٨٣م، ومعه شيوخ الموحدين، وعرفاء البنائين ينظرون تحت نظره حيث يكون الإتساع. وفي نهاية هذه الرحلة الإستكشافية «إتفق رأيهم على زيادة مدينة متصلة من جهة القبلة». وعندما رجعوا إلى الخليفة وعرضوا عليه ما اتفق عليه رأيهم في إضافة مدينة جديدة إلى مراكش العتيقة، «فرأى رأيهم وأمضى سعيهم».[3]

وهكذا بدأ العبيد والعاملون في حرفة البناء، من الرجال المختصين،

---

(١) ابن عذاري، الموحدون، ص١٣٦ .

(٢) ابن عذاري، الموحدون، ص١٢٦ ، وقارن الإستبصار ،ص٢٠٨-٢٠٩

(٣) ابن عذاري، ص١٢٦ .

بهدم السور القديم بجهة باب الشريعة. ومن ثم كان الإبتداء فى بناء أساس السور الجديد فى صبيحة يوم الإثنين ٢٥ من ربيع الثانى٥٧٩هـ/١٧يوليُه١١٨٣م واتصل العمل فى بناء ذلك السور مع بناء باب الشريعة مدة ٤٠ (أربعين) يوماً «حتى كمل، وجاء على ما قدر فيه وأمل».(١)

(١) ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١٢٦، انظر العمرى (ابن فضل الله) مسالك الابصار فى ممالك الامصار، ترجمة جزئية: عن إفريقية بدون مصر L'Âfrique moins 'L'gypte ترجمة وتحقيق مع مقدمة و ٥ (خمسة) أشكال بمعرفة: جودفروا- (ديمومبين، باريس، مكتبة الإستشراق: بول-جتنر، ١٩٢٧- ص١٧٩- حيث مراكش على مسافة واحدة ما بين البحر والصحراء مقدارها ٤٠ ميلاً، وكثيرون تحدثوا عن إتساع منازلها، وامتداد منازلها، وعن القصور التى يملكها بنو عبد المؤمن، وأولادهم ومن يحيطون بهم من الجند وفى اتساع تلك المنازل أن الواحد لو صاح فى أولها على صاحبه فى آخرها لا يسمعه. الأمر الذى بين أنها مساكن قبلية فسيحة، أشبه بالرباع ذات الصحن السماوى فى غير مراكش من المدن العريقة. ودور مراكش الموحدية عند ابن فضل الله العمرى (نقلاً عن ابن سعيد) ٧ (سبعة) أميال. والمعروف أن بانيها يوسف بن تاشفين هو أول من بنى فيها دار (قصر) الحجر، وحوله بنى الناس مساكنهم. وفيما بعد كان يوسف: أبو يعقوب بن عبد المؤمن أول من وسعها، فهو الذى مدّنها، وزينها وزاد فيها، وجلب إليها المياه وزرع فيها البساتين (البحائر). وصومعة مسجدها الجامع المسمى بالكتبية، مبنية بالحجر، وارتفاعها ١١٠ (مائة وعشرة) أذرع. وعلى باب مسجدها الجامع توجد ساعة على ارتفاع ٥٠ (خمسين) ذراعاً فى الهواء، فى كل ساعة من النهار يقع ثقل وزنه ١٠٠ (مائة) درهماً، ويجرّس بصوت عال يسمع من مسافة بعيدة. وتسمى الساعة المنجانة. وهى اليوم لا تعمل (العمرى، ترجمة (ديمومبين) ص١٧٨هـ٣ حيث تشبه ساعة الكتُبية هذه، من غير شك، ساعة المدرسة البوعنانية بفاس والتى درس بقاياها أ. بل (A.Bel)، فى نقوش فاس الخطية، مع صورة فوتوغرافية ممتازة، والتى يضاف إليها عمل «كارا دى ڤو (Carra de vaux): مفكروا الإسلام، مع رسم تشكيلى، وكذلك فيدمان wiedemann عن تقنيات العرب.

هذا مع الإشارة إلى تقسيم حاجى خليفة (كشف الظنون ج٢ ص، ٦٩-٧٠) لأنواع الساعة، من البنجامات (البنكامات)، وهو الشكل القديم للبنجامة فى صبح الأعشى (ج٥ص١٦٢) وحاجى خليفة يذكر من أنواع الساعات: الرملية، والمائية، والساعات الدائرية المتحركة بالعجلات والتى تدور الواحدة منها فوق الأخرى. وإن كانت- ربما- بعد ذلك بقرنين.

والمهم أن مراكش صارت تفخر على عهد يوسف بن عبد المؤمن بقصورها الفاخرة، التي يقول ابن سعيد: أنه لا يستطيع وصفها، بل يكتفي بالإشارة: إلى أن كل واحد منها، مستقل بذاته، يحقق جميع أغراض سكانه، من: الحدائق والحمام والحظائر (الاصطبلات) والمياه، إلخ... فلا تحتاج امرأة من نسائه إلى شراء شئ من الخارج. وحتى الأولاد لا يحتاجون إلى الذهاب إلى المدرسة، فلهم مدرستهم الداخلية. فسيد البيت يخرج من الباب ممتطياً صهوة جواده، فلا تراه أية عين أجنبية يسير علـــى الأرض[1]، فلا يبقى من جديد في مراكش إلا على أيام يوسف يعقوب المنصور، وذلك في المدينة الملكية أو (القصبة) التي ستعرفها مراكش، وهكذا كانت الحاضرة مراكش تزداد تحضراً وعظمة مع استمرار الأحوال الأمنية في ربوع الدولة الموحدية، واستقرار أحوالها الإقتصادية والحضارية بعامة.

---

(١) العمرى، ترجمة ديومبين، ص١٧٩.

﴿ ١٣ ﴾

القلاقل ما بين إفريقية والأندلس:

والحقيقة أن تأمين الاستقرار والتحضر كان رهناً بسيادة الأمن والسلام، قاعدة التقدم والرخاء، وهذا ما كان من الممكن أن يتحقق، إلا فى ظل السلطان القاهر والعدالة بمعنى الإستقامة دونما إنحراف- وهى الأمور التى يلزمها ما يناسبها من الوقت والزمن: مادة التاريخ وكيانه.

وكان إضطراب الأحداث فى كل من جناحى الدولة الموحدية التى تطير بهما فى المشرق الإفريقى والمغرب الأندلسى حيث يجمع بينهما الصدر فى المغرب الأقصى والرأس فى مراكش الحاضرة.

القلق فى إفريقية «إضطراب بنى سليم»

وكانت بداية القلق فى إفريقية، حيث جرفت الأحداث فى النصف الثانى من سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م والى إفريقية السيد/ أبا الحسن بن عبد المؤمن أخا الخليفة، وذلك فى صراعه مع العرب من بنى سليم، فى منطقة قابس. فلقد وصل القلق وعدم الثقة إلى قيام الحرب المكشوفة بين السيد/أبى الحسن وبين بنى سليم. وعندما تأزم الموقف بعض الشئ أراد السيد أن يجرى بعض التحركات التشكيلية، كما يقال، فى ميدان القتال، فأمر لفرسان الموحدين من أهل الرايات أن ينقلوا من موضعهم فى الساحة المكشوفة، والتى ربما جرّه العرب إليها حيث يحسنون الطراد أو الكرّ والفر، بأسلحتهم الخفيفة، واللجوء إلى الجبل (جبل كسرى) للامتناع من العرب فى بعض نواحيه. والمهم أن نقلة الخيل صوب الجبل، أثارت خواطر عامة الناس من الرجالة، فظنوا أنها الهزيمة، «فتركوا أثقالهم ، وانكسروا منهزمين، دون قتال»، ومالوا عن السيد/ القائد الأعلى، الذى اضطر إلى اللجوء هو الآخر بمن معه من الحرس إلى الجبل، الأمر الذى أدى إلى

عطشهم مع مرور الوقت. وأمام شدة العطش قرر السيد أبو الحسن أن خير وسيلة للخروج من ذلك المأزق، هو الهجوم «دفعة واحدة» لاختراق صفوف العرب، الأمر الذى لم ينجحوا فيه، «فأحدق العرب بهم»، بل «وتقبضوا على السيد وعلى أصحابه». وكان للخبر الصعب وقع الصاعقة في مراكش، حيث شغل ذلك الحادث بال الخليفة وخاطره، وغار بذلك غيرة علم بها باديه وحاضره... واتفق الجميع على غزو بنى سليم وجهادهم وأخذ الثأر منهم.

والحقيقة أن المسألة لم تكن تستحق كل هذا الهم من الخليفة. فقد كان عرب إفريقية، وبنو سليم منهم، يعرفون قدر الخليفة الموحدى، كما كانوا قد مارسوا الخلاف من قبل ودفعوا ثمناً باهظاً له. وهكذا لم يمض طويل وقت من ورود الخبر السئ إلى مراكش فى، ١٠ جمادى الأولى ٥٧٩هـ/أول سبتمبر سنة ١١٨٣م، حتى وصل الخبر السار إلى مراكش بعد أيام، وذلك فى ٢جمادى الثانى٥٧٩هـ/٢٣ سبتمبر١١٨٣م، يعلن النبأ السعيد بإطلاق السيد أبى الحسن من أيدى العرب، وذلك عن طريق فدية مالية «فى نفسه وأصحابه، وتأكيد ذلك بوصوله إلى تونس، فانبسطت النفوس».(١)

أصداء وهمية فى الأندلس لمصادر القلق فى إفريقية

نلاحظ أنه عقب أخبار اضطراب عرب بنى سليم هذا، فى قابس سنة٥٧٩هـ/١١٨٣م تدخل أبو يعقوب يوسف بنفسه فى أحداث الأندلس كما يقدمها هويثى فى نشرته لابن عذارى، بأخبار قابس وبنى سليم فى إفريقية وكأنها نتيجة طبيعية لها. وذلك أن النصارى (الأسبان) خرجوا إلى بعض حصون المسلمين، فقطعوا كرومها وأشجارها وحرقوا زرعها... فبادر أهلها وأشياخها حضرة مراكش متضرعين إلى الله تعالى فى نظر

(١) ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١٢٧- حيث كان تاريخ ورود خبر وصول السيد إلى تونس فى ٢ ربيع الثانى فعدلناها إلى جمادى الثانى لتستقيم الأحداث زمنياً.

الخليفة لهم... فأمر الموحدين بأشبيلية أن يحملوا إليهم الميرة... «فأمر الموحدين بأشبيلية أن يحملوا اليهم الميرة من الطعام والآلات... فجهزوا ٤ (أربعة) آلاف دابة بالميرة أوصلها إليهم أبو عبد الله بن وانودين (الإبن) بعسكر الموحدين، والأجناد إلى بلدتهم فحيوا بعد مماتهم ونشروا بعد وفاتهم». والذى نراه أن هذا تكرار لأزمة بطليوس (فى سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م) قبيل تدخل الخليفة يوسف فى حملته إلى الأندلس، والتى أدت إلى إستمرار إقامته فى أشبيلية لمدة خمس سنوات، مما سبق ذكره فى وقته.

والمهم هنا هو أن رواية ذلك الحدث فى سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م، تأتى كمقدمة للسطوة بشيخ كومية أبى زكريا بن حيون (وبابنه على) الذى كان مشرف تلمسان (جابيها)، والذى كان يخرج مكبولاً للحساب على عمله، ثم انتهى الأمر بإخراجه منفياً من الحضرة (مراكش) إلى بطليوس، بينما بقى ابنه فى السجن «إلى خروج أمير المؤمنين فى غزوته إلى شنترين (آخر غزواته)».

هذا إلى جانب هروب على بن محمد بن رزين من مراكش، وهو المعروف بالجزيرى (نسبة إلى الجزيرة الخضراء). والذى كان على مذهب الخوارج الأزارقة فى تكفير جميع المسلمين، واجتمع إلى قوم من العرب يقرؤن عليه مذهبه فأغواهم وشاع خبره ومذهبه، والذى لما توفى القاضى إبن الجلاد بسبتة، سيذكر مقتله أيام المنصور.(١)

وهكذا تشابكت الأمور بين بلاد المغرب المراكشى (مراكش)، وبين كل من بلاد الأندلس (بكل عناصرها من عرب وبربر (بلديين)، وبلاد إفريقية بكل عناصرها من بربر (بلديين) وعرب (هلالية) وأتراك أغراب وافدين). وكل ذلك يعنى أن مسألة الدمج والتوحيد بين كل تلك العناصر، فى تلك

---

(١) ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١٢٨- هذا كما توفى أبو بكر الحصار الأشبيلى فى سنة ٥٧٩هـ ١١٨٣م، (بسبتة) والمشرف بإفريقية إبن مثنا.

الدولة المترامية الأطراف لم تكن شيئاً هيّنا أو سهل المنال. ولكنه كان على الخليفة الموحدى أن يتحمل تبعات الإمبراطورية، وكان على حزب التوحيد بكياناته الثقافية والمعنوية، أن يستمر فى مراحل التشكيل الوحدوية- فى ظل ظروف تلك السلبيات الطائفية.

عود على بدء: يوسف وتقويم الموقف من جديد فى الأندلس بالإقامة فى نيابة أشبيلية

وهكذا صدرت الأوامر الخلافية بتمييز المجاهدين، من: الموحدين والعرب والقبائل والغز، وتم ذلك العرض فى يوم السبت ٢٥ جمادى الثانى/١٤ أكتوبر١١٨٣م. كما صدرت الأوامر بعمل ١٠ (عشرة) مجانيق، وتم صنعها ومن ثم جرب رميها بالحجارة فى حضرة الخليفة يوسف. وذلك فى مكان التبريز (التدريب) ببساتين البحيرة خارج مراكش، فى حضور النظارة خلال الأيام المتبقية من شهر جمادى الثانية.

وبقدوم شهر رجب إرتحل من البحيرة إلى القصر الخلافى بمراكش، وكان دخوله من الباب الجديد فى مراكش، وهو باب الشريعة (مصلى العيد)، فكأنه كان حفل افتتاح ذلك الباب. فلقد عبر الموكب الملكى باب الشريعة، وقد تقدمه ماشياً على قدميه (ولى العهد) إبنه أبو يوسف يعقوب، يحيط به جميع البنين. وأ قام فى القصر يفكر فى أمر الغز ويدبر شئون الحملة العسكرية.

والظاهر أن أخاه أبا يوسف بن عبد المؤمن والى مرسية، كان متهماً فى أشياء أخذت عليه، والظاهر أنه كان يخشى أن تكون الغزوة فرصة لمساءلته، فرأى أن يبادر بالمسير إلى الحضرة فى مراكش (في نفس شهر رجب وقت الإعداد للحملة)، ووصل فعلاً إلى الحضرة مع جملة من أعيان ولايته (مرسية)، ولكنه لم يؤذن له بالدخول على أخيه أمير المؤمنين لما وصله عنه، وصحّ عنده، ثم أمره بعد ذلك بالدخول مع (الإخوة والأبناء)

السادات والموحدين.(١)

تدبير شئون الأندلس الإدارية

وكان من الطبيعى أن يكون تدبير شئون الأندلس الإدارية، وهو ما استغرق الجزء الأكبر من شهر شعبان، حيث صدرت الأوامر فى ٢١ منه/ ٩ديسمبر١١٨٣م، بتعيين أبناء الخليفة الأربعة، حكاماً لقواعد بلاد الأندلس. فلقد تعين السيد أبو إسحق (الأسنى) والياً على أشبيلية، أما عن قرطبة فكانت من نصيب أبى يحيى، وكان الذى سعى له فى ولايتها أبو الوليد بن رشد (الفيلسوف) الذى آل إليه القضاء. هذا وكانت غرناطة من نصيب أبى زيد، بينما آلت مرسية إلى أبى عبد الله. وكان عليهم المسير إلى ولاياتهم هذه، «كمقدمة لحركته الحافلة».(٢)

هذا وكانت ولاية المدن الكبرى أيضاً من إختصاص الأمير. وهكذا عزل أبو يعقوب يوسف أحمد بن محمد الحوفى عن قضاء أشبيلية، وعهد به إلى أبى المكارم بن الحسين المصرى، كما عهد بقضاء أغرناطة إلى أبى عبد الله الصقر. وكان على القضاة أن يصحبوا السادة المسافرين. هذا، «كما أمر لجميع المعينين للسفر مع السادة بالكسوة والزاد على مراتبهم وأقدارهم».

وهكذا تحرك الجميع للسفر إلى الأندلس فى ٢٧ من شعبان/ ٨ديسمبر١١٨٣م، بعد ما أمروا بالرفق فى المسير.(٣)

---

(١) ابن عذارى، الموحدون، (هويثى)، ص١٢٨-١٢٩ .

(٢) ابن عذارى، الموحدون، (هويثى)، ص١٢٩ .

(٣) ابن عذارى، ص١٢٩ .

ترتيب الحملة المتحركة إلى الأندلس

وفي نفس يوم ٢٧ شعبان/٢٨ ديسمبر كان عرض الحملة العسكرية، فحضر الموحدون، والعرب، والمتجندون، وصنفهم الخليفة على قدر طبقاتهم، وأمر بالجرى على سنن الحق فى ذلك.

وفى يوم ١٥ من رمضان/٢ يناير، تمت قسمة السلاح والخيل على طلبة الحضرة، وقدّر لذلك ٢٤ (أربعة وعشرون) فرساً. هذا، كما أعطى خباء (خيمة) لكل ١٠ (عشرة) من الفرسان. وتمادى «هذا الإنعام والإحسان إلى شهر شوال» (يناير-فبراير).

وفى ٢١ رمضان/٩ يناير ١١٨٤م أخرجت البركة لجميع العساكر من الفرسان والرجال.

أما المسيرة فحدد لها يوم السبت ٢٥ من شوال/٨ فبراير ١١٨٤م. وكانت الحركة بعد صلاة الصبح وقراءة الحزب، كما جرت العادة. وهكذا إجتمع الناس واستعدوا للسير، حسبما أمروا ووعدوا.

وسار أمير المؤمنين يتقدمه علمه على الأرض مع الرجالة المتقدمين لموكبه «على العادة من الترتيب». وكان ترتيب الموكب يقضى بتقدم مصحف عثمان على جمل أبيض مرتفع وعليه كله قبّة حمراء تصونه، وهو مرصع بنفيس الجوهر والياقوت [(١)].

ويسير خلفه بنوه مع إخوته السادات، وتخفق فوق رؤوسهم الرايات مختلفة الألوان، وكان خروجه من مراكش على باب دكالة (شمال باب

---

(١) ابن عذارى، ص١٢٩، وأنظر أيضاً عن مصحف عثمان، عبد الواحد المراكشى، ص٢٥٣- حيث حجر الياقوت المسمى بالحافر، الذى جعلوه فيما كللو به المصحف- إلى اليوم (سنة ٦١١هـ) مع أحجار نفيسة. وحيث أن المصحف من نسخ عثمان، وإنه من خزائن بنى أمية (فى الأندلس)، وأنه كان يحمل على ناقة حمراء... وخلف الناقة بغل محلى أيضاً، عليه مصحف آخر بخط ابن تومرت...

مسوفة العرائش)[١]، ومن الواضح أن مثل هذه الاحتفالات الكبرى كانت مناسبة للتشهير بالمتهمين بخيانة الدولة، وخصوصاً فى الأموال وللتأكد من وصولهم تحت رقابته والأمير شخصياً فى أى وقت ومكان.

وهكذا أخرج على بن يحيى بن حيون الكومى، إبن مشرف تلمسان السابق (أبو زكريا يحيى)، وهو مصفد بالحديد، وعليه رقباء الأمن يحرسونه ليلاً ونهاراً. وأثبتت الأحداث أن الرجل إبن عصبية عبد المؤمن، كان يمثل خطراً على أمن الدولة قبلاً، فما أن وصل إلى موضع تواقطين حتى نجح فى التحيل على رقبانه، إذ سقاهم الخمر، ولما أسكرهم كسر حديده وفر على فرس أعطاه له أحد بنى عمه. وأنزل بالمسئولين عن الحدث بالخيانة العظمى وأنزلت بهم العقوبات الرادعة، وكان مصير الرقباء من الحراس هو الموت بحد السيف، أما عن غيرهم من المتهمين فكانت عقوبتهم السجن.[٢]

الوصول إلى رباط الفتح

مصير الحملة: إلى الأندلس أم إلى أفريقية؟

والمهم أن الوصول إلى قاعدة رباط الفتح العسكرية كان فى يوم الإثنين ١٣ من ذى القعدة/٢٨فبراير١١٨٤م وكان النزول فى مدينتها التى أطلق عليها إسم المهدية[٣] تيمنا بذكرى المهدى بن تومرت. ولابأس أن كانت مهدية إفريقية الفاطمية هى التى أوحت بتسمية المهدية هذه، على المدينة السكنية بسلا، قبل أن يغلب عليها اسم الرباط إختصاراً لرباط الفتح.

وبعد إقامة أسبوع أى فى يوم الإثنين ٢٠ من ذى القعدة/٧مارس ١١٨٤م، ومع تباشير فصل الربيع، فصل الإعداد لمسيرة الصوائف (الغزوات الصيفية)، وصل من إفريقية وبلاد القيروان أبو محمد بن أبى

(١) ابن عذارى، ص١٣٠، وعن أبواب مراكش انظر، مسالك الأبصار للعمرى، ترجمة ديمومبين الفرنسية، شكل٤ ص١٨٠-١٨١.

(٢) ابن عذارى، الموحدون ، ص١٣٠ وانظر ما سبق .

(٣) ابن عذارى، ص١٣١ .

إسحق بن جامع، أحد قواد أسرة بني جامع التي تخصصت في الخدمة العسكرية البحرية وقيادة الأساطيل فيما بعد، بجملة (فريق) من الفرسان. وعندما دخل على أمير المؤمنين يوسف، «سأله عن أحوال العرب المنافقين الجهال»، فعرفه ابن جامع «أن إفريقية في نهاية العافية». ولكن العرب عندما سمعوا بالحملة فروا بأهليهم، «فلا يتقى بأسهم ولا يفارقهم نكثهم».[1]، فكأن الأوضاع في إفريقية لم تكن مطمئنة تماماً بالنسبة لإضطراب عرب إفريقية، المعّول عليهم بالنسبة للموحدين- ليس في المشاركة في الجهاد بالأندلس، بل الاستيطان فيها، الأمر الذي يحيي الأمل في مواجهة «الاسترداد» الأندلسي «بالاسترجاع» الموحدي المغربي. وفي هذه الظروف غير المطمئنة، ظاهرياً على الأقل، أمر الخليفة بحضور شيوخ الموحدين والعرب والقواد، وعندما حضروا لم يخرج إليهم الخليفة بنفسه- الأمر الذي قد يعني نوعاً من عدم الترحيب، إذ بعث إليهم ابنه السيد أبا يوسف (المنصور) مع شيوخ الموحدين ليقول لهم: «إن سيدنا أمير المؤمنين يقول لكم: أنتم قد وصلتم واجتمعتم، وهو يستشيركم في هذه الحركة (الحملة): إما لإفريقية وإما للأندلس، كل واحد فيكم بمراده»[2]- فكأنه يترك لهم الحرية في تقرير مصير الحملة إما لإفريقية أو للأندلس- وكأن الأمر لم يتقرر بعد. وكان على أصحاب النباهة من كبار القواد والشيوخ أن يقرروا أن تبقى مسيرة الحملة المقررة سلفاً إلى الأندلس هدفها الأول، إذ «قالوا بلسان واحد: ليس أملنا إلا في غزو الكفار بجزيرة الأندلس»، فما كان من الخليفة عندما عرف ذلك- إلا أن حمد الله «على نعمه الكاملة وآلائه الشاملة[3]». فكأن مجلس عموم أهل الشورى هو الذي أعطى الشرعية لمسيرة الجهاد في الأندلس.

---

(١) ابن عذاري، الموحدون ، ص١٣٠ .

(٢) ابن عذاري، الموحدون، ص١٣٠ .

(٣) ابن عذاري، ص١٣٠ .

كلب العدو البرتغالي ينادي بالجهاد في الأندلس:

والحقيقة أن الخبر كان قد وصل قبل أيام من الأندلس بأن العدو الغادر نكث العهد ونازل بحصن حصون المسلمين، الأمر زاد من غبطة الناس بالإقبال على جهاد الأعداء. وهكذا تم الجواز على قنطرة بحر سلا في ٢٨ من ذي القعدة/ ١٥ مارس ١١٨٤م، وكان جواز الخليفة، آخر الناس، في ٣٠ من نفس الشهر، وتمادى السير إلى مكناسة حيث كان الوصول في ٦ من ذي الحجة/ ٢٢ مارس ١١٨٤م. وحيث كان تعييد الأضحى في بستانها الكبير في ٢٦ مارس ١١٨٤م. ومن ثم كان الرحيل إلى فاس في ١١ من (ذي) الحجة/ ٢٧ مارس، والمتاخمة للأشبونة (الشبون)، فوصلها الأربعاء ١٣ ذي الحجة ٢٩ مارس ١١٨٤م حيث نزل البستان (البحيرة)، وارتاح ٣ أيام، وهو يستفهم عن أحوال البلد ويختبر العمال ويوقع العقاب بالخونة منهم.

وتبين العقوبات التي أنزلتها محكمة التفتيش الإدارية هذه، تحت إشراف الخليفة، أن أبا يعقوب كان قاضيا صارما، كما تبين في نفس الوقت أن مدينة فاس، وهي المرفهة على طول العصور، كان يصعب عليها الالتزام، بالآداب الصارمة التي تنادي «بحركة التصحيح الموحدية، وخاصة فيما يتعلق بالتقشف والبعد عن المنكرات الخارجة» ما كبر منها وما صغر، وما يترتب على ذلك، بداهة، من الخيانة في المال العام.

والحقيقة أن الخزانة العامة في حاجة ماسة دائماً إلى المال، وخاصة من أجل ميزانية الدفاع التي كانت تتزايد مع تزايد عدد الأعداء والخصوم، كلما اتسع التراب الوطني في إفريقية، ومع زيادة نفقات الجهاد اللازمة لإقرار الأمن في الأندلس. هكذا تمّ الإيقاع- بعد أيام قليلة من الوصول إلى فاس بمشرفها (مشرف الجباية): عبد الرحمن بن يحيى، وذلك أنه كان قد صحت عنه خيانته في الأموال، بل «وحمله على الرعية وإذايته»، وكذلك الأمر بالنسبة لرجلهم المقرب إبراهيم بن عبد الله الجياني، والذي يوصف من أجل ذلك «بالجاهل قدر نفسه». وهكذا، تمت مصادرة دورهم

(القبض عليها) أجمع في كل بلد ومكان، ومن ثم أكبلهم، وحبسهم في سجن أليم. وهكذا استشرت عملية التفتيش عن الخونة في المال، وأسفرت عن القبض على ١٨ (ثمانية عشر) عاملاً. فكان المقبوض عليهم ٣ (ثلاثة) عمال، هم: المشرف العام: ابن يحيى والخازن على المال: الذهبي، والخازن على الطعام: الطرسوقي. وفي مكناسة تمّ القبض على المشرف (العام): ابن عاصم، وابن هود: العامل، وصاحب المدينة (المحتسب): إبن عمر.

هذا إلى جانب القبض على المشرف برباط تازا، صاحب ملوية: على بن مرزبان، وقاضي المعدن (بمدينة داي) وغير هؤلاء. والمهم أن أموال المتهمين صودرت (إستؤصلت)، كما ردّت ضياعهم (مزارعهم). للحكومة (المخزن)، بل وكذلك رباعهم (منازلهم الريفية) الكبيرة. ذلك مما كشف عنه من ممتلكاتهم، وبقيت بعدها ما طولبوا به من الأموال التي قاطعوها (إلتزموا بها) على أنفسهم، وقدرها ٤٦٠ (أربعمائة وستين) ألف دينار، تعهدوا بتقسيطها على أنفسهم، فأصبحت من جباية الدولة المعروفة بالتقسيط: فكأنها من المال المعروف في نظام الإلتزام، المقرر نظير الجباية. وتم ذلك التقسيط بشهادة العدول، كما «جعل عليهم الرقباء حتى دفعوا المال المذكور».[(١)]

وبطبيعة الحال فأمير المؤمنين كان مضطراً لاستخلاص تلك الأموال إستخلاصاً عنيفاً، فمصارفها كانت لا تتحمل التأجيل، والحملة الجهادية المأمولة لا تستطيع التوقف على باب المجاز.

الوصول إلى قصر المجاز: قصر مصمودة

وهنا يجب الإشارة إلى أن جواز القوات الموحدية من برّ العدوة المغربية إلى برّ الأندلس، كان أمراً لا يعادله عبور قوات الفتوح الأولى، كعبور طارق بن زياد الذي أطلق إسمه على الجبل المقابل لجزيرة طريف، والذي

(١) ابن عذاري، الموحدون (هويثي)، ص١٣١ .

تيمن به عبد المؤمن من جديد فسماه «جبل الفتح». والواضح تاريخياً أن تقنيات العبور كانت تتطور آلياتها بشكل سريع، بل، ومنذ البداية إذ نلاحظ أن عبور موسى بن نصير برجاله من فرسان ورجالّه، من البر المغربى إلى عدوة الأندلس كان مختلفاً تماماً عن عودته من الأندلس إلى سبتة- حيث حمل سَبيه وتحفه على ١١٤ (مائة وأربعة عشر) عجلة- كانت وافدة معه من الأندلس بطبيعة الحال (ج١ص٢٣٥).

ومثل هذا كانت عملية الجواز الموحدية التى يشرف عليها الخليفة أبو يعقوب يوسف، وكبار مستشاريه، مسألة معقدة، تتطلب الكثير من الخطط والرسوم، وخاصة أن تشكيل العسكر كان يختلف نوعاً ما بين مصامدة السوس، ومن دخل فى خدمتهم من صنهاجة الصحراء، إلى جانب العناصر الأندلسية البلدية، ومن ثم عرب إفريقية الهلالية- وهم من فى حرابتهم فى الحركة وفى الكرّ والفرّ، على المستوى الشخصى كما على مستوى الجماعة والقبيل.

وهكذا أصدرت أوامر الخليفة يوسف، فى يوم الإثنين ١٨ (الثامن عشر)، بتقدم كل من قبيلة هنتاتة، وجماعة أهل تينمل، من مدينة فاس إلى قصر المجاز (قصر مصمودة) برسم الجواز إلى الأندلس. وبهذه المناسبة أنعم الخليفة على شيوخ العرب الذين كانوا قد وصلوا إلى رباط الفتح، أيام إمامته هناك إنتظاراً لبدء العبور، حيث «أنعم عليهم بالكسوة العجيبة، والبركات الرواتب الجزيلة». ورغم أن بقية النص يشير إلى أنهم كانوا قد «اشترطوا على أنفسهم أن يحضروا لهذه الغزوة فى ١٣٠ (مائة ثلاثين) ألفاً بين فارس وراجل»، وهو العدد المبالغ فيه من غير شك، حتى لو كان الرقم ثلاثين ألفاً فقط- ونحن نجتهد فى تقويم الرقم من حيث الشكل فقط.(١)

وأمر الخليفة إبنه السيد/ أبا حفص بالمشى إلى شيوخ العرب ليتقدمهم

(١) ابن عذارى، ص١٣١. وقارن ابن خلدون، ج٦ص٢٤١.

فى المسير إلى الجواز لبر الأندلس. وكان خروج الأمير الشاب على رأس العرب من فاس يوم ٢١ من ذى الحجة/٨إبريل/١١٨٤م. هذا،كما تقدم أيضاً بعد السادات (الأمراء) على بعض قبائل الموحدين عند الجواز.

وبطبيعة الحال يتطلب الأمر «الكتابة إلى من بالأندلس من الولاة أن يكونوا على هيئة للجهاد»، وأن يكونوا أيضاً على أهبة الاستعداد لاستقبال «هذا الجمع الحفيل غاية الاستعداد».(١)

وبعد مسير المجاهدين من فاس إلى قصر الجواز من قصر مصمودة، كان على الخليفة أن يكون آخر العابرين. وتم ذلك مع دخوله سنة ٥٨٠هـ/ الذى كان مصاحباً لتمام الربيع، فكأن الحملة التى بدأت من مراكش فى فصل الشتاء، قد صارت صائفة، فى فصل نضج المحاصيل، فصل الوفرة فى الغذاء والفاكهة، فترة الوفرة لطعام الأغنام والماشية- وكل هذا كان من مشهيات حرب الطوائف.

والمهم أن الخليفة أبو يعقوب تحرك من مدينة فاس يوم الثلاثاء الـ٤ (الرابع) من المحرم/١٨ إبريل١١٨٤م فى موكبه المعتاد، والعلم الأبيض يرفرف عليه وأبناؤه السادات وإخوته يحيطون به، إلى أن وصل سبتة حيث أقام بقية المحرم والأيام الأولى من صفر، حيث كان عبوره فى اليوم الـ٥ (الخامس) من صفر/١٩ مايه١١٨٤م، فكان نزوله بجبل الفتح، من حيث كانت المسيرة إلى الجزيرة الخضراء فى إتجاه أشبيلية التى وصلها فى ١٣ من صفر ٥٨٠هـ/٢٧مايه١١٨٤م.(٢)

وخرج أهل أشبيلية لاستقباله، وعلى رأسهم شيوخ الأندلس من العلماء والفقهاء. وفى تقدير أبى يعقوب يوسف للعلم، يذكر له أنه عندما «أبصر ابن الجد يسرع فى مشيته ليسلم عليه، ترجل عن فرسه وتلاقيا، فترامى ابن الجد على يد أمير المؤمنين، وقبلها ومسح بها وجهه، وقال: الحمد لله

---

(١) ابن عذارى، المرابطون (هويثى)، ص١٣١-١٣٢ .

(٢) ابن عذارى ، ص١٣٢، وقارن ابن خلدون، ص٢٤١ .

الذى جمعنى بك يا حبيبى وحبيب الناس... » وقابل الخليفة كلام ابن الجد بابتسامة (رضى على ما يظن)، وذلك أن بقية النص يقول: «وهذا من تواضعه (يوسف) وفضله». وتستمر رواية البيان التى تعتبر اختصاراً لمَنْ صاحب الصلاة، الذى يقول بالمناسبة: «وكنت حاضراً فى يوم هذا اللقاء فسلمت عليه (يوسف) مع من تقدم من الطلبة إليه... ونزل- رضى- داخل البحيرة التى له بخارج باب قرمونة».(١)

وفى اليوم التالى (١٤ من صفر) أمر بإخراج السلالم والعدد، كما أمر بعرض (تمييز) العسكر والعدد، وتوزيع جميع تلك الأسلحة والعدد على العساكر. أما عن أشياخ (رؤساء) الموحدين العرب والأجناد (المحيطين بالسادة أفراد الأسرة المؤمنية) فقد «قُسِمّ عليهم ١٠٠٠ (ألف) فرس من العتاق الجياد». وخلال تلك الفترة كانت عساكر الأندلس تتوافد على الحاضرة أشبيلية «من أقطارهم وأمصارهم». وإلى جانبهم أتى قائد البحر أبو العباس الصقلى بقطع بحرية من الأجفان الغزوانيات، وآلات الحرب البحرية والمعدات.

وهكذا كانت الأمور تسير حسب الخطة المرسومة للحشد من أهل الغزوة الفاصلة ضد البرتغال، ولم يعكّر صفوها سوى ما حدث فى ١٩صفر/٢ يونيُه١١٨٤م من التنكيل بقائد الدولة الشهير: أبى عبد الله بن وانودين، مما سبقت الإشارة إليه. أما عن سبب تلك الوحشة بين الخليفة وقائد الدولة الكبير، فهو تأخر هذا الأخير فى الخروج لاستقبال أمير المؤمنين يوسف عند حلوله بأشبيلية، ذلك بسبب وعكة ألمت بابن وانودين. وكانت فرصة استغلها خصوم ابن وانودين وحساده من كبار رجال الدولة الذين «ضربوا فيه عند الخليفة، وقيل عنه (ابن وانودين) ما كان وما لم يكون، فأمر (الخليفة) بخروجه أسوأ خروج». والظاهر أن الخروج كان يعنى قعوده مشهراً فى حالة مزرية، وهو الأمر الذى استمر مدة يومين، صدر الأمر

---

(١) ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١٣٢ .

بعدهما بتغريبه إلى منطقة غامق على وجه التأديب. فخرج ابن وانودين وقد شاركه في العقوبة، رجل آخر من كبار الدولة، وهو: أبو زكريا يحيى بن الشيخ إبراهيم، الذى إتهم هو الآخر بالتخلف عن المبيت بالمحلة ليلتين، «فكانا خليلين إبتليا ببليتين»، كما تقول الرواية.(١)

والذى نراه أن القائدين الكبيرين، ربما كانا متهمين- بدورهما- بالخيانة فى أموال المغانم المعروفة بإسم «الغلول».

أما عن مسألة محاسبة العمال على ما كان تحت إشرافهم من أموال الجباية، وكذلك محاسبة كبار القواد عن «الغلول» وعن الإهمال فى أداء واجبات الاحترام لقرارات الخليفة وأوامره المتعلقة بالترتيبات الخاصة بالنظام العسكرى فى حملة الأندلس التى كانت تحت الإشراف المباشر لولى الأمر، هذا،إلى جانب ولاية الأقاليم وخاصة فى الأندلس، إنما كانت تعنى انتهاج سياسة جديدة، هدفها تثبيت أقدام ملك أبى يعقوب يوسف، وتثبيت أركان أسرته الملكية، تماماً كما حدث على عهد عبد المؤمن فى الفترة التى ثار فيها إخوة المهدى، وما صاحبها من الاضطراب، مما اعتبر أيضاً بمثابة علامة استقرار لملك عبد المؤمن.

(١) ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١٣٢-١٣٣ وقارن ابن خلدون، ٢ج-ص٢٤١ .

التطهير الإدارى والتصفية العسكرية
واشارة لبدء الحملة الأندلسية فى أحوال مستقرة

وهكذا،لم يتطلب الأمر أكثر من أسبوع قضاه الخليفة يوسف فى أشبيلية لإصلاح الأمور الخاصة بالعسكر، إلا وبدأ التحرك لغزو العدو البرتغالى، وذلك فى صبيحة يوم الخميس ٢٦ من صفر ٥٨٠هـ/١٢ إبريل سنة١١٨٤م، والهدف المنشود هو مدينة شنترين (santarem)، الواقعة على نهر تاجه فى أقصى الغرب.

وكانت المسيرة من مرحلة (بنزل) إلى أخرى، والنزول بحصن العرجة (alarja) فى يوم الجمعة ٤ ربيع الأول. وكان الخروج منها، «وقد استكملت عليه (يوسف) العساكر من كل أفق (من الأندلس). وقد خرجوا فى أحسن هيئة، «وقد تزيا الجميع بأحسن الزى، وتبختروا فى المشى، وتوشحوا بالسيوف الهندية، والدرق اللمطية، والقسى الخطية» حتى وصلوا مدينة بطليوس حيث كان نزولهم.

وتم فى بطليوس وهى المدينة التى أصبحت ثغرية العرض الأخير للعساكر، استعدادا لأخذهم أوضاع الحرب والنزال، وذلك بلبس السلاح، وتجديد ما كان ينقصهم من الزاد (والعلف). ومن المهم الإشارة هنا إلى أن القائدين الكبيرين حيون الكومى، وإدريس بن جامع (مع طبيبه) كانا مغرّبين- تبعاً لسياسة محاسبة العمال التى استشرت فى دولة الإسلام إعتباراً من أيام الرشيد والبرامكة- فى كل من مدينتى بطليوس وماردة، فعندما عرفوا بالحملة إلى شنترين إستأذنوا الخليفة فى المشاركة فى ذلك الغزو، فقبل يوسف فى التو واللحظة، «ومشوا فى جملة المجاهدين».[1]

وكان الرحيل من بطليوس يوم الخميس ١٠ ربيع الأول / ٢٢ يونيه ١١٨٤ م، وعندما وصل إلى وادى تاجه أمر الموحدين بالتقدم على طول

(١) ابن عذارى، الموحدون ، ص١٣٣

النهر حتى يقفوا على باب شنترين. وكان من المشاركين فى المسير لحصار شنترين السيد أبو إسحق، الوالى على أشبيلية، وكان وصولهم إلى باب شنترين يوم الأربعاء ١٦ ربيع الأول/٢٨ يونيه ١١٨٤م.(١)

وبسبب الموقع الحصين لمدينة شنترين ما بين وادى تاجه والجبل، كان على الموحدين إستطلاع المكان واستكشافه: وأدّى ذلك إلى نزول الخليفة بجميع عساكره فى الجبل القريب الذى يطل على المدينة، بينما صدرت الأوامر للعساكر بالاستعداد لمناجزة أهلها والدفاع، فتأهبوا لذلك بينما إنحجز أهلها فى داخلها، وقد ملئت قلوبهم رعباً. وأمير المؤمنين فى داخل قبته الحمراء يحمس الناس بالتكبير والتهليل، والناس فرحون بذلك، وباتساع الأقوات، ورخيص الأسعار، إذ كان سعر الشعير: ١٢ مدا بدرهم، والقمح ١٥ مُداً بدرهم.(٢)

والمهم أن أهل شنترين انحصروا انحصاراً شديداً، حتى لم يخرج منهم أحد، كما هدم ربضهم المتصل بالسور، وأشعلت فيه النيران. وهكذا طمع المسلمون فى دخول المدينة حتى أمر النجارون بعمل السلاليم الخاصة باعتلاء السور. وبات الناس على أحسن مبيت ليلة الجمعة ١٨ ربيع الأول/ ٣٠ يونيه١١٨٤م. وفى صباح الجمعة أمر الناس بالتأهب لقتال أهل المدينة فى الأسوار. وأسفر القتال مع أهل المدينة عن تمكن الموحدين من الربَض، وضغطوا على الفرسان منهم حتى «كانوا يترجلون عن خيولهم، ويطلعهم إخوانهم بالحبال من أعلى سور القصبة»، كما هدمت الكنيستان

---

(١) ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١٣٣، وقارن عبد الواحد المراكشى، المعجب، ص٢٥٧، وابن الأثير، ج١١ ص٥٠٥، وابن خلدون، ج٦ ص٢٤١- حيث مجرد الإشارة إلى حصارها.

(٢) ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١٣٣-١٣٤- حيث يقول ابن صاحب الصلاة فى منّه: لقد رأيت فى هذا اليوم ثوراً بيد عربى باعه بدرهم واحد. ولقد اشتريت مع أصحابى بقرة سمينة بـ ٣ دراهم. وامتلأت المحلات على كثرتها وكبرها من البقر والغنم.

اللتان كانتا بأطراف المدينة البرانية التى انتهى الأمر بخرابها [١].

واستمر القتال من يوم السبت إلى يوم الإثنين ٢١ ربيع الأول/٣ يوليه سنة ١١٨٤م، حيث دارت فيه «حروب وخطوب»، حتى «أمر الخليفة أن يرفع الناس أيديهم عن القتال، وأن يرحلوا من منزلهم، وينزلوا فى منزل آخر»- فكأن ذلك الأمر كان بداية الفشل فى الغزوة. ومما زاد فى تشاؤم الناس. أن «كبا بابن الخليفة أبى إسحق فرسه واعتلت قدمه وتورّمت فى الحين، فكان يتصرف فى أوامر أبيه على سرير من خشب، ويحمل على الأعناق»- الأمر الذى زاد فى سوء الحال.

وكأن صاحب الرواية يريد القول بعد ذلك، إن المصائب لا تأتى فرادى، عندما يضيف إلى ذلك أنه حدث فى نفس ذلك اليوم (٢١ ربيع الأول) أن خرج عسكر أهل مرسية للإغارة على بسائط النصارى، فخرجوا عليهم، وانهزموا إلى المحلة، وأخذت من دوابهم ٥٠ (خمسون) دابة، وبات الناس على حذر.

أما ما أبهت العقول حقاً فى شنترين، فهو اختلال عقل خطيب الجماعة الذى كان يصلى بالخليفة، «عند رؤية شدة الحرب»، فركب فرسه، ودخل فى عسكر النصارى مُستجيراً بهم- تباً له من حدث مبك فى الإسلام... ورغم أنهم (النصارى) عرفوه وفهموا مذهبه، فإنهم اتهموه وقتلوه». وساءت إثر ذلك أحوال القتال إذ استشهد جماعة من أعيان الموحدين، ومن

(١) ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١٣٤- حيث التعليق على خراب شنترين هذا، بنبوءة الرجل الصالح: محمد إبراهيم حيث يدعو على شنترين فى علته التى توفى منها، فقال:

يا شنترين ولا أنادى سامعاً ... ألقت عليك بلاءها الاقدار

وتعبثت بجهاتها أعداؤها ... ومحا محاسنها البلى والنار

حتى أقول بنغمة يا بلدة ... لا أنت أنت ولا الديار ديار

وحيث تعليق الراوى: الذى ربما كان ابن صاحب الصلاة: ورحمه الله قائلها فلو كان حيّاً لرأى دعواه قد أجيبت فى هذا اليوم.

أشياخ رؤساء الأندلس وغيرهم.

وهكذا،كانت الحرب صعبة والنزال طويلاً بين الموحدين والبرتغاليين فى هذه الغزوة إلى أن انتهت باعتلال أمير المؤمنين، فأمر بالرحيل[1].

ولما كانت الغزوة تنتهى كما يأتى، بوفاة أمير المؤمنين الأمر الذى قد يوحى بأنه مات نتيجة العلة التى أصابته، ويستدرك ابن عذارى، ويوضح الخبر عن حقيقة وفاة أبى يعقوب يوسف فى غزوته هذه- أى خلال الحرب والقتال. وفى ذلك يقول أبو الحجاج يوسف بن عمر، أن سبب الغزوة سوء مجاورة عدو الغرب: إبن الرنك (ملك البرتغال)، أما عن قصر مدينة شنترين، فلأنها أكثر بلاده أجناداً. أما عن القتال فلقد برز الموحدون عليهم تبريزاً أذهل الخصوم وفتّ الأفئدة، وبسبب عمارة المنطقة والتفاف أشجارها، لم يكن للمدينة مسلك إلا من خلال الأغصان المتشابكة والمنعرجات الصلبة، الأمر الذى يخفى أشخاص الفرسان.

وهكذا، فلما تضاربت الأنباء عن القتال، الذى طال فعلاً لغير طائل، «عزم أمير المؤمنين على الارتحال، وأمر بأن يكون ذلك ليلاً، فاضطرب إقلاع الناس... وكثر الضجيج واختلاط الأصوات فلا ترى سميعاً ولا مطيعاً. ورغم ذلك تعود الرواية لتؤكد أن ثقات الخليفة طافوا على الناس ليلاً، وأوعزوا إليهم ترتيب التحرك وكيفية الإقلاع بعد رحيل الحمولة والأثقال». تعود الرواية لتقول: «وتوهم الناس أن الأمير قد أقلع سحراً، واحتاط لإجازة النهر مبكرا... ولما اتضح الفجر بطلت الظنون... فركب الخليفة، وليس بساقته إلا القليل غير مستعدين. وانحدر أمير المؤمنين من منزله»، وبقى ابنه المنصور فى الموضع يرتب من يظاهر الروم عند ظهورهم، وكان هؤلاء قد تسربوا بين الأشجار وانتهزوا الفرصة فى أولئك الفرسان والأتباع واستشهد جملة من أعيان الموحدين، ورؤساء الأندلسيين، وبعض بنى مردنيش، والخطيب بن المالقى (الذى اختل عقله(مما سبق ذكره).

(١) ابن عذارى، الموحدون (هويثى)، ص١٣٥ .

وعندما عرف الخليفة بدنو الروم من ساقته... أمر بضرب الطبول وإشراع الألوية في الفصول، ودفع من كان بجناحي الساقة على من وجدوا من الروم منبسطين وغادروهم فى مصارعهم مجندلين... ونزل أمير المؤمنين بعدوة الوادى... وأمر بتفرق الجموع... وأمر بتخريب المبانى إلي حصن طرّش... كل ذلك وهو مقيم بذروة جبله... والسيد أبو زيد إبن الأخ أبى حفص على معظم البعوث يستاق من المغانم الكثيرة. ووصلوا والخليفة ملتزم الفراش لعدة أيام وكان قد خرج عن مطيته مضطجعاً على فراشه.

وتماد القفول وضعفه يتزايد، والأطباء حاضرون: إبن زهر، وابن عقيل، وابن قاسم يلازمونه حتى جازوا وادى تاجه وضعف عن الجلوس على الدابة، «فصنع له سرير» ورواق عليه يحجبه من الهواء. والخدمة مطيفون به يتفقدون فيما يحتاج إليه من صلاح شأنه.

فذكر أنه تُفُقد بعد أميال فوجد قد توفى- رحمه الله- وذلك فى ٨ ربيع الثانى سنة ٥٥٨هـ/ ٣٠يوليه١١٨٤م.(١)

---

(١) قارن عبد الواحد المراكشى، المعجب:

الإعتصام بشنترين- (ابن الرنك)- الوصول إلى نهر تاجه (عظيم)- شدة دفاع أهلها- وصرامتهم.

الخوف من هجوم البرد آخر الصيف- ومن فيضان النهر مع إنقطاع المدد- الإنسحاب على وعد العودة فى العام القادم، قال: «ننصرف غدا إن شاء الله»- أول من قوض خباءه وأظهر الرحيل أبو الحسن بن أبى عبد الله بن عبد الرحمن المعروف بالمالقى - وكان خطبهم بين يدى خطيب الخلافة... العبور طول الليل- العبور تلك العشية.. الحرص على أخذ أحسن المواضع- بلغوا الخباء... وطعن أبو يعقوب فى سرّته... عبر به النهر جريا، وجعل فى محفة- هروب المالقى (عندما عرف تهديد الخليفة) إلى شنترين- أحسن إليه إبن الرنك- كاتب الموحدين... بعورات المرية (مخابرات).

ابن خلكان، وفيات الأعيان: وفاة يوسف من المرض- وحمل فى تابوت إلى أشبيلية.

المصادر والمراجع

- ابن الأثير
الكامل في التاريخ (ج ١١).
- ابن أبي زرع، روض القرطاس في أخبار
المغرب ومدينة فاس.
- ابن عذاري، البيان المغرب - تطوان،
هويشي، قسم ٣ .
- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ط ١٩٥٠ .
- ابن خلدون، العبر (ج ٦).
- ابن صاحب الصلاة، المن بالامامة،
- الإدريسي، نزهة المشتاق، الطبعة
المصرية الشاملة - ج ٢ .
- أشباخ، المرابطون والموحدون، ترجمة عنان.
- جودفروا ديمومبين، مسالك الأبصار
في ممالك الأمصار، مكتبة الاستشراق،
باريز (بول جتنر) ١٩٢٧ .
- حاجي خليفة، كشف الظنون، ج ٢
(لأنواع الساعة من البنجامات).
- انظر ديولافوا (مجموعة في واحد: اسبانيا والبرتغال -
باريس ١٩١٧).

- بروفنسال، رسائل موحدية، الرباط ١٩٤١

دراسة دبلوماسية باريس ١٩٤٢ .

- عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص

أخبار المغرب.

- عنان، الموحدون (ج ٢).

- العمري (ابن فضل الله)، مسالك الأبصار

في ممالك الأمصار.

- روض القرطاس في أخبار المغرب وتاريخ

مدينة فاس (المؤلف مجهول).

- القلقشندي، صبح الأعشي، ج ١٠ .

- كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق

المؤلف.

- سوفاجيه وكلود كاهن: مصادر دراسة

التاريخ الاسلامي، ترجمة عبد الستار حلوجي،

عبد الوهاب علوب، منشورات المجلس الأعلي

للثقافة، ١٩٩٨، رقم ٣١ (القاهرة).

- النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب،

نشر أبو ضيف

- هويثي (Huici)، امبراطورية الموحدين،

- المؤلف:

العلاقة بين صلاح الدين وأبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي ، مجلة

كلية الآداب - الاسكندرية ١٩٥٣ .

- عملية الانقاذ المرابطي في الأندلس - (ندوة الأندلس: الدرس والتاريخ ٢ ١٩٩٤ .
- كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار.

أسماء الرجال والقبائل والجماعات

أسماء الرجال والقبائل والجماعات.

أسماء المدن والجبال والأنهار وغيرها

من المواضع